

الإمام
الأستاذ عبد الحكيم محمود

الإسلام والعقل



دار المعارف

الإِسْلَامُ وَالْعَقْلُ

الإمام عبدالحليم محمود

الإِسْلَامُ وَالْعَقْلُ

الطبعة الثانية



دارالمعارف

التأثر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج ٢٠٠٢ ع .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف
المرسلين ، سيدنا محمد الداعي للحق والهادي إلى صراطك
المستقيم ، وعلى آله وصحبه والتابعين .
﴿ ربنا آتانا من لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيَّأْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رِشْدًا ﴾

مقدمة

إن كل من يدرس تاريخ الفكر البشري يلاحظ أن المسائل العقلية البحتة التي طرحت للبحث العقل في العصور القديمة ، هي نفس المسائل التي طرحت للبحث في العصور الوسطى ، وهي نفس المسائل التي تطرح الآن للبحث . إن مسائل ما وراء الطبيعة ومسائل الأخلاق مازالت كما كانت بجلا للبحث .

إنها لم تتقدم خطوة نحو الحل .

ومازال الخلاف فيها مستمرا - بنفس الحدة - التي كانت في القرون السابقة للميلاد .

ولقد حاول القدماء كما حاول المحدثون : اختراع مقياس فيصّل للفرقة بين الحق والباطل .

ومن أشهر المقاييس القديمة ، ما اخترعه أرسطو تحت عنوان : « المنطق » ولكن هذا المنطق لم يعصم فكرة المخترع نفسه عن الضلال .

ولقد برع في المنطق كثير من المفكرين القدماء ومن مفكري الإسلام . لقد برع فيه الكندي ، والفارابي ، وابن سينا .

بل لقد برع فيه الإمام الغزالي براءة كبرى .

وبرع فيه فلاسفة الإسلام للغربون ابن باجه ، وابن طفيل ، وابن رشد . وهؤلاء جميعاً - اختلفوا اختلافاً جذرياً - في آرائهم وفي نزعاتهم .

ما هو الحق في آراء هؤلاء ، وما هو الباطل ؟
إن منطق أرسطو ، وقف عاجزاً عجزاً تاماً ، عن بيان الخطأ والصواب في
آراء هؤلاء المنطقيين .

إلام يرجع هؤلاء للتثبيت من آرائهم ؟
إنهم يرجعون إلى أدلة عقلية يسهل جداً هدمها عقلياً ، كما يسهل جداً هدم
الهدم .

لقد قام الإمام الغزالي بعمل عظيم ممثلاً في كتابه « تهافت الفلاسفة » إنه في
هذا الكتاب : هدم آراء الفلاسفة ، رأياً ، رأياً ، فانهارت تحت قلمه ،
وسقطت في ضوء بيانه .
ولقد استغرق هدم الآراء ما يقرب من خمسة وتسعين في المائة من
الكتاب .

أما الخمسة في المائة فقد أبان فيها الإمام الغزالي الأساس الذي قام عليه
الكتاب ، وهو بيان أن العقل الإنساني ، لا يتأقن في عالم الإلهيات والأخلاق ،
إلا مظنيات تصل إلى اليقين .
وذلك العقل غير مؤهل للبحث فيها ، وأصبحت بذلك مجالاً للبحث
المستمر .

ومضى الزمن - في طريقه - بعد الغزالي حتى نشأ ابن رشد فأخذ يهدم آراء
الإمام الغزالي في نقد الفلاسفة ، وكان أيرع رد علي ابن رشد أن عمله هذا إنما
كان تأييداً للإمام الغزالي أكثر مما كان هدماً له .
وإن كل من يتأمل قليلاً في الموضوع يرى أن رأى الإمام الغزالي هو أن
العقل الذي يبني هو العقل الذي يهدم .

إن ابن رشد بعلمه هدم نفسه ، وأيد موقف الإمام الغزالي ، وبعضى الزمن
فيجىء ديكارت .

ويزعم ديكارت أنه اخترع مقياساً للفصل بين الخطأ والصواب .
ويؤكد ديكارت أن الإنسان لو اتبع في تفكيره المقياس الذى اخترعه خطوة
خطوة فإنه لا مناص سينتهى إلى الصواب ، وستكون ثمرة السير مع المنهج
الديكارتي : اليقين .

وكان أول دليل واضح على خطأ ديكارت هو ظهور الخطأ البين في آراء
ديكارت بالجانب المادى ، والتي هدمتها التجربة بصورة لاشك فيها .
أما آراؤه المعنوية فقد خالعه في الكثير منها أساطين الفكر وعباقره الفلسفة .
وكان منهج ديكارت أملاً عذباً ، ولكن البحث أظهر أنه سراب وليس
بماء .

وانتهى الأمل في منهج ديكارت كما انتهى الأمل في منطق أرسطو ، وبقيت
المسائل التي بحثت قبل الميلاد كما كانت :

- ١ - ظنية .
 - ٢ - مجالاً للبحث .
 - ٣ - مختلفاً فيها .
 - ٤ - الآراء فيها متعارضة من إنكار مطلق إلى إثبات مطلق .
 - ٥ - عجز العقل عن الحمل وعن الوصول إلى اليقين .
- إن العقل له دوره الكبير الهائل في الحضارة المادية ، بل إننا لا نعدو
الصواب حينما نقول : إن الحضارة المادية بأكملها من الإبرة إلى الصاروخ ،
ومن وابلور الغاز إلى البوتوجاز ، وإلى آلات الكهرباء من عمل العقل .

وعلى العقل قامت الحضارة المادية من أساسها .
ولكنه - إذا استقرأنا تاريخ الفكر النظرى البحت - عجز عجزاً تاماً عن
دور مثمر .

إن هذا الذى نقرؤه فى تاريخ الفكر البشرى عن عجز العقل فى مجال
العقائد ، وفى مجال الأخلاق ، يدل فى صورة سافرة على أن كل من يأمل أن
يصل إلى يقين عقلى فى ذلك ، فإنه مغرور .
ومن الغريب أنه برغم بداهة هذا العجز فإنه مازالت البشرية تسير فى هذا
الطريق المغلق .

﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ، كتب
عليه أنه من تولاه فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير^(١) ﴾ .
﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولاهدى ولا كتاب منير ، ثاقب
عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب
الحريق^(٢) ﴾ .

ولكن : كيف نصل إلى الحق فى هذه المجالات ؟
إن الله سبحانه وتعالى - وهو الحكيم الخبير - قد تفضل على عباده فهداهم
إلى الحق فى هذه المجالات على ألسنة رسله الذين تتابعوا الواحد تلو الآخر ،
هادين إلى الله ، مبشرين بالحق ، داعين إلى صراط الله ، حتى إذا انتهت
حكيمته سبحانه بإرسال محمد صلى الله عليه وسلم خاتماً للنبيين ، وخاتماً للرسل
تكفل سبحانه بحفظ الرسالة ممثلة فى القرآن الكريم .

(١) الحج آية : ٣ و ٤

(٢) الحج آية ٨ و ٩

﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ . .

وكأنه سبحانه وتعالى يقول :

لقد أرسلت لكم رسولا دائماً ، هو القرآن الكريم الذي ضمنت حفظه ،
ولستم في حاجة إلى إرسال بعده ، فرسالته مستمرة أبدية خالدة .

إنها الصراط المستقيم .

وهي الهداية الدائمة .

وهي بالأسلوب الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تتريل
من حكيم حميد .

فاهتدوا بها ، وتمسكوا بالحق الذي ترشد إليه :

﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولاهدى ولا كتاب منير ، وإذا
قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان
يدعوهم إلى عذاب السعير^(٣)﴾ .

وبعد : فيقول الله تعالى :

﴿ومن يعصم بالله قلبه هدى إلى صراط مستقيم﴾

• • •

وهذا الكتاب إنما هو تفصيل وتوضيح لما سبق .

وماأظن أنني فرحت في يوم من الأيام بظهور كتاب لي بمقدار ما فرحت
حين ظهر هذا الكتاب في طبعته الأولى .

وذلك أنه يعبر عن منهجي الخاص في حياتي الفكرية : منهج الاتباع .
وأنا أسير في هذا المنهج تبعاً لتوجيهات القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة .

(٣) همان آیه : ٢٠ و ٢١

وهذا الكتاب يشرح وجهة نظري ، وهي وجهة نظر وجه إليها القرآن
الكريم ، ووجهت إليها السنة النبوية الشريفة ، وسار على سننها أئمتنا الهداة
المهديون .

وهو كتاب أتقرب به إلى الله سبحانه ، وأرجوه سبحانه أن يهدي له وأن
يهدى به . وصلّى الله وسلم على الأسوة الحسنة والقنوة الربانية سيد ولد آدم
الشفيع الذي نرجو شفاعته يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

القسم الأول
في الفلسفة

الفصل الأول

القرآن هاد للعقل

يحلو لكثير من الناس أن يتحدث عن موقف القرآن من العقل ، ويذكر في محته أو محاضرتة :

إن القرآن هو كتاب العقل ، وأنه بأكمله : دعوة صارخة لتحرير العقل من عقاله ، وأنه يدعونا ، بعبارات تختلف في أسلوبها وتتحد في معناها ، إلى استعمال العقل ووزن كل شيء بميزانه ، وأنه يترك لنا الحرية في أن نعتقد ما يرشد إليه عقلنا ، وأن نتبع السبيل الذي ينيره منطقنا أو يهدينا إليه تفكيرنا .

وهم في هذا : يؤمنون في إخلاص : أنهم يحكمون الدين بموقفهم ، ويؤيدون القرآن بإيمانهم ، ويعتبرون ذلك نسقاً فريداً في المذاهب وتمطاً من سمة الأفق لاتصل إلى سمو العقائد السابقة ، أو المعاصرة .

وهم لا يلقون القول ، دون أن يستندوا في آرائهم على الآيات القرآنية نفسها ، وعلى موقف المسلمين أنفسهم ، في تاريخهم الطويل ، من الفكر الإنساني ومن المفكرين الذين اتبعوا منطقهم وتفكيرهم الخاص .

ومن الآيات التي يستدلون بها ، والتي يقدمون بها كشاهد : الآيات الكريمة التالية :

﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل تتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو
كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يتدون ﴾^(١) .

﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم
أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل ،
أولئك هم الغافلون ﴾^(٢) .

﴿ أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء وأن
عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾^(٣) .

﴿ وقل الحق من ربكم لمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين
ناراً أحاط بهم سرادقها ، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس
الشراب وساءت مرتفعاً ﴾^(٤) .

﴿ حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجثرون ، لا ينجسوا اليوم إنكم منا
لا تنصرون ، قد كانت آيات تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون
مستكبرين به سامراً تهجرون أقلم يدبروا القول ؟ أم جاءهم ما لم يأت آباءهم
الأولين أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون أم يقولون : به جنة بل جاءهم
بالحق وأكثرهم للحق كارهون ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات
والأرض ومن فيهن ، بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون ﴾^(٥) .

(١) البقرة : ١٧٠ .

(٢) الأعراف : ١٧٩ .

(٣) الأعراف : ١٨٥ .

(٤) الكهف : ٢٩ .

(٥) التوبن : ٦٤ - ٧١ .

﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، أولو
كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾^(٦) .
﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم من كتب
شهادتهم ويستلون وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم
إلا بخرصون أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون بل قالوا إنا وجدنا
آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من
نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون قال أولو
جشكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾^(٧) .
هذه الآيات الكريمة ، بل والقرآن في جملته ، والأحاديث الشريفة في
جملتها ، وتاريخ الإسلام . . . إن كل ذلك يدل - حسباً يرون - على أن
الإسلام دين العقل .
وإذا ما تساءلنا الآن عما يعنون بقولهم إنه دين العقل ، أجابوا بأنه يحتمل إلى
العقل .

ويرون بذلك أنه يحكم العقل في المسائل والمبادئ والقواعد .
وينتهي ذلك لامتناس ، بأن يكون العقل هو القائد وليس الدين ، وذلك
قلب للأوضاع وانحراف عن الصراط المستقيم |
أما الصراط المستقيم : فيما يتعلق بصلة الدين بالعقل فهو :
١ - أولاً : جاء الدين هادياً للعقل في مسائل معينة : هي أولاً ، ما وراء
الطبيعة : أي العقائد الخاصة بالله سبحانه ، ويرسله صلى الله عليهم وسلم ،

(٦) لقمان : ٢١

(٧) الزخرف ١٩ - ٢٤

وباليوم الآخر ، وبالغيب الإلهي ، على وجه العموم .
 وثانياً : في مسائل الأخلاق : أي الخير والفضيلة ، وما ينبغي أن يكون
 عليه السلوك الإنساني ليكون الشخص صالحاً .
 وثالثاً : في مسائل التشريع الذي يتظم به المجتمع وتسد به الإنسانية .
 وجاء الدين هادياً للعقل في هذه المسائل بالذات ، لأن العقل إذا بحث فيها
 مستقلاً بنفسه فإنه لا يصل فيها إلى نتيجة يتفق عليها الجميع .
 ومعنى ذلك : أنه لو ترك الناس وعقولهم في هذه المسائل فإنهم يختلفون
 ويضربون فرقاً عديدة ، ويتنازعون ، ولا ينتهي الأمر بهم إلى الوحدة
 والانسجام . ولا إلى الهدوء والطمأنينة .

٢ - وجاء القرآن : يفهمه العقل في المحكم فيه ، ولا يناقض العقل في
 المشابه منه : ذلك أن القرآن :

﴿ منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم
 زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله
 والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو
 الألباب ﴾ (٨) .

وقد أراد الإسلام من المسلم أن يستمبك بالمحكمات استمساكاً تاماً ، وأن
 يعصم بها اعتصاماً كاملاً :

﴿ ومن يعصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ﴾ (٩) .
 وأن يسلم الأمر لله في المشابه ، اللهم إلا إذا صح الله عليه بوساطة الإلهام

(٨) آل عمران : ٧

(٩) آل عمران : ١٠١

الإلهي عن شيء من أسرار هذا المشابه الذي لا يتناقض العقل ولا يتعارض مع
ميادته .

٣ - وجاء القرآن حاسماً لا يتردد ولا يقر التردد ، ولا يتشكك ولا يقر التشكك
وكان الأمر كذلك لأنه جاء بالحق : الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه
ولا من خلفه ، الحق المعصوم ، لقد جاء بالحق العاقل المعقول ، الحق المتزن
والموزون ، لقد جاء بالحق الذي كل ما عداه باطل . ولقد تركز الحق في مسائل
الدين بين دفتي هذا الكتاب الموحى ، وفيما أخبر به الرسول صلوات الله وسلامه
عليه ، شرحاً له وتفسيراً وإيالة . وعلى من أسلم أن يتبع هذه المبادئ أو هذا
الحق اتباعاً لا تردد فيه ولا انحراف عنه .

٤ - وجاء القرآن لا يستشير الإنسان في شيء ، وتعالى الله عن أن يستشير
المخلوق ، وتعالى الرب عن أن يستشير المربوب ، وتعالى العظيم الحكيم عن أن
يحكم إلى البشر أو يحكمهم فيما أنزله إليهم هداية وتربية .

هذا هو موقف الدين من العقل : وهو موقف يقرنا عليه كل من له شعور
حسني سليم ، وهو موقف ترشدنا إليه الآيات السابقة نفسها . ونأخذ منها -
كمثال عام - قوله تعالى ، لرسوله ﷺ :

﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، إنا أعتدنا
للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه
يشس الشراب وسامت مرتفقاً﴾ (١٠) .

في هذه الآية الكريمة : يأمر الله سبحانه وتعالى ، رسوله ﷺ أن يخبر بأن
مآلئ به : إنما هو الحق ، وإذا كان هو الحق : فإن كل ما عداه باطل ،

(١٠) الكهف آية : ٢٩

وما من ريب في أن كل شخص يعمل فكره ويحيل نظره ويتأمل في هذا الحق :
فإنه لا محالة - إذا أخلص - سينتهي بالاعتراف والإقرار والإيمان .
أما من أضرب عن ذلك صفحاً واتبع الآباء والأسلاف ، مجرد أنهم آباء
وأسلاف فإن مثله : كمثل الهيمة التي تسير وراء أصحابها مجرد أنهم يقودونها ،
وتتبعهم لأنهم يسرون أمامها .

ومن شاء من الناس أن يؤمن بهذا الحق الذي ليس بعده إلا الباطل :
فليؤمن به وليتبع الهدى الهادي ، ومن شاء أن يكفر بالحق ويتبع الباطل معرضاً
عن الحق : فله ذلك ، ولكن ليعلم أن الله سبحانه : أعد لمن لم يتبع الإيمان :
﴿ تارة أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه
بش الشراب وساءت مرتجعاً ﴾ (١١) .

والقرآن دين العقل بهذه المعاني فهو :
هاد للعقل ، ومرشد له ، وقائد .

وهو مبادئ يفهمها العقل في سهولة ويسر .
وهو لا يناقض العقل .

وعلى العقل أن يلجأ إليه في كل ما أتى به .

٥ - على أن القرآن في حقيقة الأمر نزل ليقود الإنسانية نحو الكمال
الروحي ، والإنسان إنسان بالجانب الروحي منه ، وكلما سما الإنسان روحياً :
كان أعلى في معنى الإنسانية .

والمعنى الروحي ، ووسيلة المعنى الروحي : لاسبيل إلى تحديدهما من الإنسان
نفسه ، وإنما تحديدهما موكول إلى الله سبحانه : ذلك أن السمو الروحي قرب

(١١) الكهف : ٢٩

من الله تعالى - وإذا لم يكن قرأاً من الله فليس بسموً روحى - والقرب من الله ، أو بتعبير أدق ، تقرب الله للإنسان ، إنما مرجعه : هدفاً ووسيلة ، هو الله نفسه .

وكل من حاول أن يتخذ طريقاً آخر : فإنما يجرى وراء سراب .
والغاية والوسيلة : حددتها الله في كتابه الكريم ، إنه حددتهما ، بالأسلوب الإلهى نفسه ، أى أن التعبير عنها - التعبير نفسه - إنما كان من الله سبحانه ، ومن فضل الله على المسلمين ، وعلى اللغة العربية أن كانت وسيلة فهم الإسلام : هى التعبير الإلهى بما فيه من دقة كاملة ، وجمال معجز ، وكمال غير منقوص .

ومادام الأمر كذلك فليس للعقل إلا التسليم والتشوع والتخضوع ، أو بتعبير أدق ، السجود .

وهو ليس سجوداً تصفياً أو تحكيمياً ، وإنما هو سجود مصدره الإيمان اليقينى بأن هذا من عند الله ، ومادام من عند الله ، فإنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لأنه تنزيل من حكيم حميد ، ولأنه أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير .

من ذلك تبين أن الدين هاد للعقل ، وأن العقل يجب أن يخضع ويسجد للوحى الإلهى .

ونعود من جديد إلى المسألة التى بدأنا بها الحديث ، نعود من جديد إلى مسألة القرآن والعقل ، سيقولون : ولكن القرآن يطالب دائماً بالتفكير والتدبير :
﴿ قَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴾ (١٢) .

(١٢) المشر: ٢

﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ (١٣) .
 ويعنى على المشركين التقليد واتباعهم آباءهم في اتباعهم آباءهم فيتساءل :
 ﴿ أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يتدون ﴾ (١٤)
 وكثيراً ما نجد الآيات تحتم بـ ﴿ أفلا تعقلون ﴾ ، ﴿ أفلا تتفكرون ﴾ ،
 ﴿ أفلا تبصرون ﴾ . . . وكل ذلك يدل على أن القرآن يدفع الناس إلى استعمال
 العقل .

والواقع أن القرآن لا يستشير الإنسان في أية قضية من القضايا التي جاء بها
 الوحي ، ولا يحتكم الوحي إلى الإنسان باعتباره حكماً ، في أى مبدأ من
 مبادئه ، ولا يطلب منه مشورة في أية قاعدة من القواعد التي شرعها ، بل هذه
 الأوامر لا تدور بخلد المتدين قط .

ذلك أن الوحي : نزل على أنه رسالة السماء النهائية إلى العالم ، ونزل يبلغ
 أن هذه الرسالة : صدق كلها ، حق جميعها ، ليس فيها مبدأ مشكوك فيه ،
 ولا قضية تحمل الصدق والكذب ، وليس فيها جملة زائدة ، ولا كلمة ليست
 في موضعها ، ولا حرف كان يحسن ألا يوجد ، كلا إنها الحق الخالص ، من
 اتبعها فقد اهتدى ، ومن حاد عنها فقد انحرف ، ومن ابتغى الهدى في غيرها
 أضله الله ، ومن تركها من جبار قصمه الله ، لأنها صراط الله المستقيم ونوره
 اللألاء .

وكل ما ذكره من التذكير والنظر والتدبر : إنما أراد به الاعتبار ، وأراد أن
 يقول : تفكروا لتروا أن ذلك هو الحق ، انظروا لتعلموا أن ذلك هو الخير ، أما

(١٣) ق آية : ٣٧

(١٤) البقرة : ١٧٠

إذا رأيتم غير ذلك : فإنما العيب في بصركم أو في بصيرتكم : إذا رأيتم غير ذلك : فإن الفساد في عقولكم وفي تفكيركم ، وإذا رأيتم غير ذلك فاعلموا أن فطرتكم فسدت لانحرافكم وأن قلوبكم ران عليها الإثم ، فضلت ، وأن عقولكم قد صدنت ، فأصبحت لا ترى الحق حقاً ولا الخير خيراً وأصبحت من الضلال بحيث ترى الخير شراً والشر خيراً ، وأصبح أصحابها كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ، كل ذلك لانحرافكم عن الصراط المستقيم .

إن الله - في عظمته وجلاله ، سبحانه - لا يلقى برسائه ليحبها الإنسان ويبدى فيها رأيه نفيًا أو إثباتًا ، سلبًا أو إيجابًا ، كلا ، بل كل من توهم ذلك فإنه لا يقدر الله حق قدره وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وإنما ألقاها سبحانه لتتبع ، ولتتبع في خضوع وسجود ، ولتتبع دون حرج يحيك في الصدر ، أو شك يحول في النفس :

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسلياً ﴾ (١٥) .

وكل من وجد في نفسه حرجاً من قضايا الدين ، وكل من لم يسلم تسلياً كاملاً مطلقاً تاماً ، كل من كان كذلك ، فإنه يحسن به أن يرجع إلى إيمانه ليصححه ، وليتوب إلى الله توبة نصوحاً ، وياب الله مفتوحاً للتائبين ، آتاء الليل وأطراف النهار ، وفي كل لحظة .

كان سلفنا الصالح يتزعون هذه التزعة : تزعة الخضوع المطلق لما جاء به الرسول ﷺ ، لقد كانوا يسجدون للنص ، يسجدون له بجوارحهم وقلوبهم ، وأرواحهم ، وعقولهم . لقد كانوا يخضعون عقولهم للنص ، ويحطلونه القائد ،

(١٥) النساء آية : ٦٥

الحكم المهيمن . . . وكانوا يعرفون أن إدخال شخصيتهم في النص إنما هو انحراف يعظم أو يقل بحسب مدى التدخل البشري في النص ، وكانوا يعرفون أن الوحي إنما جاء هادياً للعقل وقائداً له في الأمور التي لا يتأق للعقل أن يلج ميادينها ، أو يقتحم حياها ، أو يلبس فيها برأى يتفق عليه الناس . وهذه الميادين هي الدين . والدين ليس رأياً بشرياً ، إنه تنزيل من حكيم حميد وكل موقف من الشخصية البشرية تجاه النص سوى موقف السجود له : إنما هو موقف لتبديل الدين من أن يكون إلهياً إلى أن يكون بشرياً ، ولو كان يستقيم الأمر على ذلك لما كان هناك من حاجة إلى الدين .

يروى أبو داود والدارقطني عن سيدنا علي رضي الله عنه قال :
« لو كان الدين بالرأى لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه ، لقد رأيت رسول الله ﷺ ، يمسح على ظاهر خفيه » .
إن الدين ليس رأياً ، وليس بالرأى ، وانظر إلى الحديث التالي : إنه معبر أقوى ما يكون التعبير ، دقيق في مغزاه دقة بالغة :

عن البراء بن عازب ، رضي الله عنه ، قال : قال النبي ﷺ :
« إذا أتيت مضجعك ، فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل : اللهم إني أسلمت نفسي إليك ، ووجهت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك . لا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت ، ونبيك الذي أرسلت ، فإن مت في ليلتك ، فأنت على الفطرة ، واجعلهن آخر ما تتكلم به ، فرددتها على النبي ﷺ ، فلما بلغت . آمنت بكتابك الذي أنزلت ، قلت : ورسولك قال : لا . ونبيك الذي أرسلت » رواه الستة .

وزاد البخارى والترمذى : « فإن مت فى ليلتك مت على الفطرة ، وإن أصبحت أصبت خيراً » .

إن الصحابى الجليل : البراء بن عازب ، رضى الله عنه ، قال : « رسولك » بدل أن يقول : « نبيك » . وكلمة « رسول » تتضمن معنى النبوة ، فهى إذن فيها المعنى وزيادة ، ومحسب منطقتنا ، ومحسب عقلنا تكون صالحة . ولكننا : لا نرى بعقلنا ومنطقتنا إلا الشكل والظاهر . أما بواطن الأمور أما أسرار الكلمات أما حكمة الأوضاع المحددة ، أما اكتناه خفايا التقديرات الإلهية ، إن كل ذلك - إذا لم يكشف الله عنه ، أو عن بعضه - فإننا لا نصل إليه بمنطق البشر . ولقد أخطأ البراء بن عازب رضى الله عنه فى استبدال كلمة رسول بكلمة نبي وأخطأنا معه حيناً قدرنا بعقولنا أن هذا البديل يصح .

﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ (١٦) .

واكتناه سر هذا القدر اكتناها تماماً لا يصل إليه الإنسان ، بل لا تصل إليه الملائكة : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أتبعونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ (١٧) .

إن العلم الصحيح الصادق فى عالم الهداية الإلهية ، والتربية الربانية : إنما هو من الله سبحانه وكل اعتماد عنه ، أو خروج عليه ، أو تغيير فيه إنما هو ضلال .

وما من شك فى أن الإنسان منذ أن وجد على ظهر الأرض : يحاول أن يتزع

(١٦) القمر : ٤٩

(١٧) البقر آية : ٣١ ، ٣٢

نزعة بشرية بحتة ويتصرف في الوحي الإلهي نقصاً وزيادة ، ويتراً وإضافة ،
وتغييراً وتبديلاً ، ويحاول أن يقيم كل ذلك على قواعد يزعمها صحيحة :
فيقول مثلاً : إن الحكمة في تحريم شرب الخمر إنما هي المفاصد التي تنشأ من
الشخص الشارب ، فإذا ما انتفت تلك المفاصد فلا مانع من شرب الخمر .
والتكاليف الدينية : إنما جاءت لإصلاح الضمير ، فإذا كان الضمير صالحاً
فلا لزوم للتكاليف الدينية .

وأعمال العبادة إنما هدفها القرب من الله ، فإذا حصل القرب فلا حاجة
إليها . . .

وهكذا يخرج الإنسان بأهوائه ، ولا نقول بعقله - لأن كل ذلك أهواء
يصورها الشيطان منطقاً معقولاً - عن الدين ، كما خرج إبليس قديماً - بأهوائه
التي تمثلت لذته منطقاً - عن الدين .

والإمام الغزالي . رضى الله عنه : يمثل لذلك بمثال معبر فيذكر قصة رجل
بنى له أبوه قصرًا على رأس جبل ووضع فيه شجرة من خشب طيب الرائحة ،
وأكد الوصية على ولده مرة بعد أخرى ، ألا يجلي هذا القصر عن هذا الخشب
طوال عمره .

وقال : إياك أن تسكن هذا القصر ساعة من ليل أو نهار إلا وهذا الخشب
فيه ، فزرع الولد حول القصر أنواعاً من الرياحين ، وطلب من البر والبحر أوتاداً
من العود والعنبر والمسك ، وجمع في قصره جميع ذلك من شجرات كثيرة من
الرياحين الطيبة الرائحة .

فانعمرت رائحة الخشب لما فاحت هذه الروائح .

فقال : لاشك أن والدي ما أوصاني بحفظ هذا الخشب إلا لطيب رائحته

والآن قد استغنينا بهذه الرياحين عن رائحته فلا فائدة فيه الآن إلا أن يضيق على المكان ، فرماه من القصر .

فلما خلا القصر من الحشيش ، ظهر من بعض ثقوب القصر حية هائلة ، وضربته ضربة أشرف بها على الهلاك ، فتنبه حيث لم يتفقه التنبه : أن الحشيش كان من خاصيته دفع هذه الحية المهلكة ، وكان لأبيه بالوصية بالحشيش غرضان :

أحدهما : انتفاع الولد برائحته ، وذلك قد أدركه الولد بعقله .

والثاني : اندفاع الحيات المهلكات برائحته ، وذلك مما قصر عن دركه بصيرة الولد فاغتر الولد بما عنده من العلم وظن أنه لا سر وراء معلومه ومعقوله كما قال : ﴿ ذلك مبلغهم من العلم ﴾ .

وقال سبحانه : ﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم ﴾ .

والمرور من اغتر بعقله فظن أن ما هو متف عن علمه فهو متف في نفسه .

وما من شك في أن آراء الملل وكل ما فيها من الأوضاح ليس سبيلها أن يمتحن بالآراء والروية والعقول الإنسية^(١٨) ، لأنها أرفع رتبة منها ، إذ كانت مأخوذة من وحى إلهي ، لأن فيها أسراراً إلهية تضعف عن إدراكها العقول الإنسية ولا تبلغها .

وأيضاً : فإن الإنسان إنما سبيله : أن تفيد الملل بالوحى ما شأنه ألا يدركه بعقله وما يخور عقله عنه وإلا فلا معنى للوحى ولا فائدة إذا كان إنما يفيد الإنسان

(١٨) انظر كتاب : إحصاء العلوم للقرافي .

ما كان يعلمه ، وما يمكن إذا تأمله ، أن يدركه بعقله . ولو كان كذلك لوكل الناس إلى عقولهم ، ولما كانت بهم حاجة إلى نبوة ولا إلى وحى لكن لم يفعل بهم ذلك ، فلذلك ينبغي أن يكون ما تفيدُه الملل من العلوم : ما ليس في طاقة عقولنا إدراكه ثم ليس هذا فقط ، بل ما تستنكره عقول بعض منا فإن ما تستنكره بعض العقول وتستبشعه بعض الأوهام قد لا يكون في واقع الأمر منكراً ولا بشعاً .

فإن الإنسان وإن بلغ نهاية الكمال في الإنسانية فإن مرتكته عند ذوى العقول الإلهية : العقول التي استنارت بالوحى وسمت بالمبادئ الإلهية : منزلة الصبي والحدث والعمر عند الإنسان الكامل .

وكما أن كثيراً من الصبيان والأغيار : يستنكرون بعقولهم أشياء كثيرة مما ليست في الحقيقة منكراً ولا غير ممكنة ، ويقع لهؤلاء : أنها غير ممكنة ، فكذلك منزلة من هو في نهاية كمال العقل الإنسى عند العقول الإلهية التي أفاض الله عليها من نوره وغمرها بإلهاماته ، وكما أن الإنسان من قبل أن يتأدب ويتحلى : يستنكر أشياء كثيرة ويستبشعها ، ويخيل إليه فيها أنها محالة . فإذا تأدب بالعلوم واحتك بالتجارب : زالت عنه تلك الظنون فيها ، وانقلبت الأشياء التي كانت عنده محالة : فصارت هي الواجبة وصار عنده ما كان يتعجب منه قديماً : في حد ما يتعجب من ضده .

كذلك الإنسان الكامل الإنسانية ، لا يمتنع من أن يكون يستنكر أشياء ويخيل إليه أنها غير ممكنة ، من غير أن تكون في الحقيقة كذلك^(١٩) ويشرح الشيخ الجليل أبو سليمان المنطوق كل ذلك ، في دقة دقيقة ، وفي

(١٩) انظر كتاب إحصاء العلوم للقرائى .

أسلوب جميل فيقول : « إن الشريعة مأخوذة عن الله ، عز وجل ، بوساطة
السفيرين وبين الخلق من طريق الوحي ، وباب المناجاة ، وشهادة الآيات ،
وظهور المعجزات ، وفي أثناءها ما لا سييل إلى البحث عنه ، والخصوص فيه ،
ولا بد من التسليم المدعو إليه ، والمنبه عليه . وهناك يسقط « لم ؟ » و« يبطل :
« كيف ؟ » و« يزول : « هلا ؟ » وتذهب : « لو ، وليت » في الريح !

ولو كان العقل يكتفى به ، لم يكن للوحي فائدة ولاغناء .
على أن منازل الناس متفاوتة في العقل ، وأنصباهم مختلفة فيه ، فلو كنا
نستغنى عن الوحي بالعقل ، كيف كنا نصنع وليس العقل بأسره لواحد منا ؟
فإنما هو لجميع الناس . . . ولو استقل إنسان واحد بعقله في جميع حالاته ، في
دينه ودنياه ، لاستقل أيضاً بقوته في جميع حاجاته ، في دينه ودنياه ، ولكان
وحده يفي بجميع الصناعات والمعارف ، وكان لا يحتاج إلى أحد من نوعه
وجنسه . وهذا قول مردود ، ورأى مخذول . . . (٢٠)

يقول الشيخ الجليل أبو سليمان المنطقي :

« إن منازل الناس متفاوتة في العقل ، وأنصباهم مختلفة فيه ، ومعنى
ذلك أن هذا الذي يروق لشخص عقلياً ربما لا يروق لغيره عقلياً ، ويجب من
أجل ذلك ألا يتدخل العقل في الدين ، وإلا لاختلف الناس باختلاف عقولهم
وادعى كل أن ما هو عليه : إنما هو الحق ، وما عليه غيره هو الباطل ، وتنتج
عن ذلك اتباع كل أهواءه .

(٢٠) انظر كتاب : اخبار العلماء بأخبار الحكماء للمنطقي .

﴿ أفرايت من اتخذ إلهه هواه ﴾ (٢١) . فتضرق الأمة ، وتخرج على ماأنجبه الله وأمر به .

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ (٢٢) .

وإذا تساءلت الآن : ما هو إذن موقف العقل من الدين ، وموقف الدين من العقل ؟ فإننا نجمل للموضوع في النقاط الآتية :
نزل الدين هادياً للعقل في جنح الأمور التي لو ترك العقل وشأنه فيها ضل السبيل ، وعجز عن الوصول إلى الحقيقة ، وهذه الأمور هي :

(أ) العقائد

(ب) المبادئ الأخلاقية إجمالاً وتفصيلاً .

(ج) التشريع في قواعده العامة ، وفي بعض تفصيلاته ، وقواعده العامة التي تتضمن الجزئيات على مر الزمن ، وعلى اختلاف البيئات .
أما الطبيعة والكون : من سمائه وأرضه ، ومن جباله وبحاره ، ومن كواكبه وأقماره وشموسه ، أما المادة والطاقة ، أما أعماق البحار وآفاق السماء . . إن كل ذلك قد تركه للإنسان يدرسه في مصنعه ومعمله بآلاته وأدواته . وحده على أن يحول في ذلك ما استطاع إليه سبيلاً . حتى يكشف سنن الله الكونية ، ونواميسه الطبيعية ويرى صنع الله الذي أتقن كل شيء ولم يحجر الدين على الإنسان في هذا المجال . اللهم إلا الواجب الذي ينبغي أن يكون شعاره دائماً : وهو أن يكون هدفه من كل ذلك الخير .

والإسلام دين العقل بكل هذه المعاني التي ذكرناها .

(٢١) البقرة : ١٧٣

(٢٢) آل عمران : ١٠٣

افضل الشان

موقف المسلم من الدين السجود

١

يروى الإمام مسلم ، رضى الله عنه ، في صحيحه : عن أبي فراس ربيعة
ابن كعب الأسلمي - خادم رسول الله ﷺ ، ومن أهل الصفة - رضى الله
عنه - قال :

« كنت أبيت مع رسول الله ، ﷺ ، فأتته بوضوءه وحاجته ، فقال :
سلى .

قلت : أسألك. مراقبتك في الجنة .

قال : أو غير ذلك ؟

قلت : هو ذاك .

قال : « أعنى على نفسك بكثرة السجود . »

والسجود إذن : مما يعين على ترويض النفس ، لتزكى ، وهو بذلك من

الوسائل التي توصل إلى الجنة .

وفي هذا المعنى ، يروى الإمام مسلم أيضاً : عن أبي عبد الرحمن : ثوبان

مولى رسول الله ، ﷺ ، قال :

سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « عليك بكثرة السجود ، فإنك لن تسجد لله سجدة ، إلا رفعك الله بها درجة ، وحط عنك بها خطيئة » .
والسجود الذي يريد رسول الله - صلوات الله عليه - في هذه الأحاديث ليس هو مجرد الحركة المعروفة ، وإنما هو - مع هذه الحركة - : المعنى العميق في النفس الذي يتمثل فيه جلال الله وعظمته ، ورحمته وودده ، ويتمثل فيه الخضوع ، لهذا الجلال ، وهذه العظمة والالتقياد المطلق لرحمة الله التي تتمثل في الرسالة الإسلامية : أوامرها ونواهيها .

ذلك أن الرسالة الإسلامية ، في تكاليفها سلباً وإيجاباً ، إنما هي رحمة للعالمين يقول الله - تعالى - لرسوله - صلوات الله عليه :
﴿ وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين ^(١) ﴾ .

فإذا ما كان السجود تعبيراً عن التطامن والتذلل - وذلك معناه الصحيح - كان ذلك عبادة ، وخضوعاً لله - سبحانه وتعالى - وكان بذلك سيلاً إلى الجنة ، وإلى أكثر من الجنة ، وهو القرب من الله ، يقول الله تعالى في كتابه العزيز ﴿ واسجد واقترب ﴾ .

ويقول ، صلوات الله عليه ، في هذا المعنى :
« أقرب ما يكون العبد من ربه ، وهو ساجد » .
ولقيمة السجود الكبيرة . . عبر عن الصلاة أحياناً بالسجود ، فصلاة الضحى ، يسمونها « سجود الضحى » .

ومن أجل هذه القيمة أيضاً ، مدح الله من يعبرون عن خضوعهم لآياته واستجابتهم لأمره ، بقوله تعالى :

(١) الأنبياء : ١٠٧

﴿ إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون ﴾^(٢) .

والذين هداهم الله ، واجتباهم :

﴿ إذا تلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكياً ﴾^(٣) .

ومن صفات عباد الرحمن ، التي يذكهم بها أنهم :

﴿ يبيتون لربهم سجدا وقياما ﴾ .

٢

على أن حادثة من الحوادث قصها القرآن في غير ما موضع منه ، تبين لنا كثيراً مما نتحدث به من المعاني الخاصة بالسجود ، تلك هي حادثة آدم والملائكة :

﴿ وإذ قال ربك للملائكة : إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون

فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ .

بهذا النبأ ، حدث الله الملائكة عن عالم جديد من عوالمه سيرؤه سبحانه ،

وأمر الملائكة ، أن يسجدوا له .

﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ﴾ .

لم يشد منهم أحد .

وكان من بينهم - مختلطاً بهم - إبليس ، وهو كائن يختلف عن الملائكة ،

وعن الإنسان ، إنه من فصيلة الجن .

(٢) السجدة : ١٥

(٣) مريم : ٥٨

كان يعبد مع الملائكة ، ويسبح معهم ، حتى لقد كان يلقب (بطاووس العباد) لكثرة عبادته وتغانيه في العبادة ، ولكنه لما سمع الأمر الإلهي بالسجود ، لم يسجد : لقد أبي ، والإياء ضد السجود ، واستكبر ، والاستكبار ينافي الخضوع . ويتحدث القرآن عن ذلك في صراحة فيقول :

﴿ إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ﴾ .

ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ﴾ .

هذه قصة معروفة ، نمر عليها فلا نكاد نعيها التفاتاً ، بيد أنها جديرة بالتأمل والاعتبار ، والقضايا التي نريد أن نذكرها عظة واعتباراً ؛ وهي في نفس الوقت ذات دلالة عميقة هي مايلي :

١ - لقد صدر أمر إلهي بالسجود ، فاستجاب له طائفة ، فنعموا برضوان

الله ، وشذ فرد ، فطرد من رحمته سبحانه .

٢ - إنه طرد لأنه لم يستجب للأمر الإلهي مع علمه بأنه أمر إلهي .

٣ - كان عدم استجابته ناشئاً عن كبرياء في نفسه ، وعن تمرد في فطرته .

٤ - لم تلغ عبادته كبريائه ، فهي إذن لم تكن خضوعاً ، لأنها لو كانت

خضوعاً ، لثغت الكبرياء وأزالته ، إنها إذن لم تكن عبادة بالمعنى الصحيح ،

لأن العبادة والكبرياء : لا يجتمعان .

٥ - هذا الكبرياء ، كما تمثل في مخالفة الأمر الإلهي ، تمثل في المحاولة التي

أراد هذا المتمرد أن يبرر بها موقفه ، مستنجداً بمنطقه وعقله قائلاً :

﴿ أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ .

ولم يكن هذا إلا منطق الهوى ، ومنطق الكبرياء ، فسجوده لآدم ، ليس

عبادة له وإنما عبادة لله ، لأنه خضوع لأمر الله ، وحسب .

٦ - والموقف السليم ، إذن ، هو ما يرشد إليه روح القصة ، بل تعبيرها :
من أنه عند الأمر الإلهي : يجب أن تكون الاستجابة فورية ، وربما كان هذا هو
ما ترشدنا إليه في صراحة كلمة : « إذ » في قوله تعالى ﴿ ما منعك ألا تسجد إذ
أمرتك ﴾ .

وهذه الفورية طبعاً هي في كل أمر بما يناسب وضعه الزماني والمكاني .
٧ - والقضية التي نختتم بها هذه القضايا ، أو هذه المفاهيم المستتجة من
القصة هي : أن الله إذا كان قد أمر الملائكة والجن بالسجود للإنسان الأول
فليس معنى ذلك إلا التصريح الصريح ، بأن طبيعة هذا الإنسان فيها
الاستعداد الكافي للرقى في مدارج السمو الروحي ، درجة فدرجة ، حتى تسمو
على الملائكة وعلى الجن ، ولا معنى إذن بعد هذا الأمر الإلهي للملائكة والجن
بالسجود للإنسان ، لأن يختلف علماء الإسلام في المفاضلة بين الإنسان والملك .

ذلك أن الفيوضات الإلهية على الإنسان لا تنتهي إلى حد :

« ما وسعني أرضي ولا سمائي ، ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن » .

باب الفيوضات الإلهية إذن : مفتوح على مصراعيه ، والقرب منه ميسور .
وإذا ما سجد الإنسان لله ، رفعه الله إليه ، وقربه منه ، وغمره برضوانه . أما
المبدأ الهام ، الذي نريد أن يجعله كل مؤمن نصب عينيه ، فهو أن الإيمان ليس
معرفة وحسب : ذلك أن إبليس كان يعرف أن الله موجود ، وقد عرف فيما بعد
أنه أرسل نوحاً وإبراهيم . . . ومحمداً عليه الصلاة والسلام . إنه يعرف أن لا إله
إلا الله ، ويعرف أن محمداً رسول الله . ويعرف أن عيسى وموسى وبقية الأنبياء

رسل الله ومعرفته بهذه المسائل هي من القوة والثبات بحيث تزيد على معرفة كثير من المؤمنين .

ولكنه مع ذلك مطرود من رحمة الله : ذلك أن الإيمان ليس معرفة فحسب ، وإنما هو خشوع واستجابة : إنه سجد ، فإذا لم يتأت السجود فلا إيمان . يشهد لذلك قوله تعالى :

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ .

لقد كان سعيد بن جبير رضى الله عنه يقول : « ما آسى على شيء من الدنيا إلا على السجود » .

أما علي بن عبد الله بن عباس ، فقد كانوا يسمونه « السجاد » لكثرة سجوده . وقد كان يكثر من السجود - كما هو المتبادر إلى الذهن - ليكون على النقيض من إبليس .

وتتم هذه المعاني بقول الله تعالى ، يصف الذين مع رسول الله ﷺ - معه في حال حياته ، وعلى مبادئه الإلهية بعد وفاته :

﴿ سيأمن في وجوههم من أثر السجود ﴾ .

إنه النور الذي يشرق على جباههم ، لسجودهم لله ، وهو النور التي ستكون في وجوههم يوم القيامة من أثر خشوعهم لله .

٣

ويتناقى السجود لله مع محاولة تحكيم العقل في أوامره ، سبحانه وتعالى أو نواهيه ، وكل محاولة من هذا القبيل ، إنما هي : كبرياء ، وهي : إبليسية .

وإذا كان لا إيليس خلقاء من بنى آدم ، فهم هؤلاء الذين يحاولون أن يقوموا بدور إيليس في المجتمع الإنساني : إنهم هؤلاء الذين يرفضون الوحي الإلهي جملة ، أو يحاولون أن يزفوا الوحي بميزان العقل ، فيرفضون ويقبلون ويؤولون ما شاء لهم الهوى ، ويوقعون ، ويوجدون بعقولهم المآزق التي يزعمونها مشكلات نظرية عقلية - ثم يحاولون الفرار منها .

وخلقاء إيليس هم أولاً وبالذات : الملاحدة :

إنهم على نسق التعبير الجارى : إيليسيون أكثر من إيليس نفسه : ذلك أن إيليس لم ينكر وجود الله ، ولم ينكر بعثاً ولا رسالة ، ولكن هؤلاء أنكروا كل ذلك . ففاقوا زعيمهم ، ولكنهم بثقوتهم على زعيمهم قد أرضوا غروره ، ذلك أنه خاطب الله قائلاً :

« لأقعدن لهم (لبنى آدم) صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ، ومن خلفهم ، وعن أيمنهم ، وعن شمائلهم ، ولا تحمد أكثرهم شاكرين » .
ولقد وصل إيليس إلى مراده تماماً في طائفة الملاحدة .

والإلحاد درجات : وأخص درجات الملحدين لا شك ، إنما هي درجة هؤلاء الذين اعتقدوا - على حد تعبير الغزالي - : « أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه ، وبلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان ، كذلك كان وكذلك يكون أبداً » .
وإذا ما سألت هؤلاء :

« أنطقوا من غير شيء ، أم هم الخالقون ؟ » .

كانت حيرتهم في الإجابة كافية في البرهنة على أنهم لا يتبعون إلا أهواءهم ، وأنهم ليسوا إذن إلا عبيداً لإيليس .

وهناك الإلحاد بإنكار البعث .

والإلحاد بإنكار الرسالة .

يبد أن هؤلاء وأولئك وتلكم : يصدق عليهم :

﴿ أفرايت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه

وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكرون ؟ ﴾ .

والطريق الذي ينقذ به هؤلاء أنفسهم وقلوبهم إنما هو : المبادرة بالسجود

لله ، لا للهوى المردى ، فيتكشف الله لهم في كل شيء ، وتظهر لهم آياته في

الآفاق وفي أنفسهم : ﴿ حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ .

وإن من أحدث اختراعات إبليس في هذا الزمن الحاضر إنما هو المذهب

المسمى ، بالوجودية : وهو مذهب يدعو كل إنسان لأن يحقق وجوده حسبما

يرى وتبعاً لما يريد ، غير متقيد بعرف ، ولا عادات ، ولا تقاليد ، ولا دين ،

ولا أوضاع أيما كانت ، وهو إذن يهدم نفسه بنفسه ، لأنه لا يقوم على أسس

ثابتة ، ولا ينتهي إلى مبادئ حقيقية ، وأحسن تشبيه للوجودى هو ما قاله أحد

كبار الكتاب الغربيين .

« إن الوجودى مثله : كمثل الكلب الذى يجرى دائراً حول نفسه يمسك

بلذنه ، فلا هو يدرك ذنبه ولا هو يقف عن الجرى ، وهى لعبة يلعبها الكلاب ،

حينما يمدون الفراغ فيلهون بما لا نتيجة له . »

على أن هذا المذهب الوجودى قديم : إذ أنه المذهب السوفسطائى

اليونانى ، وهو مذهب يظهر دائماً في عصور الانحلال ، وفي البيئات المنحلة ،

ولا وجود له في عصور الجدد ، ولا في البيئات الجادة : ذلك أن المجتمعات

الناهضة الجادة ، لا تبيح لأفرادها أن يتشبهوا بالكلاب - حينما تلهو الكلاب -

في الجرى وراء أذناها ليمسكوا بها .

فالوجودية : إذن اختراع إبليس ، لإخراج طائفة من البشر عن نطاق السجود لله ، إلى نطاق السجود للأهواء .

خلفاء إبليس ثانياً هم : طائفة الفلاسفة العقلين الإلهيين .

ذلك أن الفلسفة العقلية - مها حاول المتفلسفون تريف أهدافها وتربين غاياتها - : ليست إلا محاولة تحكيم العقل فيما أتى به الوحي .

وهي من غير ما ريب تريد أن تخترع عقلياً ، ما فرغ منه الوحي في قضاياها ومبادئه ، إنها تريد ابتداع دين عقلي بجوار الدين الإلهي ، وهذا الدين العقلي يختلف من فيلسوف إلى آخر ، وهو من أجل ذلك : يختلف في هذه القضية أو تلك مع الدين الإلهي .

فإذا كانت البيئة متشعبة بالدين الإلهي ، يغمز قلبها الإيمان . وتغمر وجدانها الهداية . حاول المتفلسفون - في طريقة إبيلية - أن يوفقوا بين الدين والفلسفة .

ومعنى هذا : أنهم يجعلون موقف اختراعاتهم العقلية بالنسبة للدين ، موقف الند للند ، فيحاولون التوفيق ، فيخطئهم التوفيق ، فيما يأتون وما يدعون ، ذلك أنهم - قلوبهم وأفئدتهم - هواء .

وإذا كان الاتفاق بينهم لم يتم ، فإن التوفيق بين أهوائهم ، وظنونهم ، وشكوكهم وأوهامهم ، وبين الوحي والعصمة ، واليقين والهداية ، إنما هو عمل لا يسير في ركابه إلا أتباع إبليس .

والفلاسفة إذن ، لم يسجدوا لله .

أما الطائفة الثالثة التي لم تسجد لله ، إلا شكلاً فإنها ، طائفة المعتزلة من

علماء الكلام ، إنهم لم يسجدوا لله سجود خضوع وإذعان ، ومذهبيهم قائم على تحكيم العقل في الدين ، ووصل بهم الأمر إلى أنهم يوجبون على الله بعض الأعمال ، سبحانه وتعالى ، ومحرمون عليه إتيان بعضها سبحانه وتعالى ، فوضعوا أنفسهم بعملهم هذا موضع المشرعين لله . سبحانه ، يلزمون سلباً ويلزمون إيجاباً ، وذين لهم الشيطان أفعالهم ، وصدق فيهم قول الله تعالى :

﴿ أفمن زين له سوء عمله ، فرآه حسناً ؟ إن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، إن الله عليهم بما يصنعون ﴾ . ثم إنهم خاضوا فيما نصح الدين بعدم الخوض فيه : كالذات الإلهية ، والصفات ، والقادر . وكان لا بد - وقد اتبعوا أهواءهم - أن يختلفوا ويتفرقوا وتذهب بهم الأهواء كل مذهب ، فكانوا فرقةً وأحزاباً شتى ، لا تكاد تخلل تحت حصر .

وكل من نهج النهج العقل في الدين ، في العصر الحاضر ، إنما هو تابع من أتباع المعتزلة ، ولا مناص من الإقرار بأن مدرسة الشيخ محمد عبده ، إنما هي مدرسة اعتزالية في مبادئها وأصولها ، وهي مدرسة اعتزالية في غاياتها وأهدافها ، ذلك أنها تضع قضايا الدين . . . في ميزان عقلها ، فتنتق وتثبت ، حسب مقتضيه الأهواء والترعات .

والمدرسة العقلية في الدين ، أياً كانت وفي أي مكان وجدت ، وفي أي زمان نشأت ، لم تسجد لله سجود خضوع وإذعان ، وإنما سجدت للعقل ، وعبدت العقل فتفرقت إلى ما لا يكاد يحصى من الفرق ﴿ ومن يتبع غير سبيل المؤمنين / توله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً ﴾ .

وسبيل المؤمنين ، إنما هو السجود لله وحده ، وذلك أيضاً سبيل الراسخين

في العلم ، إذ الراسخون في العلم ، هم دائماً مؤمنون ساجدون لأمر الله ، وإليهم تشير الآية الكريمة .

﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً ، يحذر الآخرة ، ويرجو رحمة ربه ؟ قل : هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ .

ومن البديهي أن المؤمن الحقيقي هو إبليس على طرفي نقيض ، ويرسم الله سبحانه وتعالى ، صورة المؤمن فيبين تعارضها مع كل الصور الإيليسية على تفرقها واختلافها ، وبين جزاء المؤمنين عنده فيقول سبحانه :

﴿ إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون ، تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعا ولما رزقناهم ينفقون ، فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ، جزاء بما كانوا يعملون ﴾ .

الفصل الثالث

الإمام الشافعي والفكر اليوناني

١

روى عن الإمام الشافعي ، رضى الله عنه ، أنه قال :
« ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب ، وميلهم إلى لسان
أرسطاطاليس » .

هذا النص من الإمام الشافعي ، رضى الله عنه ، يبين لنا أن هذا الإمام
الجليل ، يفرق - ككل ذوى البصائر المشرقة - بين مصدرين من مصادر
المعرفة ، لكل منها طريقته وسنته ، ولكل منها أسلوبه وجوه ، أو بكلمة
واحدة : (لسانه)

أما أحدهما : فهو المصدر الإلهي ، إنه : الوحي .
وأما الثاني : فهو المصدر البشري ، عقلياً كان أو حسياً .
وللمصدر الإلهي ميدانه : إنه عالم الغيب ، وعالم الأخلاق .
وللمصدر البشري ميدانه : إنه عالم الطبيعة ، إنه العالم المادى المحس .
وحيثما تسير أمور الإنسانية على ما ينبغي أن تكون عليه ، فإنها تسلم نفسها لله
في كل ما يتعلق بالدين ، عقيدة كان أو شريعة أو أخلاقاً .
وتكدهج - التزاماً لأمر الله - في عالم الطبيعة حتى تنتهى إلى تسخيره -

بعقلها وتجاربها - في سبيل إسعاد الإنسانية ، هادفة من وراء ذلك إلى إرضاء الله والدخول في رضوانه :

وانحرف اليونان عن ذلك كله ، فاتجهوا - في الأغلب الأعم - إلى اللسان البشري ، وكان أرسطو هو اللوحة المتقنة الرسم ، تعبيراً عن هذا الاتجاه . لقد أراد أرسطو أن يخضع الطبيعة ، وأن يخضع ما وراء الطبيعة للسان البشري ، فأبدع كل الإبداع تنسيقاً وانسجماً ، وأخفق كل الإخفاق صدقاً واتجاهاً ، فكان مثله : كمثل اللوحة الزائفة البراقة ، والسراب الخادع . فقاد الإنسانية إلى انحراف هائل ، وإلى اضطراب في الفكر ، وفي العقيدة لا حد له |

ولقد كان سحره من القوة والنفوذ ، بحيث استمر تياره يضطرب في جوانب الإنسانية إلى الآن . وما من شك في أن أرسطو كان قوة خارقة ، وعبقريته هائلة : ذكاء ، وبحثاً ، ومعرفة ، ولو لم يكن كذلك لما كان له هذا التأثير العميق إلى الآن ، ونحن ، حينما نتحدث عنه ، لا ننكر ، ما فيه من امتياز فطري صقله الكسب والتحصيل ، لكنه استعمل كل ماله من عبقرية في التزول بالإنسانية إلى الحيرة ، والنقص ، والشك ؟

ومنذ أن وجد الإنسان ، وجد معه روح من أمر الله ، وهو : الوحي ، يرشده ويهديه ، ويبين له المبادئ ويوضح القواعد ، في المسائل التي لا يصل تفكيره البشري إلى حل فيها ، وهي : مسائل ما وراء الطبيعة ومسائل السلوك الصحيح ، تشريعاً كان ذلك أو أخلاقاً .

ولا ريب أن الإنسان منذ أن وجد : فكر في الوحي ، يريد أن يعرف العلل والحكمة ، ويريد أن يصل إلى السر ويكتنه الغايات ، وكان يتمرد أحياناً ، كما

فعل ابن آدم الذي قتل أخاه شهوة وحسداً .

ولكن المجتمعات القديمة ، على وجه العموم كانت تخضع لأمر الله ، وتسلم نفسها إليه فيما لم تحط به علماء من عالم الغيب ، وفيما تتفاوت في إدراكه من عالم التشريع والأخلاق . أما في عالم الطبيعة ، فقد كانت المجتمعات أعلم بشئون دنياها .

ولما جاء العهد اليوناني لم يكن هناك « روح من أمر الله » فأخذ الإنسان يقيم من نفسه رسولاً ، وإن لم تكن له بالسما صلة ، وأخذ يقيم من نفسه مشرعاً ، وإن لم تأذن له السماء بذلك ، وأخذ بمذهب الأخلاق ، وهو أعجز من أن يصل فيها إلى الفيصل الحق .

وكانت نتائج هذه التزعة تبين شيئاً فشيئاً ، ذلك أن كل فيلسوف ، كان يختلف عن سابقه ، وكل مفكر يتعد ، فيما وصل إليه عن الآخرين .

ولقد اختلف « انكسيمندر » عن « طاليس » ، واختلف « هرقليط » عنها . . . وهكذا إلى أن وصل الأمر إلى أرسطو الذي أراد أن يعصم الذهن عن الانحراف والضلال ، فاخترع المنطق . وهو - على حد تعريفه - « آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر » . بيد أنه بعد أن اخترع المنطق ، وبعد أن استعمله في عصمته هو ، لاحظ عليه معاصروه ، والذين أتوا بعده ، أخطاء لا حصر لها .

وسواء أكان هؤلاء الذين أعلنوا عن أخطائه ، وأبانوا عن تهاوته ، محققين أم غير محققين ، فإن تلاميذ أرسطو وأبناء مدرسته ومناصريه رأوا أن الاعتراضات على أرسطو في مذهبه الخاص بما وراء الطبيعة . هي من الكثرة والقوة بحيث لا يمكنهم الرد عليها .

إنهم مع ما لهم من باع واسع في عالم الفلسفة ، ومع أنهم يعدون من قادة الفكر كانوا أعجز من أن يمكنهم الدفاع عن المعلم الأول .

وعجزت آلة عصمة الذهن عن عصمة ذهن مخترعها ، وعن عصمة ذهن أتباعه .

ولكن المعارضين على أرسطو لم يقر أحد من كبار الفلاسفة لهم بالصواب المطلق ، وإنما كانت آراؤهم هي الأخرى ، مثار جدل واعتراض وتجريح ونقض .

وسارت الأمور على هذا النسق بعد أرسطو ، كلما جاءت أمة لعنت أختها ، وكلما نشأت مدرسة حملت على سابقتها ، بل حملت على كل من سبقها . وكشف الزمن ، في تنابعه ، عن الصورة الحقيقية للإنسانية فيما يتعلق بمقدرتها على الكشف عن عالم الغيب .

لقد كشف الزمن عن أن عالم الغيب إنما هو ، حجر محجور ، بالنسبة للعقل البشرى ، قلن يتأتى ، بوضعه البشرى ، أن يعطأ حياه ولا أن يلج بابه . وتقدس عالم الغيب عن أن يمسه بمفتاحه أو يكشف عن مسائره إلا من أذن له الله من نبي مكرم أو من رسول مأذون .

ولكن الإنسان هو الإنسان : يظن كل فرد من أفراده أنه سيأتي بما لم تستطعه الأوائل . ويعتقد كل نابه من أبنائه أنه أنبه من الآخرين ، وإذا كان الآخرون - كل الآخرين - قد أخفقوا . فإن ذلك لا يعنى أنه هو الآخر سيخفق مثلهم وكبرياء الإنسان لا حد له ، وخياله لا تقف في سبيله العقبات . ولذلك استمر تيار الانحراف الذى قاد الإنسانية فيه أرسطو ، سائراً يتخطى

القرون قرناً بعد قرن ، حتى وصل إلى الجو الإسلامي في عهد العباسيين الأول ، بل قبل ذلك .

وأخذ المسلمون يختلفون بعد اتفاقهم ، ويتفرقون بعد تجمعهم .
ولاحظ الإمام الشافعي كل ذلك ، وأدرك بفكره السر فقال كلمته
الحكيمة العميقة : « ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم
إلى لسان أرسطو » ولكن كلمته تحتاج إلى بيان أكثر .

٢

« ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان
أرسطو » (الشافعي) .

ولسان أرسطو الذي يعنيه الشافعي ، رضوان الله عليه ، إنما هو :
الفكر اليوناني : في « المنطق » ، وفي « ما وراء الطبيعة » ، وفي
« الأخلاق » .

ولقد بدأ الإسلام بعيداً عن هذا اللسان البشري ، لأنه وحى إلهي ، واستمر
المسلمون عشرات السنين لا يعرفون إلا الوحي المنزل ، ولا يصعدون إلا عنه .
أما ابتداء دخول الفكر اليوناني في الجو الإسلامي :
فإن الكتب الإسلامية القديمة تروى في ذلك أنجباراً هي أشبه بالأساطير ،
في سداجتها . وتورخ لنشأة تسرب الفكر اليوناني إلى الجو الإسلامي ، وتعلل
لذلك .

وهي ، على سداجتها ، وعلى ما تلبسه من صورة قد تثير الابتسام ، فإنها
عميقة المغزى ، قوية الدلالة :

يروون مثلاً : أن سبب خروج كتب اليونان من أرض الروم إلى بلاد الإسلام إنما هو : يحيى بن خالد بن برمك .

وذلك أن كتب اليونانية كانت ببلد الروم ، وكان ملك الروم يخاف على الروم إن نظروا في كتب اليونانية أن يتركوا دين النصرانية ويرجعوا إلى دين اليونانية ، وتشتت كلمتهم وتفرق جماعتهم ، فجمع الكتب في موضع وبني عليها بناء مطمساً بالحجر والجص حتى لا يوصل إليها .

فلما أفضت رئاسة دولة بني العباس إلى يحيى بن خالد ، وكان زنديقاً بلغه خبر الكتب التي في البناء ببلد الروم ، فصانع ملك الروم الذي كان في وقته ، بالهدايا ، ولا يلتمس منه حاجة .

فلما أكثر عليه جمع الملك بطارقه ، وقال لهم : إن هذا الرجل خادم العربي ، قد أكثر على من هداياه ، ولا يطلب مني حاجة ، وما أراه إلا يلتمس حاجة ، وأخاف أن تكون حاجته تشق على ، وقد شغل بالي ٢٢

فلما جاءه رسول يحيى قال له :

قل لصاحبك : إن كانت له حاجة فليذكرها .

فلما أخبر الرسول يحيى ، رده إليه وقال له :

حاجتي : الكتب التي تحت البناء ، يرسلها إلى ، أخرج منها بعض ما أحتاج وأردما إليه .

فلما قرأ الرومي كتابه استطار فرحاً ، وجمع البطارقة والأساقفة والرهبان ،

وقال لهم :

قد كنت ذكرت لكم عن خادم العربي : أنه لا يخلو من حاجة ، وقد

أفصح بحاجته ، وهي أخف الحوائج على وقد رأيت رأياً فاسمونه ، فإن

رضيتموه أمضيته ، وإن رأيتم خلافة تشاورنا في ذلك حتى تتفق كلمتنا ،
فقالوا .

وما هي ؟ قال : حاجه الكتب اليونانية ، يستخرج منها ما أحب ويردها ،
قالوا لما رأيك ؟ قال :

قد علمت أنه ما بنى عليها من كان قبلنا إلا لأنه خاف إن وقعت في أيدي
النصارى ، وقرهوها كان سبباً لهلاك دينهم ، وتبديد جماعتهم . وأنا أرى أن
أبعث بها إليه ، وأسأله ألا يردها ، يبتلون بها ونسلم نحن من شرها ، فإني لا آمن
أن يكون بعدى من يجترئ على إخراجها إلى الناس . فيقموا فيما خيف عليهم .
فقالوا : نعم الرأي رأيت أيها الملك ، فأمضه فبعث بالكتب إلى يحيى بن خالد .
فلما وصلت إليه جمع عليها كل زنديق وفيلسوف ، فلما أخرج منها كتاب :
« حد المنطق » .

قال أبو محمد بن أبي زيد : « وقل من أنعم النظر في هذا الكتاب وسلم من
زندقة (١) » .

وتروى هذه القصة - على اختلاف في الأسماء والزمن مع اتحاد الجوهر -
على أنحاء شتى ، منها : رواية الصلاح الصفدى في شرح لامية العجم :
حكى : أن المأمون ، لما هادن بعض ملوك النصارى - أظنه صاحب جزيرة
قبرص - كتب يطلب منه خزانة كتب اليونان ، وكانت عندهم مجموعة في بيت
لا يظهر عليه أحد . فجمع الملك خواصه من ذوى الرأي واستشارهم في
ذلك ، فكلهم أشار عليه بعدم تجهيزها إليه إلا بطريقاً واحداً فإنه قال : جهزها
إليه ، لما دخلت هذه العلوم على دولة شرعية إلا أفسدتها وأوقعت بين علمائها .

(١) من كتاب : صون المنطق والكلام . . . للسيوطي :

أما جهل الناس بسبب ميلهم إلى لسان أرسطو وتركهم لسان العرب ، فإن معناه يحتاج إلى إيضاح .

وإنه لمن الغريب ، فيما يبدو : أن تكون المعرفة للجوانب النظرية اليونانية جهلاً ، وأن تكون زيادة العلم بها ، مع ترك لسان العرب : زيادة في الجهل . والناس يرون الآن أن الثقافة اليونانية النظرية إنما هي ثقافة ممتازة لا غنى لمثقف عنها ، بيد أن الميدان الذي تحدث عنه الشافعي ، رضوان الله عليه : إنما هو : ميدان الغيب ، إنه : ما وراء المادة ، ما وراء الكون ، ما وراء المحس ، أي إنه : الميدان الذي لا تتأتى المعرفة فيه بإنعام النظر وإعمال الفكر ، إذ إن إنعام النظر وإعمال الفكر لا يتأتى إلا في المجالات التي تمدنا فيها الحواس بالأساس وبالأصل الذي نبني عليه ونستنتج منه ، ونبحث فيه .

ويدون هذا الأساس الحسي والأصل المادي : لا يقوم بناء عقلي ولا رأى نظري سليم . والإلهيات ، أو عالم الغيب - على حد تعبير القرآن - ليس مادياً ، وهو إذن : لا يقع تحت المحس ، وليس للمحس فيه مجال .

وهو ، من أجل ذلك : حجر محجور على العقل : يقول ابن عبد البر : المتوفى سنة ٤٦٣ هـ .

« إن الله : ليس كمثل شيء ، فكيف يدرك بقياس أو بإنعام نظر ؟ »
وإذا ما حاول الإنسان إذن ، أن يصل إلى عالم الغيب : عالم المجرّدات ، بإنعام النظر : فإنه يحاول السير في طريق مغلق ، إنها محاولة الجاهل ، إنها محاولة بنيت على أساس خاطئ ، فكل ما تصل إليه من نتائج ، إنما هي تحبط وضلال وجهل ، وكلما أمعن الإنسان في الطريق العقلي محاولاً معرفة عالم الغيب فإنه لا يزداد بذلك إلا حيرة وجهلاً .

ومن البدهي : أن الانحراف في الوسيلة يؤدي إلى الانحراف في النتائج
والأساس المنهاري ، لا ينبغي عليه قصر مشيد ؟ ؟

وقد حاول اليونان : أرسطو ومدرسته ، والمدرسة الأبيقورية ، والمدرسة
الرواقية أن يقيموا مذهبهم فيما وراء الطبيعة ، على العقل ، وكانت النتيجة التي
انتهت إليها هذه المدارس : مجموعة من الآراء المتضاربة المتعارضة ، المتناقضة ،
المتأرجحة بين النفي ، والإثبات ، وبين الشك واليقين .

أيا أصح ؟ أيا أقوم سيلاً ؟ أيا أهدي طريقاً .
إذا أردت الإجابة عن هذه الأسئلة « عقلياً » فليس هناك من مناص من
الحيرة ، والشك ، والتردد ، ثم الوقوف عن إبداء الرأي ، فإذا انحطت لمنطق
العقل ، فليس لذلك معنى إلا الجهل .

وإذا مال الإنسان ، إذن ، إلى لسان أرسطو ، إذا انصرف إلى الفكر
اليوناني ، فيما وراء الطبيعة ، أي إذا اتخذ العقل أساس المعرفة في عالم ما وراء
الطبيعة ، فإن معرفته : إنما تكون جهلاً ، وعلمه يكون وهماً :

نهاية إقدام العقول عقال وغاية سعي السالين ضلال
﴿عالم الغيب فلا يظهرُ على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول﴾
والرسول الذي ارتضاه الله سبحانه وتعالى وجعله خاتماً للرسل وتكفل بحفظ
الكتاب الذي أنزله عليه ، هو محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه .
أرسله الله بلسان قومه ، وهم العرب ، وأرسله بكتاب يتضمن كل ما يحتاج
الإنسان إلى معرفته من عالم الغيب ، وهو كتاب :

﴿أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ .
﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ .

وكشفه عن عالم « ما وراء الطبيعة » إذن : إنما هو كشف الحكيم العليم فإذا ما تمسكنا به فإنما نتمسك بالعصمة المطلقة ، بالحق الواضح ، بالصرط المستقيم والمعرفة به : معرفة صحيحة ، والعلم به : علم لا ريب فيه ، والعدول عنه : إنما هو عدول عن المعرفة إلى الجهل ، وعن العلم إلى الوهم ؟
أما المعرفة به على وجهها المستقيم : فإنها تتأتى أضواء ما تكون وأسنى ما يمكن إذا انصرف الناس إلى لسان العرب :

يقول السيوطي ، في تعليقه على كلام الشافعي ، رضى الله عنه :
ولم يتزل القرآن ، ولا أتت السنة إلا على مصطلح العرب ومذاهبهم في المحاورة ، والتخاطب ، والاحتجاج ، والاستدلال ، لا على مصطلح اليونان ، ولكل قوم لغة واصطلاح ، وقد قال تعالى :

﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ .
فمن عدل عن لسان الشرع إلى لسان غيره ، وخرج الوارد من نصوص الشرع عليه . جهل وضل ولم يصب القصد .
هذا هو ما عناه الإمام الشافعي بجهل الناس . أما ما عناه باختلافهم ، حيناً يميلون إلى لسان أرسطو ، فإنه يحتاج إلى بيان .

٣

« ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطو » (الشافعي)

ولسان أرسطو - وهو الفكر اليوناني النظري في « ما وراء الطبيعة » والأخلاق قائم على العقل : مقدماته ونتائجها .

وليس من المحتم أن يكون لسان أرسطو خاصاً باليونان فقط : فإن كل نزعة في البحث فيما وراء الطبيعة والأخلاق تتخذ من العقل أساساً . فإنما هي نزعة أرسطية ، إنها لسان أرسطو .

ولسان أرسطو إذن : عنوان على كل تأليف يقوم على العقل وحده . وأولى المحاولات من هذا النوع حدثت في الإسلام في عهده الأول ، حينما أراد بعض الناس أن يتحدث في القدر بعقله ، فنبى الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، عن ذلك نبياً حازماً حاسماً .

وحدث في عهد سيدنا عمر أن حاول صبيغ (على وزن أمير) أن يثير بعض المسائل الدينية . معتمداً على عقله في الجدل والنقاش ، فضربه أمير المؤمنين بعراجين النخل حتى سال الدم من رأسه ، وزالت مع سيلان الدم هواجسه وأهواؤه .

ثم كانت محاولات فردية ونزعات شخصية تقوم وتحمى ، وتنتهى عادة بانتهاء أصحابها ، ولكن الأمة الإسلامية في مجموعها كانت تتجه باستمرار إلى كتاب الله وسنة رسوله ، ﷺ ، تتخذ منها قدوة وأسوة ومنازة للهداية والرشاد إنها كانت تقوم على الوحي ، وهذا الاتجاه هو الذى يقابل اتجاه أرسطو . إنه يسمى في الاصطلاح الكلامى بالاتجاه السلقى .

وهو الذى تشير إليه وتبحث عليه كلمة (إسلام) .

فالإسلام : إنما هو إسلام الوجه لله ، إنه الاستجابة التامة لأمره سبحانه إنه تلمس رضاه فيما يأتي الإنسان وما يدع ، إنه العزم المصمم على اتخاذ الوحي أساساً ، وعلى الصدور عنه في كل عمل ، وفي كل نية .

وهناك إذن أساسان مختلفان للعقيدة والسلوك : أحدهما بشرى وهو العقل

وهو لسان أرسطو ، والآخر إلمى وهو : الوحي .
والوحي لا يوجد الآن في صورته الصحيحة إلا في اللغة العربية ، ولا يتأتى
فهيه فهماً دقيقاً إلا بتدقيق هذه اللغة والتعمق فيها .
والأمثلة التي نوضح بها ذلك كثيرة منها مثلاً ما يرويهِ السيوطي من أن عمرو
ابن عبيد جاء إلى أبي عمرو بن العلاء يناظره في وجوب عذاب الفاسق ، فقال
له : يا أبا عمرو ، الله يخلف وعده ؟
فقال : لن يخلف وعده .

فقال عمرو ، فقد قال : وذكر آية وعيد .
فقال : من العجبة أتيت ، الوعد غير الإيعاد ، ثم أنشد :
وإني وإن أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادي ومنجز موعدى
بل إن تنوين اسم في جملة ، وعدم تنوينه في نفس الجملة : يحصل المعنى
يختلف .

وبما يروونه في ذلك أنه إن قال قائل : هذا قائل أبي بغير تنوين في كلمة
« قائل » فإن معناها يختلف عن : هذا قائل أبي بتنوين كلمة « قائل » .
وترك لسان العرب إذن : يوقع الناس في الجهل كما يوقعهم في الاختلاف .
ولا بد لذلك من دراسة لسان العرب وتفهمه والتعمق فيه وتدقيقه ، حتى
يتأتى فهم دقائق الكتاب الكريم .

وفهم الكتاب الكريم والصدور عنه إذن هو مقصود الإمام الشافعي من
حث الناس على ترك لسان أرسطو ، والعودة إلى لسان العرب ، أي الوحي .
ولقد كانت الأمة الإسلامية سائرة على ذلك طيلة القرن الأول الهجري .
اللهم فيما عدا الحالات الفردية التي أشرنا إليها من قبل .

يبد أن الإنسان بطبيعته نزاعاً إلى أن يسير في الحياة بتوجيهات بشرية .
وهو لذلك يحاول ابتداع عقيدة يؤمن بها ، واختراع مذهب يعتقد فيه ،
فإذا ما حال دون ذلك وجود عقيدة سماوية وقوية : فإنه يحاول أن يلونها
ببشريته وأن يصبغها بتزعمه وأن يقحم بشريته في ثنائها : تأويلها ، وميلاً بها
إلى منطقتات رغباته ، وسيراً بها إلى مرضاة هواه .

وهو يفعل ذلك في أغلب الأحيان دون شعور سافر منه بما في عمله من
انحراف ، قليل أو كثير ، عن الطريق الذي يحبه الله من المؤمن والذي ركزه
سبحانه في كلمة « إسلام » .

واقدم كانت أول محاولة مذهبية منظمة لإقحام البشرية في دائرة الوحي إنما
هي المحاولة الاعتزالية : محاولة واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد ومن لف لفها ،
أو نهج نهجها : وهي محاولة أساسها من غير شك طغيان البشرية ، وغلبة الهوى
وإن ظهر ذلك في صورة من التلبيس موهمة ترى أن عملها خظمة للدين :
﴿ ألمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾ .

﴿ قل هل نتبئكم بالأخسرين أعمالاً ؟ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا
وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾ .

ولأن هذا الاتجاه - إقحام البشرية في دائرة الوحي - يتلاءم مع الكبرياء
البشرى ، ومع الغرور الإنساني ، انتشر المذهب الاعتزالي ، واكتسب أتباعاً
عديدين ، بل وصل به الأمر إلى أن تبناه الملوك والأمراء .

والاتجاه الاعتزالي إذن إنما هو نمط من لسان أرسطو ، هو نمط خفيف إلى
حد ما ، ولكنه من غير شك لسان من ألسنة أرسطو : إنه لسان المتكلمين .
والتكلمون إذن في الجوا الإسلامي إنما يعبرون عن نزعة بشرية تقحم نفسها

في الوحي بصورة تحاول أن تكون مقنعة ، ولكنها مها حاولت أن تتخفى على الناس ، بل على أصحابها : فإنها لا يتقصها الوضوح عند ذوى الشعور الدينى السلم .

وقد ثار على هذا الاتجاه أئمة المسلمين الأصفياء وقادتهم الأتقياء : ثار عليه الإمام الشافعى والإمام مالك ، والإمام أحمد بن حنبل ، والإمام سفيان . بل ثار عليه جميع أئمة المحدثين من السلف ، رضوان الله عليهم .
وندد الحديث عن تفصيل هذا إلى مناسبة أخرى ، ولكننا نريد أن نشير إلى النتيجة التى حدثت عن هذا الاتجاه الاعتزالي :

إن بنى البشر يختلفون ذكاء وثقافة ، وبيئة ، وطبيعة . وتزعاتهم من أجل كل ذلك مختلفة : فإذا ما أقحموا بشريتهم في الوحي : اختلفت آراؤهم ، وتفرقت نزعاتهم . وتشتت أهوائهم ، فكانوا شيعاً وأحزاباً .

ولذلك افرقت الأمة ، منذ دخول هذه النزعة ، بعد أن كانت موحدة ؛ وانقسمت إلى فرق وطوائف تتضارب وتعارض ، وتتصارع وتتناقض .

وإنه لمن ضحك الأقدار أن المعتزلة أنفسهم : قد انقسموا إلى طوائف بعدد من نبغ فيهم من شخصيات ، ولقد وصل الأمر بكل من هذه الطوائف نفسها أن رمت ما عداها بالانحراف والضلال .

وإنه لمن ضحك الأقدار أيضاً أن يقام على أساس هذه النزعة تراث ضخم يسميه « البشريون » علم الكلام الإسلامى ، أو علم التوحيد الإسلامى ، وما هو من التوحيد في شيء .

وإنه لمن المهن أن يضع صوت الأئمة الأجلاء ، الشافعى ، ومالك وأبن حنبل وسفيان ، في وسط الجرى وراء البشرية .

إن هذا الجرى وراء الفكر البشرى - لسان أرسطو - قاد المسلمين إلى الجهل ، لأن الانصراف عن الوحي إلى الفكر الإنساني : إنما هو انصراف عن علم إلى جهل . وقاد الأمة الإسلامية إلى الاختلاف والتفرق بعد الوحدة في العقيدة والتماسك : لأن الانصراف عن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو الوحي ، إلى ما يخطئ وينحرف ويضل ، وهو الفكر ، إنما هو انصراف عن مصدر وحدة إلى مبعث تشعب .

وصلق الشافعي :

« ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطو . »

الفصل الرابع

إخفاق الفلسفة

١

إن البحث في هذا الموضوع : يستلزم إيجازاً موجزاً خاصاً ببيان بعض الأمور التي تتعلق به : كتعريف الفلسفة مثلاً : وبيان نشأتها ومقاييسها التي تلجأ إليها ، لفض الخلاف ، إذا ماثار ، حول موضوع من الموضوعات . ولعلنا لا نكون بعيدين عن الصواب إذا ما عرفنا الفلسفة البحتة في وضعها الراهن : بأنها : البحث العقلي فيما وراء الطبيعة ، وفي الأخلاق ، والبحث في قيمة المعرفة : وسائل ونتائج . وهذا التعريف من المرونة بحيث يضيق ويتسع تبعاً لضيق موضوع الفلسفة أو اتساعه ، في عصورها المختلفة .

متى نشأ هذا النوع من البحث ؟

ربما لا يكون الإنسان مخاطراً إذا زعم أنه نشأ مع نشأة الإنسان ، نشأ كخضرات تمر عابرة ثم تنتهي ، وتلح تارة ثم تزول ، وتكثر في فترات محدودة وتقل في أخرى غير أنها في كل أحوالها وظروفها المختلفة عابرة لا تدوم ، ولكن البحث الفلسفي العقلي المنظم المرتب المحكم : إنما نشأ في اليونان ، ونشأ في اليونان بالذات لأن الدين اليوناني : لم يكن له من الثبات واليقين ، ومن القوة والسيطرة ومن التمكّن في النفوس ، والتغلغل في الأرواح ، ما يجعل الناس

يطمئنون إليه ويستسلمون ، فيما يختص بالعقيدة أو الإيمان بما وراء الطبيعة .
وفما يختص بالأخلاق أو بتحديد الخير .

والظاهرة الملاحظة في كل الأوساط على مر التاريخ : أنه كلما كان الدين
يقيناً ثابتاً ، وكلما كان الإيمان قويا مسيطراً ، قل التروع إلى الفلسفة وقل البحث
العقلى في مجالات الغيب .

أما السبب في ذلك : فهو من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى بحث عميق ،
وذلك أن موضوع الفلسفة هو نفسه ، على التقريب ، موضوع الدين : فالدين
يجيب ، في اختصار أو في استفاضة عن أسئلة للفلسفة . يجب عنها في صورة
حاسمة عازمة لا تعرف التردد ولا الشك .

والمؤمن الذى غلب عليه الإيمان ، وسيطر على نفسه الدين ، لا يستسيغ أن
يتجاوزه ويتفلسف ؟
ولماذا يتفلسف ؟

إنه مؤمن ، وإنه مؤمن بقضايا دينه ، ولا يخالجه الشك قط في صحة هذه
القضايا . فهل يعقل ، والأمر كذلك ، أن يترك اليقين ؟ أعنى قضايا الوحي
المعصومة ، ليحاول عن طريق العقل البشرى أن يدرس الموضوع من جديد ؟
إنه ، إن فعل ذلك ، لمعناه أنه يشك في قضايا دينه ، شاعراً بذلك أو غير
شاعر ، معناه أنه يترك التمسك بهداية الله ، ليمسك بهداية البشر ، ومعناه أنه
يترك اليقين إلى الظن : لأن نتائج العقل البشرى في مجالات ما وراء الطبيعة ظنية
كلها .

ونشأ التفلسف في صورة نظرية منظمة ، في اليونان لأول مرة في عهدهما
بالحضارة الثقافية لضعف التدين فيها ، ولم ينشأ التفلسف في البيئات الإسلامية

لأول عهدهما بالتحضر الثقافى لقوة التدين فى الأمة الإسلامية الناشئة .
ودراسة تاريخ الفيلسوف ، ونشأته ، والعوامل المؤثرة فيه فى الأمة اليونانية .
والأمة الإسلامية : يفيد كل الإفادة ، إذا أردنا ملاحظة ظاهرة الإيمان ،
من حيث القوة والضعف ، وأردنا ملاحظة ظاهرة الفيلسوف من ناحية الازدهار
أو الذبول . فالأمة الإسلامية فى نشأتها لم تعرف الفيلسوف ، وإنما استسلمت
للتدين استسلاما مطلقا .

ومضى القرن الأول بأكمله والمسلمون يلتمسون فى كتاب الله تعالى ، وسنة
رسوله ﷺ ، جميع الحلول للأمور التى تعرض لهم ، والأسئلة التى تتور فى
نفوسهم .

وحين بدعوا فى ترجمة التراث الأجنبى - فبما بعد - بدعوا يترجمون الكتب
التي تتصل بالجانب العملى كالطب مثلاً ، أو الكيمياء ، أو ما وراء الطبيعة ، وأما
الأخلاق فإنهم كانوا يتخرجون كل التخرج من ترجمتها اكفاء وإعزازا بما
عندهم فى ذلك من وحي معصوم .

واستمرروا على ذلك إلى أن كان عهد المأمون فبدعوا بأمر منه . يترجمون فى
مجال ما وراء الطبيعة ، ومجال الأخلاق ، وبدأ الفيلسوف البحث ، وبدأنا
نلتبس فتور الإيمان كأساس من أساس الفيلسوف وكتيجة من نتائجه أيضا .

وبداية الفيلسوف عند الفيلسوف هى بداية الترد الدينى ، وبداية التوفيق بين
الدين والفلسفة : هى بداية النفاق فى المحيط الفلسفى .

وما من شك فى أن محاولة التوفيق بين النتاج الإنسانى فى مجال ما وراء
الطبيعة ، وهو الفلسفة . وبين الوحي الإلهى : إنما هى مهزلة من المهازل الكبرى

التي تلجأ إليها الإنسانية حينما تريد تغطية انحراف صارخ أرصت به كبرياءها
وغرورها ٢٢

إن تفلسف المسلم : نوع من الكبرياء والغرور ، وتمخط من الاعتداد بالنفس
اعتدادا يجعلها لا تستسلم للغير ، حتى لو كان ذلك الغير هو الوحي الإلهي
والمبادئ الربانية .

والتوفيق معناه أن تضع الطرفين موضع التساوى من حيث القيمة الاعتبارية
ثم تبدأ تجر أحدهما إلى الآخر تحت ستار من التأويل والتفسير والشرح وعدم
اعتبار المعنى الظاهر والاتجاه إلى معان باطنية ، قد لا تقرها اللغة أو العرف
أو النظرة السليمة .

أو تحاول - بطريق آخر - أن يجعل كلا منها يتنازل للآخر عن بعض
مجالاته أو بعض ألوانه ، أو بعض مفاهيمه حتى يلتقيا وقد اختصر كل منها في
جانب من جوانبه .

وموقف المؤمن الصحيح يتمثل في المبادئ التي حددها الرسول صلوات الله
وسلامه عليه تحليداً تاماً « اتبعوا ولا تبدعوا فقد كفيتم » .
لقد أنزل الله في « ما وراء الطبيعة » وفي « الأخلاق » مافية كفاية تامة
للمؤمن . والمؤمن غير محتاج لما وراء ذلك .

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام
ديناً ﴾ .

وأول مادة في الإسلام إنما هي المادة التي تؤخذ من تسميته نفسها : هي
إسلام الوجه لله ، وإلقاء القياد له ، والإذعان التام لما جاء به ، والخضوع
الكامل لتعاليمه ومبادئه في الأخلاق ، وفي ما وراء الطبيعة .

فإذا ما تمرد المؤمن على هذه المبادئ وبدأ يلتقي بقياده إلى عقله ، حتى لو كان يريد أن يصل عن طريق ذلك إلى نفس النتيجة التي أتى بها الدين ، فإنه منحرف عن هدى العبودية لله ، إلى هدى العبودية للعقل . وهو يفعل ذلك تقديسا لنفسه ، وذلك نوع من عبادة الذات أو نوع من غرور العقل .
ونأتي الآن إلى نتائج الفلسفة ، فتساءل ناظرين إلى الواقع التاريخي : لماذا الفلسفة ؟ إننا إذا نظرنا إلى النتائج في صورة عامة شاملة وفي صراحة لا تليس بها ، فإننا نجد نتائج الفلسفة تصور تصويرا تاما جميع أنواع الضلال والانحراف والوهم والخداع والزيف والباطل ، كما تصور في خلال ذلك الحق والصواب أحيانا ولكن الأوهام في هذه النتائج أكثر من الحقائق : ذلك أن الفلسفة نتاج شخصي يرتبط بالشخص ، من حيث البيئة ، والعصر ، والثقافة ، والذكاء ودرجة التدين .

فهى إذن ، لهذه الاعتبارات ، نتاج نسبي يتسم بالنسبية منذ المبدأ .
ومادام الأمر كذلك فإنه لا مناص من الاختلاف والتعارض ، والتناقض والتضارب .

ونحن إذا نظرنا في تاريخ الفلسفة ، منذ نشأتها نجد أنه لا يوجد في أى موضوع من الموضوعات ما يمكن أن نسميه بالرأى الفلسفي ، وهذه ظاهرة لها مغزأها العميق . وليس بشعط أن يؤكد الإنسان أنه لا توجد مسألة واحدة اتفقت آراء الفلاسفة على حل موحد لها .

إن الرأى الفلسفي معدوم في المحيط الفلسفي ، والمسائل التي بدأ قدماء فلاسفة اليونان يبحثون لها - عقليا - عن حل لا تزال معلقة للآن ، يحاول الفلاسفة المحدثون بعد مضي أكثر من خمسة وعشرين قرناً إيجاد حل لها .

ومن سخرية الأقدار بالفلاسفة : أن ما سماه أفلاطون بـ « اللهو الجدى »
وهي المسائل التي وضعها زينون الإيليائي يبرهن بها على أن الوجود ساكن
لا يتحرك ، وملاً لاختلاء فيه ، هذه المسائل التي تتنافى مع بديهية الحس
البديهية ، ومع شعور الفطرة السافر . من سخرية الأقدار أن الفلاسفة :
لا يزالون يحاولون إلى الآن إيجاد حل عقلي لهذه المسائل ، يوفقون فيه بين العقل
والحس ، أو بين المنطق والفطرة السليمة ، مجرد الفطرة ، الفطرة في أي مكان
وجدت . . فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً .

من أين ؟ وإلى أين ؟ ولم ؟ لا تزال للآن ، وربما إلى الغد ، بل ربما إلى أن
ينتهي العالم ، معلقة تطلب الحل عقلياً .

ومادام في الفلاسفة من ينكر إنكاراً تاماً ما وراء الطبيعة ، ولا يعترف بالخير
العام والفضيلة المحددة ، ومن يثبت كل ذلك ، فلا أمل قط في أن يوجد الرأي
الفلسفي .

ولكن ، أما يوجد مقياس عقلي يقيس به الفلاسفة الآراء فيبتدون بواسطته
إلى الصواب ، وبذلك يزول الخلاف ويوجد الرأي الفلسفي ؟ عن ذلك نريد أن
نتحدث .

٢

إن الإنسان يبحث - منذ أن وجد - عن الغيب ، ويجري وراء المجهول إنه
يريد أن يكشف القناع ، ويرفع الحجب التي تحجبه عن عالم الغيب ، إنه يريد
أن يصل إلى الله ، ويتصل به اتصالاً مباشراً ، ويتغمس بنفسه في عالم الإلهية ،
ويتحسس بروحه أنوارها ، وكان الطريق أمامه مرسوماً واضحاً ، رسمه الأنبياء -

عن طريق الوحي - ووضحه الرسل ، عليهم الصلاة والسلام ، لقد صورته
الرسالات الإلهية ، إنه العبودية الكاملة لله ، إنه إلقاء الإنسان بنفسه في المحيط
الإلهي ، إنه اتجاه العبد إلى الربانية حتى يصير ربانياً ، إنه التخلق بأخلاق الله ،
والوقوف ببابه ، سبحانه ، حتى يتقبله الله ويدخله في جنات المعرفة ، وفي
رياض الحقائق .

وسار الأمر على ذلك في الحضارات القديمة .

لقد كان هذا النمط هو الذي يسير عليه كهنة عين شمس ، مثلاً ، في
الحضارة المصرية . وكان هذا النمط الذي يسير عليه البراهمة في الديانة الهندية .
وكان هذا النمط هو الذي يسير عليه طلاب المعرفة الحق في العصور القديمة على
اختلاف الأزمنة والأمكنة .

وما كان يتأقن قط أن يدور بخلد أحد في هذه الحضارات أن يكون هناك
طريق آخر لمعرفة ما وراء الطبيعة غير هذا الطريق ، إنهم كانوا يرون أن عالم
الغيب من الأسرار الإلهية ، يمنح الله معرفته لمن يشاء من عباده وهو لا يمنح هذه
المعرفة إلا لهؤلاء الذين اتبعوا الصراط المستقيم الذي رسمه الله سبحانه .

فما كان العهد اليوناني بدأ بـ (الأورفية) التي سارت على نفس الطريق
القديم وينفس الأسلوب الشرقي في الوصول إلى المعرفة .

وتلقف ذلك الأسلوب ، وتلك الطريقة « فيثاغورس » ، فكان « المدرسة
الفيثاغورية » التي رأت أن معرفة ما وراء الطبيعة : لا تأتي عن طريق : الذهن
يعمل ، والعقل يفكر ، والخيال يخلق ، كلا ، إنما تأتي عن طريق الطهر
الكامل في الأخلاق والزهد المتبصر في الماديات حتى لا يصير الإنسان عبداً لها ،
إنها لا تأتي إلا عن طريق العبودية التامة لما منح المعرفة وواهب الخير .

وقد سارت المدرسة الفيثاغورية على أسلوب الصفاء : كوسيلة . وعمموا في ذلك حتى لقد شمل مذهبيهم نوع الملابس ولونها ، وهو البياض ، وأنواع المأكولات ومقاديرها ، وأوقات الصيام ، وكيفيته ، ولقد أسلمت الفيثاغورية علمها إلى الأفلاطونية التي أسلمته إلى الأفلاطونية الحديثة . ولكنه يجوار هذا الأسلوب في المعرفة الخاصة بعالم الغيب نشأ أسلوب آخر ، أسلوب مبتدع ، أسلوب لم يكن موجوداً من قبل وهو أسلوب يعد في ذلك الزمن انحرافاً عن الأسلوب التقليدي المعروف .

ذلك الأسلوب : هو محاولة معرفة عالم الغيب عن طريق العقل : يتوى ، ويفكر ، ويبحث ، ليصل عن طريق ذلك إلى الفكرة الصحيحة عن عالم الإلهية سلباً وإيجاباً ، بدأ بذلك طيبيو اليونان فلما جاء أرسطو مثل هذا الانحياز كأقوى ما يكون التثليل .

وبدأ منذ ذلك الحين ولأول لحظة الفرق واضحاً بين الأسلوبين . فالأسلوب الأول يؤمن إيماناً تاماً بعالم الإلهية وكل رجائه أن يصل إلى أنواره وأن يحصل على قبس منه ، وأن ينغمس في محيط رحمته .

أما الأسلوب العقلي المبتدع ، فإنه لا يؤمن بشيء ، ولا يعتقد شيئاً ، ويفرض تساوى الأمور ، ولا يرجح سلباً ولا إيجاباً ، ويلقى بقياده إلى عقله ، ويستسلم إلى ذهنه .

ولكنه منذ العهد الأول لهذا الانحياز العقلي : لاحظ أصحابه ، ولاحظ الباحثون على وجه العموم : أمرين ، ربما كان أحدهما نتيجة للآخر .

أما أولها : فإنه هذا الاختلاف التام بين الباحثين عقلياً ، أو المتفلسفين ، فيما وصلوا إليه من نتائج ، أنهم اختلفوا حتى مع اتحاد البيئة ، واتحاد الزمن .

لقد جهل بعضهم بعضاً ، وخطأ كل منهم الآخر ، وجزم كل منهم بأنه ،
هو وحده على الصواب وأن غيره على الخطأ ، واحقر كل منهم الآخرين .
ولقد وصل الأمر بالفيلسوف : « هرقلطس » أن كان الناس في رأيه - على
ما يذكر كتاب : قصة الفلسفة اليونانية « قطعاناً من الغنم حقت عليهم الضعة
والمهانة » بل جنح به الكبرياء إلى احتقار أعلام الفكر من أسلافه :
« أكنونفنس » و « فيثاغورس » نكرتان جديرتان بالإهمال ، و « هوميرو » قدم
غبي يجب أن تلهب ظهره عذبات الشياط و « هزيود » لا يرتفع كثيراً عن غمار
السوقة فهو واحد منهم « لا يفرق بين الليل والنهار » فإذا كان يتزل قادة الفكر
تلك المتزلة . فأين يقع الشعب من نفسه ؟ !
هم « الأنعام تؤثر الكلاً على الذهب » ، وهم « كلاب تنبح كل من
لا تعرفه » اهـ .

أما الأمر الثاني الذي لاحظته الباحثون : فهو : أن العقل : مختلف من
شخص لآخر . وإذا كانت قد وضعت في العصور الحديثة مقاييس للدكاء تشبه
أن تكون محدودة ، فإن اختلاف العقول في بني البشر : لا يحتاج إلى ملاحظة مرؤاة .
ويمكن إجمال الأمرين في عبارة مختصرة ، وهي : أن اختلاف العقول :
أدى إلى اختلاف النتائج .

على أن اختلاف العقول في الأفراد يتضاعف بالمتغيرات الخارجية : فاليئة ،
والوسط ، والثقافة ، والأصدقاء ، والجو والمصالح . . كل ذلك وغيره :
يؤثر ، إلى ما شاء الله في العقول ، وفي النتائج الذي تنتجه .

ومع توالي الزمن تكثر المذاهب ، وتعدد الفرق ، ويمكن أن يقال ، بدون
مبالغة : إن المذاهب تتعدد بمقدار ما يكون في العالم من فلاسفة عقليين .

و بمجرد أن أسفر هذا الأسلوب العقل ، في معرفة ما وراء الطبيعة ، عن اختلاف العقول واختلاف النتائج ، أخذ أنصاره يبحثون عن مقياس عقلي يضبط العقل ويعصمه من الخطأ . وتمخض عن هذا المقياس : عقل أرسطو فوضع مقياساً تعصم مراعاته اللهن عن الخطأ في الفكر ، هو : « المنطق » . بيد أنه سرعان ما لوحظ أن المنطق : لم يعصم ذهن الذي ابتدعه وأن هذا الذي ابتدع طريق العصمة : أخطأ وأخطأ ، وأخطأ ! ثم لوحظ أن جميع الذين فتنوا بالمنطق في العصر اليوناني : واستخدموه في كتاباتهم لم يعصمهم عن الخطأ .

وأخذ الباحثون قديماً وحديثاً : يفكرون في الحلل الذي أدى إلى عدم قيام المنطق بما يراد منه ، وهو : العصمة ، فوجدوا الحلل ولاحظوه ، وحاولوا له علاجاً فلم يتأت لهم ذلك .

لقد كان الحلل في المنطق من ناحية الشكل ، ومن ناحية الجوهر^(١)

(١) سبق أن كتبنا في تطبيقنا على كتاب المنطق من الضلال ، ما يلي :
« قد تقول : إن العقل - وهو أساس ملهب المعتزلة ، وملهب العقليين عموماً - له مقياسه ، وله موازنه التي لا يتطرق إليها الحلل . إن المنطق القديم منه والحديث ، آلة تعصم مراعاتها اللهن عن الخطأ في التفكير .

ولقد جاهدت الإنسانية جهاداً طويلاً حتى جعلت من الاستقراء والقياس أداتين للفصل بين الهدى والضلال ، وللفرقة بين العياة العمياء ، والصواب الأصوب .

فالاستقراء والقياس - إذن - هما وسيلة العقل ، وهما فيصل الفرقة بين الغي والرشاد . فمن التجنى على المعتزلة وعلى العقليين - وقد اعتمدوا عليها - أن نعصم ملهبيهم بمجافاتها للطريق الأقوم . إن وجهة النظر هذه تبدو ، وكأنه لا غبار عليها . بيد أنها عند النظرة الفاحصة تتزلزل وتتهار . أما أولاً : فلأن المعتزلة أنفسهم ، والعقليين عامة - مع اعتمادهم على الاستقراء والقياس - قد انحطوا فرقاً وأحزاباً لا تحصى ، وكل فرقة أو شعبة تتبع رئيساً وصل به « استقراءه » ووصل به « قياسه » إلى نتائج معينة ، تختلف - في قليل ، أو في كثير - عن نتائج استقراء آخر ، وقياس مختلف .

وأما ثانياً : فلأن الفكرة : « المنطق يعصم الذهن من الخطأ في التفكير ، أو المنطق وسيلة التفكير الصحيح » : فكرة خرافية ، أكثر منها حقيقة وذلك يحتاج إلى تبيان .

إن المقاييس هي كما ذكرنا : الاستقراء ، والقياس .

أما الاستقراء - وهو أساس المفاهيم العامة والقضايا الكلية - فإنه :

١ - مبنى كله على الحس : إنه استقراء محسوسات ، إنه جميع جزئيات ، لا يخرج عن نطاق الواقع ، أما المسامحة فهو يرى منها كل البراءة ، لأنها لا تتدخل في دائرة اختصاصه : فهو عاجز عن أن يتحقق الحجب ليصل إلى ما وراء الطبيعة .

٢ - ثم إن الاستقراء : تام ، وناقص . والتام - كما يعرف المناطقة لاختفاء فيه ، ولا فائدة .

أما الناقص - وهو المهم في نظرهم فإنه - في رأيهم أيضاً - ظني ، وهو - لذلك - عرضة للتغيير ، في كل آونة .

وكل معدن يتمدد بالحرارة « تلك قضية من قضايا الاستقراء ، إنها قضية عامة شاملة ، ولكن المعدن لم تكتشف - بعد - بأكملها ، ومن الجاز أن يكشف في الغد معدن لا يتمدد بالحرارة إنها - إذن قضية مؤقته ، ظنية ، تتبرأ من اليقين الفلسفي .

« والعلم لا يعرف الكلمة الأخيرة في مسألة من مسأله وإنما حقائقه كلها إضافية مؤقتة ، لما قيمتها ، حتى يتكشف البحث عما يريل هذه القيمة أو غيرها » (١) .

وهكذا قضايا الاستقراء ، إنها :

١ - خاصة بالطبيعة ، ولا شأن لها بما وراءها .

٢ - ظنية ، لا تعرف اليقين .

أما القياس :

١ - فإنه مبنى على الاستقراء ، إذ هو منطوق دائماً على كلية ، كلية استقرائية ، ومادامت قضايا

الاستقراء ظنية - كما رأينا - وميدانها المحسوسات ، فنتائج القياس ظنية كذلك ، وميدانها المحسوسات .

٢ - إن المناطقة لا يشترطون في مقدمات القياس ، أن تكون مسلمة صادقة في نفسها ، وإنما يشترطون

أن يسلمها المتجادلون لحسب ، وقد تكون - كما يقول صاحب البصائر التصيرية : منكورة كاذبة في

نفسها ، وفي هذه الحالة يكون القياس صحيحاً ونتيجته باطلة .

وإذا كان الأمر كذلك فما فائدة القياس ؟ ما قيمته إذا كان لا يعول فيه إلا على أن تكون =

(١) انظر مقدمة فجر الإسلام .

وأصبحت كل قيمته : أنه مران عقل على أشكال عدة وضروب منتجة أو غير منتجة ، ولا نتيجة له ، اللهم إلا إذا كانت السياحة الذهنية في الأشكال والضروب .

وقد وضع ذلك - بما لا يحتاج إلى مزيد - علماء النهضة الحديثة : أمثال

== للخدمات مستوية لشروط الإنتاج بحيث تستلزم النتيجة وإن لم تطابق النتيجة الواقع ؟ ما قيمته إذا كان لا يحفل بصدق النتيجة أو كذبها |

إنك إذا قلت : الكثير من العلم ، يؤدي إلى الاستغلال الفردي ، وكل ما يؤدي إلى الاستغلال الفردي مضر بالمجتمع ، فالكثير من العلم مضر بالمجتمع ، كان هذا قياساً صحيحاً في نظر المنطقة . وإذا قلت : الكثير من العلم . يؤدي إلى التماسك الاجتماعي ، وكل ما يؤدي إلى التماسك الاجتماعي مفيد للمجتمع ، فالكثير من العلم مفيد للمجتمع ، كان هذا أيضاً قياساً صحيحاً عند المنطقة ، ومع ذلك فالنتيجتان متعارضتان .

٣- ومع كل هذا فالقياس استدلال دوري فاسد ، ذلك أن العلم بالنتيجة في بحر قولنا : « محمد إنسان ، وكل إنسان ناطق ، لمحمد ناطق ، متوقف على العلم بالكبرى ، والعلم بالكبرى متوقف على العلم بالنتيجة لأنك لا تستطيع أن تحكم بالناطقية على جميع أفراد النوع الإنساني ، إلا إذا تأكدت من ثبوت الناطقية لمحمد . ولو كنت في شك من ذلك ، لما استطعت تعميم الحكم على جميع أفراد الإنسان . وإذا ن تكون الكبرى متوقفة على النتيجة ، والنتيجة متوقفة على الكبرى ، وعلى ذلك يكون القياس : استدلالاً دورياً فاسداً ، فلا يعول عليه .

٤- وأخيراً ، للقروض : أن نتيجة القياس : جديدة كل الجدة ، إنها استنتاج مجهول - هو النتيجة - من معلوم ، هو للخدمات .

ولكن النتيجة متضمنة في الخدمات ، إنها ليست مجهولة ، والقياس إذن لا يؤدي إلى معرفة جديدة ، أو إلى استنتاج مجهول من معلوم إنه - إذا أردت الدقة - : استنتاج معلوم من . . . معلوم .

- تلك هي موازين العقل - وهي موازين لاخفاء فيها ولا جذوى منها .

العقل إذن قاصر فيما يتعلق بالأخلاق ، وهو قاصر على الخصوص فيما يتعلق بالإلهيات .

ومن هنا كانت الحكمة في تزول الأديان .

ومن هنا كان السبب في التصارها على الأخلاق والإلهيات .

وإذا كانت قد تحللت في التشريع فإن التشريع داعل في نطاق الأخلاق .

« يكون » و « جون استيوارت ميل » ، وأصبح المنطق الصوري الآن لا يساوى شروى نقيير في مقاييس الحقيقة أوفى عصمة الإنسان ، وضاع الأمل العذب الذى تعلقت به الإنسانية زماناً طويلاً متخيلة أن الإنسان سيصل بالمنطق إلى العصمة المطلقة .

وكما تعلقت أعين الإنسانية بمنطق أرسطو زماناً فقد تعلقت أعينها بمنهج (ديكارت) زماناً آخر . ولقد طنطن ديكارت بمنهجه وأشاد بأنه تلقاه ذات ليلة ، فغمره فرح لا يوصف ، واعتقد أن مشكلة المعرفة الإنسانية قد حلت ، سواء أكان ذلك فى الدين أم فى الطبيعة .

واستخدم ديكارت منهجه ، وتحدى به ، ولكن سرعان ما تبين خطؤه فى الطبيعة ، وخطؤه فى كثير من النتائج التى وصل إليها .

وضاع مرة أخرى أمل الإنسانية الذى مدّت إليه أعيننا فترة من الزمن . وتتساءل الآن : أحقاً لم تصل الإنسانية إلى مقياس عقل صحيح للفصل الفاصل بين الصواب والخطأ فى عالم ما وراء الطبيعة ، وفى عالم الأخلاق ؟ والجواب عن هذا السؤال : حاسم جازم : وهو أن الإنسانية : لم تصل إلى مقياس عقل تفرق به بين الهدى والضلال فى عالم ما وراء الطبيعة ، وأن هذا العالم : لا يزال - بالنسبة للعقل - من المساتير المحجوبة التى لم يرفع الحجاب عنها إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن طريق الوحي الإلهى وبما لاشك فيه : أن جميع مذاهب الفلسفة - فيما يتعلق بعالم الغيب - ظنية إن لم تكن وهمية .

أما عالم الأخلاق ، أما دنيا السلوك ، إنه كما أخفق المنطق فى مجالاتها فقد أخفقت جميع المقاييس البشرية ومن بينها مقياس الضمير .

خرافة الضمير

(١)

إذا بحثنا في معاجم اللغة العربية ، عن معنى كلمة « الضمير » فإننا لا نجد من بين معانيها ، المعنى الأخلاقي ، الذي نفهمه من هذه الكلمة في العصر الحاضر ، ونستعملها فيه ونطلقها عليه ، وهي لم ترد بهذا المعنى في القرآن ، أو الحديث ، أو في الشعر العربي القديم ، إنه معنى محدث ، أخذناه عن الغرب في العصور الحديثة .

وقد استعمله الغرب كثيراً ، وأشاد به ، حيناً أراد أن يضع للأخلاق أساساً ومقياساً ، متفصلين عن الدين .

وكان ذلك على الخصوص ، حيناً أراد الغرب ، أن يتخلص من سيطرة الكنيسة ، وأن يخرج على سلطاتها ، ويشور على قواعدها وأوضاعها ، ويفرق أو يفصل بين الدين والدولة . وكان الدين ، إذ ذاك أساساً ومقياساً للأخلاق . ولا مناص - إذا أريد التخلص من الدين - من البحث عن أساس ومقياس للأخلاق فلا بد - لاستقرار المجتمع ، وهدوئه وأمنه - من أن تستقر الأخلاق . وتقوم على دعامة قوية ، وإلا ، لانهار المجتمع ، وناله الفساد من جميع أقطاره .

وتلفت زعماء الثورة على الكنيسة يميناً وشمالاً لعلهم يجدون ما يقوم مقام الدين - وقد تحلوا منه بالنسبة للأخلاق ، فوجدوا - كسراب يتألق -

الضمير ، فتشبثوا به ، وأثنوا عليه ، ورفعوا من شأنه ، واعتبروه أساساً ومقياساً للأخلاق .

وما من شك - كما يقول العالم الفرنسي الكبير الأستاذ « أندريه كرسون » « أن الأكثرية من الناس ، بل ربما جميعهم ، يكون لهم ضمير متى أدركوا سن الرشد . فحينما يشرعون في عمل ، فإنهم يشعرون بأن هذا العمل ، إما أن يكون واجب التنفيذ ، وإما أن يكون واجب الترك ، وإما أن يكون من قبيل المباح . وحينما يقومون بالعمل - سواء أراعوا الضمير أم لم يراعوه - فإنهم يشعرون ، أثر القيام به بمشاعر مختلفة . فإذا كانوا قد خضعوا لحكم الضمير ، فيما أوجبه ، فإنهم يشعرون بتقدير لأنفسهم تصحبه لذة ظاهرة : الرضا الأخلاقي . أما إذا كانوا لم يستجيبوا لصوت الضمير ، فإنهم يشعرون باحتقار لأنفسهم شديد الايلام : « تبكيت الضمير » : (٢) .

ورأى القائمون ، على الثورة ضد الكنيسة إذن : أن يستعيفوا عن الدين بوحى الضمير ، وأن يتخلوا من وحى الضمير ، الأساس الذي لا يخطئ ، والمقياس الذي لا ريب فيه بالنسبة للأخلاق .

(ب)

وحيثما هدأت الأمور في الغرب ، وعادت الحياة إلى مجراها الطبيعي ، بعد الصراع العنيف ، بين الكنيسة والثوار ، الذي دام فترة طويلة من الزمن ، أخذ العلماء ، يراجعون أنفسهم ، ويدرسون ، في هدوء ودعة المبادئ التي قامت عليها الثورة المنتصرة ، والأهداف التي حددت ، والغايات التي رسمت ،

(٢) انظر المشكلة الأخلاقية والفلاسفة .

والتواعد التي خططت ، ثم هذبوا في كل ذلك وغيروا وبدلوا . وكان مما راجعوا أنفسهم فيه : مسألة « الضمير »
ويقول « أندريه كرسون » :

ولما استعرضوا التاريخ والوقائع والمشاهدات ، يستنيرون بها في أمر الضمير رأوا : « أن الناس في كل العصور ، وفي جميع الأقطار ، يستشيرون ضمائرهم . ولكنها لا تسمعهم جميعاً ، لحنأً واحداً إذ أن ما يظهر عدلاً وخيراً ، لبعض النفوس المخلصة في عصر خاص ، لا يظهر عدلاً ولا خيراً لنفوس أخرى ، هي أيضاً مخلصه ، ولكنها عاشت في عصر آخر ، أو مكان آخر » (٣) .
أما إذا أردنا أمثلة على ذلك فإننا سنجدها كثيرة ، عندما نوازن بين أحوال الضمير خلال مختلف العصور .

ويضرب لنا الأستاذ - أندريه كرسون - الأمثلة الكثيرة :

« ففي العصور القديمة اليونانية ، اللاتينية كان نظام الرق مشروعاً : إن أشرف القلوب ، إذ ذاك كانت تجرد من الطبيعي ، أن يباع الرجال والنساء والأطفال ، وأن يعاملوا معاملة السوائم .
ويقول :

وكانت القوانين الرومانية القديمة ، تجعل من المرأة والأطفال ملكاً للزوج ، كما لو كانوا أمتعة وأنعاماً : لهذا كان للأب ، من بين الحقوق الأخرى ، الحق في أن يعرض ابنته المولودة حديثاً ، في السوق العام ، إذا كانت له بنت أخرى .
ولسنا بحاجة إلى أن نذهب بعيداً .

فهاهم أولاء أسلافنا ، كانوا يرون شرعية تطبيق العقوبة على مجرد ظن

(٣) المصدر السابق

الجريمة . وكانوا بلا أدنى قلق يشاهدون الفرد مشنوقاً من أجل اختلاس تافه ،^(٤)

ولكننا عندما نوازن بين أحوال الضمير ، في العصر الواحد في أقطار مختلفة ، فإننا نجد أيضاً فروقاً لا تكاد نحصى ولا تعد .

فالشعوب التي يسود فيها ، نظام تعدد الزوجات ، لا تعتبر من يتزوج بعدد منهن بريئاً فقط ، بل إنها ، فوق ذلك ، لتعد هذا العمل منه ، سامياً ومشرقاً إلى حد كبير ، وإن مشاعر الحياء القوية جداً عند الشعوب المتحضرة لا تهز قليلاً ولا كثيراً : مثل زواج الكنغر ، وسكان جزائر « تايبي »^(٥) .
ويقول :

ومن ناحية أخرى ، فإنه لا شيء أغرب من مشاهدة بعض الالتزامات التي تقتضيها حياة بعض البدائيين . وليس من المجهول ، ما يعد من المحرمات الدينية عندهم : مثل تحريم بعض أنواع اللحوم ، أو بعض أنواع الأشرطة ، أو خروج النساء بدون حجاب .

وأمر الطقوس السائدة في البلاد « الأوقيانوسية » معروف مشهور . فهي تعتبر من الآثار ، ما قد يظهر لنا طبيعياً ، بل فوق ذلك ، ما يظهر ضرورياً : إنها تحرم تناول الطعام تحت السقف ، والمكث في المسكن إذا كان المرء مريضاً ، واستعمال الأيدي في التغطية ، بعد فراغ المرء من حلق شعره ، أو بعد فراغه من صنع زورق .

على أن الدلالة العميقة ، إنما هي مظاهر اختلاف الضمير في البيئة

(٤) المصدر السابق

(٥) المصدر السابق

الواحدة ، وفي الجامعة الواحدة ، المتحضرة المتمدنية .
وهل الرأسمالي ، الذي يدافع عن نظام الميراث ، أقل إخلاصاً من الشيوعي
الذي يهاجمه ؟ أو هل الديمقراطي ، الذي يقرر ضرورة الانتخاب العام ،
أقل إخلاصاً من الأرستوقراطي الذي يعلن ، عدم ملامة هذا النظام ؟
وهل (فيلانت) ، عندما يبيع أنواعاً من الكذب ، أقل اقتناعاً برأيه من
(ألسنت) عندما يجرمها ؟

إن «شارلوت كودي» عندما قضت على حياة (مارا) كانت ترى ،
ولاشك ، أنها إنما تقوم ، بعمل أخلاقي عظيم بلا مراء . فهل المواطنون ، الذين
ساقوها إلى المفصلة ، كانوا أقل إيماناً منها بالقيمة الأخلاقية لعملهم هذا ؟
هذه الأمثلة ، التي ذكرها الأستاذ «أندريه كرسون» : إنما هي قطرة من
بحر ، مما يمكن أن يبرهن به ، على اختلاف الضمير ، بحسب اختلاف الزمن ،
أو اختلاف الثقافات في البيئة الواحدة .

وهناك أمثلة لا تحصى إذا ما قارنا ضمائر العرب في العصر الجاهلي ،
بضمائرهم في العصر الإسلامي ، أو ضمائر الوثنيين في مكة بضمائر المسلمين فيها
عند نشأة الإسلام ، أو إذا ما قارنا ضمائر المتفرجين في مصر العصر الحاضر ،
بضمائر المحافظين فيها ! !

والنتيجة لكل هذه المقارنات ، هي : أن اتخاذ الضمير كأساس للأخلاق
أو كمقياس لها ، إنما هو مجرد حياقة وعبث .

ومن الشبه ، التي جعلت الناس يؤمنون ، بمتزلة كبرى للضمير ،
ويرفعونه : أنه قد شاع بين بعض الطوائف ، أن الضمير قوة فطرية معصومة
بطبيعتها ، ولكن هذه الدراسة السابقة تؤدي بنا لا محالة إلى أن الضمير قوة

فطرية حقاً ولكنها قوة غير معصومة لأنها ترمى وتكتسب فيما يتعلق باللون الذي تتخذه .
وهي وإن كانت قوة فطرية إلا أنها تتلون بحسب ما تتغذى به من ثقافة ،
ومن وراثه ، وهي تختلف في الفرد الواحد بحسب اختلاف سنه ، وبحسب تنقله
من بيئة إلى بيئة وبحسب الكتب التي تلمسه بالثقافة العقلية ، أو التهذيب
الروحي ، وبحسب اختلاف الأصدقاء الذين يلزمهم الإنسان في حياته الواحد
تلو الآخر .

والضمير إذن متأرجح متقلب ، لا يستقر له قرار ، لأنه حتى لو مكث على
حالة واحدة تجاه مسألة معينة فإنه في هذه الحالة النادرة يتأرجح أيضاً ، قوة
وضعفاً ، واتزاناً وإسرافاً .

والوضع الصحيح إذن - بالنسبة لأساس الأخلاق - أن نلجأ إلى الدين ،
نستمد منه الهداية والإرشاد ، فإنه هو وحده : المعصوم .

والدين الإسلامي قد أتى في الجانب الأخلاقي بكل ما تتطلبه النفوس
المرهفة ، والأفئدة المتعطشة للاستقامة . لقد أقر بذلك كبار الفلاسفة
الإسلاميون « كابن سينا وغيره » .

لقد رأى ابن سينا ، أن الدين الإسلامي ، أتى بأكمل نظام
أخلاق تشريعي بالنسبة للمجتمع ، وبالنسبة للأسرة ، وبالنسبة للفرد ، وتحدث
ابن سينا عن ذلك غير مرة في مختلف كتبه .

أما صلة الدين بالضمير ، فإنها صلة هيمنة وتوجيه وإرشاد وسيطرة إنها
صلة هيمنة تستمر مدى الحياة ، وإذا ما زالت هذه الهيمنة في أي فترة من
فترات الحياة ، فإن الضمير يخلل اتزانه وتوازنه ، ويتأرجح ويتذبذب ، لأنه
يحتاج باستمرار إلى القائد المرئي ، وليس هذا القائد المرئي إلا الدين .

الفضل تحت مس

الإمام الغزالي والفلسفة

« رأيتهم أصنافاً ، ورأيت علومهم أقساماً ، وهم - على كثرة أصنافهم - يلزمهم وصمة الكفر والإلحاد ، وإن كان بين القدماء منهم والأقدمين ، وبين الأواخر منهم والأوائل تفاوت عظيم في البعد عن الحق ، والقرب منه . »
« اعلم : أنهم - على كثرة فرقهم ، واختلاف مذاهبهم - ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

الدهريون .

والطبيعيون .

والإلهيون .

« والصنف الأول : الدهريون ، وهم طائفة من الأقدمين ، جحدوا الصانع المدبر العالم القادر ، وزعموا : أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه ، وبلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، كذلك كان ، وكذلك يكون أبداً ، وهؤلاء هم الزنادقة .

« والصنف الثاني : الطبيعيون وهم قوم أكثروا بحتمهم ، عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات . »

« وأكثروا الخوض في علم تشريح أعضاء الحيوانات . »

« فرأوا فيها من عجائب صنع الله تعالى ، وبدائع حكمته ، ما اضطربوا معه إلى الاعتراف بفاطر حكيم مطلع على غايات الأمور ومقاصدها ، ولا يطالع التشريع وعجائب منافع الأعضاء مطالع ، إلا ويحصل له هذا العلم الضروري بكمال تدبير الباني لبنية الحيوان ، لا سيما بنية الإنسان .

« إلا أن هؤلاء لكثرة بحمهم عن الطبيعة - ظهر عندهم - لاعتدال المزاج تأثير عظيم في قوام قوى الحيوان به ، فظنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه أيضاً ، وأنها تبطل ببطلان مزاجه فينعدم ، ثم إذا انعدم ، فلا يعقل إعادة المعلوم ، كما زعموا ، فذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود : فجحسوا الآخرة ، وأنكروا الجنة والنار ، والحشر ، والنشر ، والقيامة ، والحساب ، فلم يبق عندهم للطاعة ثواب ولا للمعصية عقاب ، فاحل عنهم اللجام ، وانهمكوا في الشهوات انهالك الأنعام .

« وهؤلاء أيضاً زنادقة ، لأن أصل الإيمان هو : الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، وهؤلاء جحسوا اليوم الآخر ، وإن آمنوا بالله وصفاته .

« والصنف الثالث : الإلهيون : وهم المتأخرون منهم مثل « سقراط » وهو أستاذ « أفلاطون » و « أفلاطون » أستاذ « أرسطاطاليس » .

« و « أرسطاطاليس » هو الذي رتب لهم المنطق ، وهذب لهم العلوم ، وحرر لهم ما لم يكن محرراً من قبل ، وأنضج لهم ما كان فجاً من علومهم . وهم يميلت بهم ردوا على الصنفين الأولين من الدهرية ، والطبيعية ، وأوردوا في الكشف عن فصاحتهم ما أغنوا به غيرهم ، وكفى الله المؤمنين القتال بتقاتلهم . ثم رد « أرسطاطاليس » على « أفلاطون » و « سقراط » ومن كان قبله من الإلهيين ، رداً لم يقصر فيه حتى تبرأ عن جميعهم ، إلا أنه استبق أيضاً من

ردائل كفرهم وبدعتهم ، بقايا لم يوفق للتروع عنها ، فوجب تكفيرهم ، وتكفير
شيعتهم من المتفلسفة الإسلاميين « كابين سينا » و « الفارابي » وأمثالهما .
« على أنه لم يتم بنقل علم : « أرسطاطاليس » أحد من متفلسفة الإسلاميين
كقيام هذين الرجلين ، وما نقله غيرهما ليس يخلو عن تحييط وتحليط ، يتشوش
فيه قلب للمطالع ، حتى لا يفهم ، وما لا يفهم : كيف يرد أو يقبل ؟ ومجموع
ما صح عندنا من فلسفة أرسطاطاليس ، بحسب نقل هذين الرجلين ، ينحصر
في ثلاثة أقسام :

١ - قسم يجب التكفير به .

٢ - وقسم يجب التبليغ به .

٣ - وقسم لا يجب إنكاره أصلاً ، فلنفضله .

« ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلاً يجب تكفيرهم في
ثلاثة منها ، وتبديعهم في سبعة عشر .

ولا يطال مندهم في هذه المسائل العشرين ، صنفنا كتاب « التهافت » .

أما المسائل الثلاث ، فقد خالفوا فيها كافة المسلمين ، وذلك في قولهم :

١ - إن الأجساد لا تحشر ، وإنما المثاب ، والمعاقب هي الأرواح المجردة ،

والمثويات والعقوبات روحانية لاجسمانية .

ولقد صدقوا في إثبات الروحية ، فإنها كائنة أيضاً ، ولكن كذبوا في إنكار

الجسمانية ، وكفروا بالشريعة فيما نطقوا به .

٢ - ومن ذلك قولهم : إن الله تعالى يعلم الكلليات دون الجزئيات .

وهذا أيضاً كفر صريح ، بل ألحق أنه : « لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في

السماوات ، ولا في الأرض » .

٣ - ومن ذلك قولهم بقدوم العالم وأزليته فلم يذهب أحد من المسلمين إلى شيء من هذه المسائل .

« وأما ما وراء ذلك : من تفهيم الصفات ، وقولهم : إنه عليم بالذات لا يعلم زائد على الذات ، وما يجرى مجراه ، فذهيهم فيها : قريب من مذهب المعتزلة » .

وقد يتساءل إنسان : إذا كان الأمر كذلك فلم انتشرت العلوم الفلسفية في العالم الإسلامي ؟

يقول في ذلك الخافظ عماد الدين ابن كثير في تاريخه ، سنة ٦٨٧ هـ بعد أن أخذ التار بغداد عمل الخواجه نصير الطوسي الرصد ، وعمل دار حكمة فيها فلاسفة لكل واحد في اليوم ثلاثة دراهم ، ودار طب فيها فلاسفة لكل واحد في اليوم ثلاثة دراهم ، ودار طب فيها للحكيم درهمان وصرف لأهل دار الحديث لكل محدث نصف درهم في اليوم ومن ثم فشا الاشتغال بالعلوم الفلسفية وظهر .

والفلسفة التي نعنيها هنا ، إنما هي المحاولات المستمرة . التي بدأت منذ العهد اليوناني القديم ولا تزال - لبناء « ما وراء الطبيعة » على العقل ، إنها هي المحاولات العقلية ، لا اختراع ما وراء الطبيعة وابتداعه ، بحيث يأخذ العقل حريته في الإثبات والنفي ، غير متأثر إلا بمقاييسه هو التي يفرضها وإذا كان العقل قد اشتغل بالطبيعة والرياضيات ، وإذا كانت الطبيعيات والرياضيات قد أدخلت في الفلسفة كأجزاء لها فإن الهدف الأول للإمام الغزالي ، إنما هو جانب ما وراء الطبيعة .

وبما لاشك فيه ، أن العقل قد أنتج ثماراً يانعة في الطبيعيات والرياضيات ،
لقد أقام القواعد المحكمة ونظم المبادئ المتقنة وانتهى به الأمر إلى أن شيد
الطبيعيات والرياضيات على أسس متينة : وكان الأمر كذلك في هذين الميدانين
لأن العقل يعمل في دائرة اختصاصه ، ودائرة اختصاصه ، إنما هي الماديات
والمحسوسات ، أو ما يتمثل فيها حينما يوجد خارج الذهن كالرياضيات .
وغير هذا النجاح قوماً ، فاعتقدوا أن في استطاعة العقل أن يحول في كل
ميدان : في استطاعته أن يحول في الطبيعة وفي ما وراء الطبيعة ، في العالم وفي
ما وراء العالم في المادة وفي المجردات ، في عالم الشهادة وفي عالم الغيب وكانت
النتيجة أن أقحموا العقل في عالم ما وراء الطبيعة : فكانت الفلسفة الإلهية
العقلية ، وكان الإخفاق التام للعقل في هذا الميدان .

وهذه الفلسفة العقلية التي تبحث في الغيب ، إنما هي انحراف عن الطريق
المستقيم وهذا الانحراف حديث العهد نسبياً ، فهو يبتدىء كما قلنا بالعهد
اليوناني ، وأشهر من تولى كبره في ذلك العهد ، إنما هو «أرسطو» .
وأرسطو هذا الذي يعتبره بعض المؤرخين أكبر عقلية فلسفية ظهرت على
وجه التاريخ ، هو أيضاً أشهر الذين انهار مذهبهم في عالم ما وراء الطبيعة وكان
إخفاق عقله الكبير هنا فيما يخص بمعرفة الغيب من أوضح الأدلة على أن عالم
الغيب أسمى من أن يتناوله العقل البشري الخطاء ولقد كانت الاعتراضات على
مذهبه قوية عامة شاملة حتى إن تلاميذه وهم فلاسفة دب اليأس في نفوسهم
من إقامة عالم ما وراء الطبيعة على أساس العقل فلم يمكنهم أن يردوا على
الاعتراضات ورأوا أنه إذا كان أستاذهم قد أخفق هذا الإخفاق في مذهبه عن
عالم الغيب فإنهم سيخفقون من باب أول لو حاولوا إقامة مذهب في الإلهيات

جديد . يقول : الأستاذ « سانتلانا » بعد أن ذكر الاعتراضات على مذهب أرسطو .

إن ذلك « حمل التلامذة بعد موته على الإيلاس من الإلهيات والتفرغ إلى علم الطبيعة ، وعلم الأخلاق ، اختصوا بها في القرن الثالث قبل الميلاد ، حتى لقبوا بالطبيعيين سباشية « ثاقورسطيس » و « استواثون » اللذين خطفا أرسطو في رياسة « دار العلم » التي كانت للمشائين بأثينا » اهـ :

انصرف إذا تلاميذ أرسطو - يائسين - عن عالم ما وراء الطبيعة إلى عالم الطبيعة والأخلاق وإذا كان مذهب زعيم العقلين قد انهار ، فمن باب أولى ينهار مذهب غيره ممن هم أقل منه ، ولكن هذا الانهيار المتتابع للمذاهب العقلية في الإلهيات ، لم يصرف الناس عن هذا النخط من المحاولات ، التي مآلها دائماً الإخفاق .

وتتابعت هذه المحاولات في الشرق والغرب إلى عهد الإمام الغزالي . ورأى الإمام الغزالي ببصيرته النفاذة ، ومحلصه الملهم ، أن هذا الطريق ، الذي انخرقت إليه الفلسفة وسارت فيه ، إنما هو طريق مسدود ، ولا بد إذا من محاربة هذا العبث الذي يسمونه « الفلسفة العقلية » لا بد من محاربتة لأسباب عدة : فهو إضاعة للوقت ، وهو تشكيك للبشرية ، وزعزعة للإيمان وليس له من نتيجة إلا التفرق والاختلاف ، وتوهين المقدسات .

على أنه إذا كان يلتبس لليونان العذري في معالجة هذا الموضوع ، لعدم وجود الوحي المعصوم ، الذي يهديهم الطريق ، وينير لهم الجادة ، فليس هناك من عذر للمسلمين وبين يديهم رسالة السماء ممثلة في « القرآن » .

وهو « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » .

﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تتريل من حكيم حميد ﴾ وقد تكفل الله بحفظه . ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ .

ليس للمسلم إذاً - فيما يرى الإمام الغزالي - أن يحاول ابتداع عالم ما وراء الطبيعة ، أو اختراعه عقلياً ، ولكن المسلمين أخذوا فيما أخذ فيه اليونان واعتمدوا على العقل وألقوا قيادهم إليه فضرقوا مذاهب شتى ، وطرائق قدداً ، وأصبح للفلسفة برغم هذا بريق يخطف الأبصار ، ولعمان كالسراب يجذب الكثيرين .

لا بد إذاً من التشمير عن ساعد الجدد ، وهدم هذا الزيف ، وإبطال هذا السحر حتى يعود الناس إلى الاعتصام بجبل الله وعدم التفرق .

وحمل الإمام الغزالي على الأساس ، الذي تقوم عليه الفلسفة وهو « العقل » حملة عنيفة وهجم عليه هجوماً قوياً ، ولم يفترقط عن مهاجمته منذ أن ألف كتابه القيم « تهافت الفلاسفة » إلى أن انتهت به الحياة ، ولقد كان كتابه « تهافت الفلاسفة » محاولة موفقة كل التوفيق ، جريئة كل الجراءة ، طريفة كل الطرافة ، وما كان المقصد الأول والمهدف الأساسي لهجومه ، هدم الآراء في نفسها ، فبعضها صحيح ، موافق للدين ، ومع ذلك فقد هدم الإمام الغزالي ، المنهج العقلي ، الذي استندت إليه هذه الآراء ، « فخلود النفس » مثلاً . رأى يقول به الغزالي ، ويقول به الفلاسفة ولكن الإمام الغزالي ، حمل معوله على طريقة الفلاسفة في إثبات خلود النفس وهدم أدلتهم ، وضرب بمعوله فيها فانهارت وهاقتت ومع ذلك ، فقد كان هو مؤمناً بهذا الخلود ، إنه لم يلتزم في هذا الكتاب إلا تكدير مذهبهم ، والتعير في وجه أدلتهم بما يبين تهافتهم . ومقصوده : تنبيه من حسن اعتقاده في الفلاسفة ، وظن أن مسالكهم نقية

عن التناقض ، بيان وجوه تهاقهم .
ويقول : أنا لا أدخل في الاعتراض عليهم ، إلا دخول مطالب منكر ،
لا دخول مدح ، مثبت ، فأبطل عليهم ما اعتقدوه ، مقطوعاً بالزمامات مختلفة :
فألزمهم : تارة مذهب المعتزلة .
وأخرى : مذهب الكرامية .
وطورا : مذهب الواقفية .
ولا أنهض ذاباً عن مذهب مخصوص .

ويقول الأستاذ « بلاسيوس » بحق : « إن الغزالي حينما سمي كتابه (تهاق
الفلاسفة) : كان يريد أن يمثل لنا ، أن العقل الإنساني ، يبحث عن الحقيقة
ويريد الوصول إليها كما يبحث البعوض عن ضوء النهار ، فإذا أبصر شعاعاً يشبه
نور الحقيقة انحدر به ، فرمى بنفسه عليه وتهاقت فيه ولكنه يخطئ مخدوعاً بأقيسة
منطقية خاطئة ، فيهلك كما يهلك البعوض .

فكان الغزالي ، يريد أن يقول : « إن الفلاسفة ، خدعوا بأشياء أسرعوا
إليها بلا إعمال روية فتهاقوا وهلكوا الملاك الأبدى » اهـ .

وفي كتاب التهاقت هدم الإمام الغزالي عقلياً ما بنه الفلاسفة معتمدين على
عقولهم وتهاقت الآراء تحت قلمه ، ومن الحق أن نقول : إن أدلة الإمام
الغزالي فيها من القوة ، ومن الرسوخ بحيث لا تقل ، من وجهة النظر العقلية .
عن أدلة الفلاسفة العقليين .

وما من شك في أن حملة الإمام الغزالي ، إنما كانت موجهة أولاً وبالذات
إلى العقل والقضية المتنازع عليها هي قضية استطاعة العقل الوصول إلى المعرفة
اليقينية في عالم « ما وراء الطبيعة » . الإمام الغزالي ينكر ، ويثبت إنكاره

بالإخفاق المتتابع للفلاسفة . ويثبت أيضاً بهدم العقل لكل ما بناه العقل نفسه في هذا الميدان .

والتعارض إذاً بين الإمام الغزالي والفلاسفة إنما هو تعارض كلي : ولذلك فإن المحاولات الكثيرة المتعددة . لتصحيح آراء الفلاسفة ، أو لتصحيح بعضها ، ونقد الإمام الغزالي في حملته على هذا الرأي أو ذاك . والانتصار لوجهة النظر الفلسفية في هذه أو تلك . . إن ذلك كله غير مجد في القضية التي أثارها الإمام الغزالي . وهي محاولات جهل القائلون بها موضوع النزاع على حقيقته أو بجهلوه .

ومن هنا كانت محاولة « ابن رشد » - وهو أكبر المدافعين عن الفلاسفة - تصويب آراء الفلاسفة في كتابه « تهاوت التهاوت » عملاً غير مفيد في حسم النزاع إذ إن دائرة النزاع الحقيقية إنما هي الأساس الذي بنيت عليه الآراء وليست الآراء نفسها . والواقع أن فكرة الإمام الغزالي لا تزال للآن تسم بالسهولة والوضوح والقوة : لقد أخفقت أيها العقليون والدليل على إخفاقكم اختلافكم المستمر ، هذا الاختلاف الذي أصبح وكأنه القاعدة والمبدأ العام . وإذا أردنا في النهاية تقدير مدى الآثار التي كانت ولا تزال ثمرة لفكرة الإمام الغزالي هذه فإن خير ما نفعل فيما يتعلق بذلك ، وخير ما نختتم به هذه الكلمة هو أن ننقل رأي الدكتور « محمد إقبال » وهو رأى يتسم بالرصانة والعمق ، يقول « محمد إقبال » في كتابه « تجديد التفكير الديني في الإسلام » :

« على أنه لا سبيل إلى إنكار أن الدعوة التي نهض لها الغزالي تكاد تكون دعوة للتبشير بمبدأ جديد ، مثلها في ذلك مثل الدعوة التي قام بها « كانت » في

ألمانيا في القرن الثالث عشر.

ففي ألمانيا ظهر المذهب العقلي لأول عهده حليفاً للدين ، ولكن سرعان ما تبين أن جانب العقيدة من الدين لا يمكن البرهنة عليه حسيّاً فكان الطريق الوحيد إذن : أن تمحي العقيدة الدينية من سجل المقدسات .

وقد جاء مع نحو العقيدة مذهب المنفعة في فلسفة الأخلاق ولذا مكن المذهب العقلي من سيادة الإلحاد .

تلك كانت الحال في ألمانيا ، عندما ظهر « كانت » وكشف كتابه : « العقل الخالص » عن قصور العقل الإنساني ، فهدم بذلك ما بناه أصحاب المذهب العقلي من قبل وصدق عليه القول بأن كان أجل نعم الله على وطنه .

وإن التشكك الفلسفي الذي اصطنعه الغزالي على تطرفه بعض الشيء قد انتهى إلى النتيجة نفسها في العالم الإسلامي إذ قضى ذلك على المذهب العقلي الذي كان موضع الزهو ، على الرغم من ضحائه . وهو المذهب الذي سار في نفس الاتجاه إليه المذهب العقلي في ألمانيا قبل ظهور « كانت » .

غير أن هناك فارقاً هاماً بين « الغزالي » و « كانت » فإن « كانت » تمشى مع مبادئه تمشياً لم يستطع أن يثبت أن معرفة الله ممكنة .

أما الغزالي فعندما خاب وجاوزه في الفكر التحليلي ، ولى وجهه شطر الرياضة الصوفية ، وألقى فيها مكاناً للدين قائماً بنفسه .

وبهذه الطريقة وفق لأن جعل للدين حق الوجود مستقلاً عن العلم ، وعن

الفلسفة الميتافيزيقية .

الفصل السادس

تأملات في الإيمان والإلحاد

يخلط كثير من الناس بين التوحيد وإثبات وجود الله ، وهما أمران بان في وضوح ، اختلافها واختلاف موقف الإسلام منها ، إذ إن الإسلام استفاض استفاضة كثيرة في إثبات التوحيد ، وذلك لأنه حق لا مربة فيه ، ويقين لا شك فيه ، وقد عمى عنه الوسط الذي كان يجزيرة العرب فأشركوا بالله .
أما موقف الإسلام بالنسبة لإثبات وجود الله فإنه مختلف اختلافاً كبيراً عن موقفه بالنسبة لإثبات التوحيد .

إن القرآن لم يتحدث عن إثبات وجود الله : إن الله في العرف الإسلامي وفي أعرف أصحاب الفطر السليمة موجود ووجوده لا يتأري فيه اثنان ، ومع ذلك فإن الوضع الحالي في جميع الأجواء الشرقية والغربية قد ألفت ترعة ترى أن إثبات وجود الله مسألة تحتاج إلى برهان ، وهذا الإلف وهذه الترة الناشئة عن التعود في حاجة ماسة إلى بيان الوضع الصحيح في هذا الموضوع الخطير ، ومن أجل ذلك ترى من الواجب علينا معالجة هذا الموضوع في شيء من الاستفاضة .
يقول الله سبحانه وتعالى عن جوهر رسالة نوح عليه السلام في العقيدة :
﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين . أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ^(١) ﴾ .

(١) هود : ٢٥ ، ٢٦

ويقول سبحانه وتعالى عن جوهر رسالة صالح في العقيدة :
﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ .
وعن جوهر رسالة شعيب في العقيدة :
﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ .
وهكذا في رسالة جميع الأنبياء إذ يقول الله تعالى في تعميم مطلق :
﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا
فاعبدون ﴾ .

إلام تشير هذه الآيات ؟

إنها لا تتحدث عن إثبات وجود الله ، وإنما تتحدث عن الشرك ، أي
الاعتقاد في آلهة كثيرة .

ولقد كانت الثورة ضد الشرك وتحطيم الأصنام من المهام الكبرى في الرسالة
الإسلامية حتى إن العالم الكبير أبا الرحمان البيروني حيناً أخذ يبين الطابع الأصيل
لكل دين قال عن الإسلام : -

« إن الطابع الأصيل للإسلام إنما هو التوحيد ، .

وإذا كان البيروني حيناً يتحدث عن طابع كل دين إنما كان يتحدث عن
طابع الأديان في وضعها الراهن ، فإنه مما لا شك فيه أن الأديان - على الرغم
مما ذكره البيروني عن سماتها المختلفة - تشترك جميعها في مبدأ التوحيد .

وكل نهي بشر بالتوحيد ، ولكن الإنسانية كانت تنحرف بالعقيدة بعد موت
الرسول من التوحيد إلى الشرك ، والشرك إسراف خاطئ في الإيمان .

وما كانت الإنسانية تنحرف قط من التوحيد إلى الإلحاد ، وما كان للإلحاد
وجود قط فيما قبل الحضارة اليونانية القديمة .

ونشأ الإلحاد - انحرافاً فطرياً ودينياً - مع الحضارة اليونانية القديمة ، نشأ
بجوار الشرك وبجوار التوحيد .

لقد كانت هذه الحضارة تشتمل - في العقيدة - على ثلاثة تيارات :
١ - الشرك : وهو دين الدولة الشائع ، وتقاليدها الراسخة ، يتمثل في فنها
الذي يمثل الشرك في قوة ، والذي أثار الإعجاب للإتقان الذي كان يتمثل
فيه ، والذي مازال يثير الإعجاب للآن ويتمثل في أدبها الذي يعكس صورة
لعقيدتها ، وتاريخ اليونان الفكرى والأدبى ملئ بصور الشرك ، مفعم بالوثنية ،
ولكن الشرك في اليونان - كغيره من ألوان الشرك - أعطى للآلهة صورة غير
كريمة ، بل لقد وصل بها أحياناً إلى صورة تنحط عن صورة البشرية الآتمة .
أرأيت الآلهة ترتشى وتظلم وترقى ؟

لقد كانت هذه بعض صور الآلهة في اليونان القديمة .
وهي صور أساغها الإلف والتكرار والعادة ، وشب عليها الأطفال والشبان
فلم تثر انتباههم أو توقظهم .

وفي فترة من فترات هذه الحضارة - فترة القرن الخامس والرابع والثالث
قبل الميلاد على الخصوص - نشأت مجموعة من العباقرة لا تكاد تحصى ، وكان
السماء في هذه الفترة كانت تمطر عباقرة على تفاوت فيما بينهم في الاتجاه وفي
المكانة .

هؤلاء العباقرة أكثرهم استقر على رفض الشرك : أى رفض الدين الرسمى
الشائع للدولة ، ولو قدر الله لليونان إذ ذاك ديناً صادقاً لاستمسكوا به ،
وما تردت الإنسانية في الأخطاء الكثيرة التي نشأت عن الحضارة اليونانية في
علمها الفكرى الذى انفصل عن الوحي لا عن اختيار ودرغبة ، وإنما على أسف

شديد لفقدان الوحي والرسالة الصادقة .

يدلنا على هذا الأسف ، وعلى التقدير الذي كان عندهم للوحي قصة يرونها التاريخ حدثت في عهد سقراط ، وهي قصة عميقة في مآزها كل العمق :
جلس سقراط - أبو الفلسفة وأبو الفلاسفة - ومعه اثنان من كبار فلاسفة المدرسة الفيثاغورية المشهورة التي أسسها فيثاغورس الفيلسوف الصوفي الكبير .
جلس ثلاثتهم يبحثون في جد واهتمام موضوع مصير الروح بعد الموت : هل الموت هو الخطوة الأخيرة للإنسان ينتهي بعده روحاً وجسداً ، أو أنه انتقال من حال إلى حال والروح باقية ؟

هل الإنسان خالد بجوهره وهو الروح ، أو أنه فانٍ جسماً وروحاً ؟
وأجهدهم البحث ، وانتهى بهم إلى عدة براهين تثبت خلود الروح ، وأنها لا تفنى بفناء الجسم .

وسكنوا يستريحون قليلاً ، ولكنهم في فترة راحتهم أخطوا يتدبرون ما انتهوا إليه ، ثم قال أحدهم - نتيجة لتأمله - ولكن المسألة ما زالت في حاجة إلى مزيد من اليقين .

ولقد كان ذلك هو ما انتهى إليه الآخرون في تأملهم ، وقال أحدهم محقياً على ذلك : « ولكن هذا نهاية شوط العقل » .

وأسفوا جميعاً على أنه لم يتزل وحي ، ولم يبعث لديهم رسول يفصل في هذا الموضوع .

ثم أخذ أحدهم يتحدث عن تشبيه دقيق يتعلق بوسيلة العبور في محيط مارواه الطبيعة ، والمحيط المادي إنما يتأقن في أعراف الناس عن طريقين :
أحدهما : السفينة يعبر بها الإنسان المحيط آمناً مطمئناً من شاطئ إلى شاطئ .

أما التالية : فإنها لوح من خشب ، مصير راكبه الغرق في أغلب الظن . .
ووسيلة عبور محيط ما وراء الطبيعة هي الوحي ، وهو السفينة الآمنة المتينة .
والعقل وهو لوح الخشب الذي لا يصل في أغلب الظن إلا إلى غرق
راكبه .

ولقد كان فلاسفة اليونان في لفة على أن يتزل عليهم الوحي في جدته
ونضرتة وصدقه ، ولم يقدر لهم ذلك ، ورفضوا الشرك : دينهم الرسمي ، فما هو
البديل ؟ إنه لوح الخشب . .

وركبه : ركبه سقراط ، وركبه أفلاطون ، وركبه أرسطو ، وركبه من
قبل ، السوفسطائيون ، وركبه من بعد أبيقور ، وركبه الرواقيون . .
إلام وصل بهم ؟ لقد وصل بهم إلى :

٢- التوحيد : فإيا رأى سقراط وأفلاطون وأرسطو وكثير غيرهم . . وهذا
هو التيار الثاني الذي كان في اليونان في عصرها القديم بيد أن توحيد هؤلاء ليس
هو التوحيد كما تزل على لسان الصادقين المعصومين صلوات الله عليهم وسلامه ،
ولم يمثل توحيد المدرسة السقراطية في جزئياته وفي تفاصيله التوحيد الصادق ،
ولكنه على كل حال ليس شركاً .

٣- وأدى بهم ، في فريق آخر ، إلى الإلحاد ، الإلحاد المطلق ، الإنكار لما
بعد الطبيعة وللبحث والرسالة ، وكان ذلك على لسان أبيقور ومن لف لفه في
اليونان من قبله أو في زمنه ، أو من بعده .

لقد فقدوا في منطقتهم الليتافيزيقى الاعتماد على الوحي فقادهم ذلك إلى
مسالك شتى ، ولو كان هناك وحي لقادهم وقاد عقولهم إلى الشاطئ في أمن
وسلام .

ومنذ هذه اللحظة دخل الإلحاد في العالم مبتدئاً من اليونان .
وأصبحت مسألة التدين في الجو الفكري المتابع لهذا التيار اليوناني مسألة
عقلية لا شأن لها بالوحي ، وأخذت تسير في مجراها العقل العادي :
المؤمنون يبرهنون عقلياً على إيمانهم .
والمحللون يزيفون المنطق برهنة على إلحادهم .
لقد أخذت المسألة في هذا الطريق مع أنها شعور وفطرة وبداهة .
وما من شك في أنه كان للمؤلفين منطقي جميل في الإثبات ، نذكر منه شيئاً
من إثبات سقراط .

قال سقراط لصاحبه الذي ينكر وجود الله :
أفي الناس من يعجبك براعته في الصنائع ؟
فقال : نعم ، وسمى من الشعراء والمصورين ممن كان يعمده أبرع من غيره .
فقال سقراط :

أيها عندك أرفع شأناً ؟ أمن يصنع القنايل العارية عن الحركة والعقل أو من
يصور الأشباح الحية المتحركة ؟
فقال : من يصنع الصور الحية ، اللهم إلا إذا كانت تلك الصور من عمل
المصادفة والإتقان لا من عمل العقل :

قال سقراط : إذا فرضنا أشياء لا يظهر المقصود منها ، وأشياء أخرى بينة
القصود والمنفعة ، فما قولك في تلك الأشياء ؟ وما هي التي عندك من فعل
العقل ؟ وما هي التي عندك من فعل الإتقان ؟ . .

قال : لاشك أن ما ظهر قصده ومنتفعته من فعل العقل .
قال سقراط : أولست ترى أن صنائع الإنسان في أول نشأته جعل له آلات

الحس لما في تلك الآلات من المنفعة الظاهرة ؟ فأعطاء البصر والأذنين ليصير
ويسمع ما يكون لعيشه صادقاً ، وما فائدة الروائح لو لم تكن لنا الخياشيم ؟
وكيف ندرك المطاعم ، ونفرق بين الحلو والمر لو لم يكن لنا لسان نتوق به ؟
إن بصرنا معرض للآفات .

أو لست ترى كيف اعتنت القدرة الإلهية بذلك ، فجعلت الأجفان
كالأبواب لتمنع ما يهيب البصر ، وجعلت الأهداب كالمناخل لتقيها من أضرار
الرياح ؟

وما قولك في آلة السمع ، وهي تقبل جميع الأصوات ولا تمتليء أبداً ؟
أما رأيت الحيوانات ، كيف رتبت أستانها للمقدمة ، وأعدت لقطع الأشياء
فتلقيها إلى الأضراس فتدقها دقا ؟

فاذا تأملت في ترتيب ذلك ، أيمكنك أن تشك : هل هي من فعل الإتيقان
أم من فعل العقل ؟

قال أرسطو ديموس :

نعم إذا تفكرنا في ذلك لا نشك في أنها من فعل صانع حكيم كثير العناية
بمصنوعاته . . .

• • •

ومها يكن في هذا الاستدلال من جبال ، ومها يكن في استدلال المؤلمين
العقلين أمثال أفلاطون وأرسطو وديكارت من قوة فإن المسألة مع ذلك انحراف
مهدت له ظروف اليونان التي فقد فيها الوحي ، وهذا الانحراف لم يجد من
يصححه فأخذ صورة الوضع الطبيعي وهو انحراف منحرف .
ما الوضع الطبيعي للمسألة ؟

قصّ عليّ صاحب لي قصة هزت شعوري هزاً قوياً ، وأخذت أفكر فيها
عدة أيام .

وما كنت أتخيل أن يصل صدق الإيمان إلى هذه الدرجة .
قال صديقي - وهو سوداني - يحتل مكانة مرموقة في العلم والإيمان .
إن في أطراف السودان (قرية صغيرة) تشبه أن تكون منعزلة .
لا يكاد يطرق أبوابها غريب .
ويسكن (بهذه القرية) رجل صالح يسير في حياته على تقوى من الله ،
وعلى بصيرة من دينه .

عاش هذا الرجل وعلمه - كل علمه - هو (هذه القرية) التي لم يفارقها
قط .

لقد تعود فيها على (أناس معينين) .
وعلى (ألوان محددة) و (ملابس) لا تكاد تختلف من فرد لآخر .
إنه في تصوّره الحسى محدود بهذه القرية .
وفي يوم من الأيام اقتضت الظروف - في صورة من الحتمية - أن يذهب
إلى مدينة بعيدة .

وكان هذا في حياته حدثاً هاملاً .
فإنه لا يعرف الطرق ولا المسالك ولا كيف يسير .
ولا بد من السفر . .

فاصطحب معه أحد أبناء القرية ممن لهم دراية بالأمور ، وسافرا ،
وعلى مشارف المدينة رأى الرجل الصالح منظراً تعجب له . .
رأى (ضابطاً إنجليزياً ١١)

ورؤية ضابط إنجليزي في السودان - إذ ذلك - كانت أمراً عادياً .
 ولكن - صاحبنا - لم ير هذه الصورة من قبل .
 وسار تفكيره على النسق التالي :
 ما هذا (الكائن) قد (خلق لحيته) على هذه الصورة حتى لكأنه قد
 «سفرها» إلى أن أصبحت وكأنها لم تكن .
 وما له قد كتف نفسه في ملابسه على هذه الصورة ، ثم ربط نفسه أيضاً
 بجزام في الوسط .
 وماله . . وماله . .
 ثم سأل مرافقه : ما هذا ؟
 فقال مرافقه : هذا (خواجة) .
 ولم تكن هذه الكلمة قد دخلت قاموسه اللغوي .
 فعاد يسأل : وما خواجة ؟
 فقال صاحبه : (يعني كافر) . .
 وكان هذا مبلغ علم مرافقه :
 فإذا بالرجل يرتجف قليلاً ويضطرب .
 ويسأل في اهتمام وقلق : (أهو كافر بالله ؟)
 فقال رفيقه : (نعم كافر بالله) .
 فإذا بالرجل الصالح يمتلئ جسمه وشعوره (بالاشمزاز) من هذا الكافر ،
 فإذا بهذا (الاشمزاز) يزداد شيئاً فشيئاً .
 وفي سرعة سريعة ، وصل الاشمزاز إلى غايته . (نضائياً) .
 وكما يحدث الاشمزاز من (القاذورات المادية) فإنه يحدث من

(القاذورات المعنوية مثل الكفر بالله) .

والكافر بالله - فيما رأى صاحبنا - إنما هو مجموعة من (القاذورات المعنوية) .

لا تستحق إلا الاشتزاز إلى درجة التقيؤ .

أما منطقته في هذا الاشتزاز فهو أن المنكر للجميل تشمتر منه النفس .
ويزداد هذا الاشتزاز ويعظم كلما كان الجميل كبيراً .
وكان المنكر متبجحاً .

وإننا إذا نظرنا إلى ما بنا من نعمة فإننا نجدها من الله .

﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ .

وإذا نظرنا إلى كمية هذه النعم نجد أنها لا تحصى .

﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ .

فن أنكر هذه النعم وهي محيطة به . .

ووصل به إنكاره للجميل إلى درجة الكفر .

فإنه يكون قد بلغ في إنكار الجميل منتهاه .

فيبلغ الاشتزاز منه منتهاه « التقيؤ » .

وما كان صاحبنا يفكر في منطق لشعوره . وإذا كنا نحن نلتمس المنطق لهذا

الشعور ، فإن هذه الظاهرة إنما تعبر أبلغ تعبير عن (صدق الإيمان) ، (وصفاء

القطرة) .

لقد فوجئت حقاً بهذه الدرجة من صدق الإيمان .

وأخذت أربطها بما سبق أن قرأت من أفكار تتناسق معها .

أفكار أثرت في نفسي كثيراً حيناً قرأتها . .

إنها أفكار طائفة من (أعلام الفكر) لم يستمدها (الإلف الذهني) ، ولا (العادات الفكرية) فيما يتعلق بمسألة الإلحاد والكفر) .
 إن خطأ (الإلف والعادة) في هذا الموضوع هو أن يذكر المؤمنون الأدلة على وجود الله التي ترجع إلى دلالة الأثر على المؤثر ، وهي دلالة قوية .
 فيحاول (الملحدون) متسفين الرد عليها .
 كلا أيها المؤمنون : إن المسألة (أقدس) من أن توضع هذا الوضع ، (وأوضح) من أن تحتاج إلى (برهان) .
 يقول الإمام العالم الحجة ابن عطاء الله رضي الله عنه .
 وإذا كان (الكائن) من الكائنات من هو غنى بوضوحه عن إقامة دليل (فالمكون) أولى بغناه عن الدليل منها .
 ويقول :

« إلهي ، كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفترق إليك ؟
 أيكون لغيبك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك ؟
 متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ؟
 ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك ؟
 كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو الذي أظهر كل شيء ؟
 كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو الظاهر قبل وجود كل شيء ؟
 كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو أظهر من كل شيء ؟
 كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو أقرب إليك من كل شيء ؟
 كيف يتصور أن يحجبه شيء ، ولولاه ما كان وجود شيء ؟
 شتان بين من يستدل به أو يستدل عليه .

المستدل به عرف الحق (لأصله) . فأثبت الأمر من (وجود أصله) .
(والاستدلال عليه) من (عدم الوصول إليه) .

وإلا (فحق غاب) حتى يستدل عليه ؟

(ومتى بعد) حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه ؟

ويقول الإمام أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه :

ومن أعجب العجب أن تكون الكائنات موصلة إليه .

فليت شعري هل لها وجود معه حتى توصل إليه ؟

أو هل لها من الوضوح ما ليس له حتى تكون هي المظهرة له ؟

ويقول :

« كيف يعرف (بالمعارف) من به (عرفت المعارف) ؟

أم كيف يعرف بشيء من سبق وجوده وجود كل شيء ؟

ويقول أيضاً :

« إنا لنتنظر إلى الله ببصائر الإيمان .

فأغناها ذلك عن الدليل والبرهان » .

ويقول رضي الله عنه :

« وأرياب الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان .

لأن أهل الشهود والعيان قلمسوا الحق في ظهوره أن يحتاج إلى دليل يدل

عليه . وكيف (يحتاج إلى الدليل) من (نصب الدليل) ؟ .

وكيف يكون (معروفاً به) وهو (المعروف له) ؟

إن (محاولة) الاستدلال على وجود الله (محاولة خاطئة) .

والسير على النحو الموجود الآن من الجدل في هذا الموضوع (سير منحرف
عن الطريق الصواب) .

كيف نشأ هذا الخطأ ؟

ومتى بدأ هذا الانحراف في الجو الإسلامي ؟

• • •

بدأ رسول الله ﷺ يبشر بالتوحيد ، ويدعو إلى إسلام الوجه لله ، سبحانه
في كل ما أتى به رسوله ﷺ :

بل لقد حارب ﷺ من أجل التوحيد :

« أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم
منى ماله ونفسه إلا بحدته وحسابه على الله » .

ومضت السنون والأيام . . . ورسول الله ﷺ ماضٍ في رسالته « لا إله إلا
الله » (ولا يجيد عن ذلك) و(لا يتنازل) .

وكان خصومه يقولون في سذاجة وبلاهة :

« أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب » .

ولكنه ﷺ لم يتحدث - مستدلاً أو مبرهنًا - عن إثبات وجود الله .

ولم يسأله أحد من الصحابة سواء أكان من أصل عربي ، أم من أصل غير

عربي عن إثبات وجود الله . . .

مضى على ذلك (العهد المكي) ، ومضى على ذلك (العهد المدني) برغم

ما كان يذخر به من رجال من مختلف البيئات .

أما (القرآن) فإنه استفاض في (إثبات التوحيد) استفاضة كثيرة . وكان

(إثبات التوحيد) هدفاً من الأهداف الكبرى للقرآن .

كان يوجه الإنسان إلى (التوحيد في العقيدة) و (التوحيد في العبادة) .
(التوحيد في الاستعانة) .

ولكنه لم يحمل (إثبات الإلهية) هدفاً من أهدافه . .
وإنني لأعلم أننا (ألفنا) أن نقول : إن القرآن يثبت وجود الله عن (طريق
دليل العناية) ، أو عن (طريق دليل الخلق) ، أو عن (طريق دليل الأثر
والمؤثر) .

ونذكر على ذلك الاستشهاد من القرآن الكريم :
وفي القرآن من الآيات التي تتحدث عن العناية والتي تتحدث عن الخلق
الشيء الكثير .

ولكن القرآن الكريم - وهذا (ما يعزب) عن بعض الأذهان - لم يأت
بذلك (مستدلاً ولا مبرهنات) .

وإنما أتى بها (متحدثاً عن نعم الله الكثيرة) التي يفيضها على الإنسان .
ومتحدثاً عن (قدرة الله وعظمته) وعن أنه منعم رحيم ودود ، وقاهر
غلاب (لا يقف أمام قدرته عقبة) و (لا يسد أبواب رحمته معترض) .
إن الآيات القرآنية من هذا النوع إنما تتحدث عن صفات الله في جلالها وفي
جلالها ، ولم تأت قط (مبرهنة على الإثبات) أو (رادة على منكر) .

وسار رسول الله ﷺ متناسقاً مع الجو القرآني .
وارتفع القرآن بالعقيدة الإلهية (إلى جو القداسة النقي) .

ولقد كان رسول الله ﷺ حريصاً الحرص كله ، على أن (يستقيم
المسلمون على القرآن كما أنزل) .

وأن تكون المبادئ القرآنية وحدها هي التي يصدر عنها المسلمون في

عقائدهم وسلوكهم .

وفي (عهد أبي بكر رضي الله عنه) سار المسلمون على ما كانوا عليه في عهد الرسول (مرتفعين بعقيدة الإلهية) إلى المكان الأقدس فلا يمارون في وجود الله . ولا يضعون وجوده سبحانه في مجال الإثبات والإنكار والأخذ والرد . . . وكذلك سار الأمر في (عهد عمر رضي الله عنه) ومن بعده حتى وصل الزمن إلى عهد المأمون وهو العهد الذهبي للأمة الإسلامية .

وقل في المأمون مدحاً ما شئت .

ولكن المأمون له من غير ماشك سيئتان من كبريات السيئات : الأولى منها : أنه دخل في الحلاف الذي كان بين علماء المسلمين - الحلاف الكلامي - دخول المتكل بطائفة المتصر للأخرى .

ودخل بقوة الجيش والشرطة والمال .

لقد دخل دخول رغبة ورهبة .

وما كان له أن يفعل ذلك وهو الحاكم والراعي .

ودخول الحاكم بين طوائف رعيته إنما يكون دخول الأب بين أبنائه ، مهدتاً ، مصلحاً موقفاً .

أو دخول الأخ الأكبر بين إخوته .

لم يفعل المأمون ذلك وإنما ، نكل بطائفة لحساب أخرى . ونكل فيمن نكل بالإمام أحمد بن حنبل الذي وقف موقفاً كريماً على نفسه وعلى الأمة . وقف كالجبال الراسية لا يرضى بما يراه الحق بديلاً .

لم يتملق ولم يدهن وإنما أعلن رأيه في صراحة وفي وضوح .

ونكل به المأمون ، وتحمل الإمام في سبيل عقيدته ما يتحمل المخلصون .

أما السيرة الثانية من سيات المأمون : فهي أمره بترجمه كتب العقائد والأخلاق اليونانية .
ولقد كان المسلمون يترجمون الكتب قبل المأمون .
كانوا يترجمون كتب الطبيعة والفلك والأحياء وغيرها من العلوم في مجال الكون المادى .
ولكنهم كانوا يرون أنه إذا كانت عقائد الأمم الأخرى صحيحة . . فعندنا ما هو أصح منها بالأسلوب الإلهى .
وإذا كانت باطلة فنحن في غنى عن الباطل .
إن العقيدة الإسلامية مصدرها القرآن .
والقرآن كلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .
فكيف يتألى لقوم أن يتركوا هذا ليقروا العقيدة في كتب بشر نخطئ وتصيب ا .
وكان موقف المسلمين إذ ذاك بالنسبة للأخلاق والتشريع هو موقفهم بالنسبة للعقيدة .
وضرب المأمون بذلك عرض الحائط .
ودخلت هذه الترجات في العقائد والأخلاق إلى الجو الإسلامى على استحياء .
ولكنها بالإلف والتكرار والعادة أخذت وضعها قراءة ودرساً ومناقشة وجدلاً .
وكان فيها مسألة إثبات وجود الله التى نشأت في الجو الوثنى اليونانى .

ونشأت لظروف خاصة بهذا الجور اليونانى الذى تعارض فيه الدين الوثنى مع منطق العقل العبرى .

وكانت النتيجة أن التزم عباقرة اليونان العقل فى العقائد والأخلاق .
وأخضعوا - كل مسألة عقديّة أو أخلاقيّة - للعقل .
ولما فعلوا ذلك اختلفوا اختلافاً بيناً . . .

وأصبحت كل مسألة صغيرة أو كبيرة موضع اختلاف بين هؤلاء العباقرة .
لا يصلون فيها إلى رأى واحد .
ولا يصلون بالتالى إلى اتفاق .

وكل من قرأ التاريخ الفلسفى يعرف أن كل من يسير فى مسائل العقائد والأخلاق على المنهج اليونانى يصل إلى نفس النتيجة ، الاختلاف . والتعارض فى الرأى . وعدم الوصول إلى نتيجة يقينية .

وإذا نظرت إلى كثير من أضاليل الفكر : فستجد مصدره المنهج اليونانى .
إن الأدب المكشوف نبت جنوره فى اليونان .

وإن المسرح الفاجر الذى أسس على الأدب المكشوف نبت جنوره فى اليونان .

وإن التماثيل العارية - سافرة فاضحة - إنما مردها إلى اليونان .

وكل ذلك يرجع إلى بدعة فكرية يونانية هى « الفن للفن والأدب للأدب » .

وبدعة أخرى مردها إلى اليونان أيضاً هى « العلم للعلم » .

وما كان كل ذلك فى الحضارات الأخرى .

لقد كان الأدب والفن ، والعلم فى الحضارات الأخرى يسير فى خدمة

الفضيلة . . والإنسانية . . والسمو الروحي .

فلما نشأت الحضارة اليونانية نزلت بالقيم والمعايير إلى المستوى البشرى في نقصه وتخبطه ، ولم تحاول قط السمو الإنساني إلى الآفاق العليا التي أحياها الله وأنزلها على لسان رسله .

ونزلت الحضارة اليونانية بالعقائد أيضاً إلى المستوى البشرى في نقصه وتخبطه .

وجعلت من مسألة وجود الله مسألة قابلة للأخذ والرد والإنكار والإثبات . وترجمت هذه الفلسفة بأمر المأمون .

وأخذ الناس شيئاً فشيئاً يألفون البدعة ، بدعة الجدل البشرى بما فيه من نقص وتخبط . لم يتفق عباقرة اليونان على رأى ، ولم يستقروا على أمر في عالم الفكر .

وإذا جمعت آراءهم بأكملها لم تجدها إلا مجموعة من المتناقضات المتعارضة المضطربة التي لا يتميز فيها الحق من الباطل . ولا سبيل « عقلياً » تمييز حقا من باطلها .

لأن المقياس العقل للتمييز بين الحق والباطل في عالم العقليات لم يوجد ولن يوجد : ولم يخترعه أرسطو ، ولم يبتدعه ديكارت .

إنك حيناً تكون بصدد التراث اليونانى الفكرى تكون بصدد ركام مركوم لاتعرف « عقلياً » أو « منطقياً » حقه من باطله .

أمر المأمون بترجمة هذا التراث ودرامته والعناية به ، ولا كنه الألسن وسمعت الآذان ، و« تداولته الأيدي » ، و« عكفت عليه الأذهان » و« تبته بعض العقول » فأخذت مسألة إثبات الإلهية تبدو شيئاً فشيئاً وكأنها طبيعية .

والملاحظة في كل عصر يسرهم أن تأخذ مسألة إثبات الإلهية هذا الوضع .
ومادام (الإثبات) مشروعاً فإن (الرد) مشروع .
إنه يسرهم أن ينزل المؤرخون بهذه المسألة عن جو القداسة ليتزلوا بها هم إلى
جو الإنكار ، وكان لهم ما أرادوا ، وأصبحت المسألة مجالاً للجدل .
... وبما من شك في أن لكل أمة مقدسات .
وإن من أقدس مقدسات الأمة الإسلامية عقيدتها .
فلنرجع بها إلى جو الفطرة الطاهرة والشعور الصافي والبداية الواضحة .
وإذا « شذ » عن ذلك « شاذ » . . فليكن في « القانون » ما يمكن
« القضاء » من « ردعه » ؟
﴿ ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم ﴾ .

القسم الثاني

في علم الكلام

الفصل الأول

الفلسفة وعلم الكلام

« اتبعوا ولا تبتدعوا : فقد كفيتم » .

وقد اتبع سلفنا الصالح هذه النصيحة النبوية المعللة : فلم يحاولوا قط الابتداع . وما يتأتى قط ، أن ينشأ الابتداع في الأوساط الدينية السليمة ، الأوساط التي تكوّن لديها الشعور الديني الحى بالأسوة الحسنة ، والفهم الواعى للروح الدينية الخالصة .

وقد تهيأ لسلفنا الصالح التأمى بالرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، وتبيأت لهم تلاوة القرآن ، في تدبر وفهم ، ففصلوا ، في صورة حاسمة ، بين ما يتأتى للإنسان أن يسير فيه على ضوء التجربة ، وأن يتدع فيه ويخترع ، وينسق ويؤلف . وهو الأمور التي تتصل بالمادة والحس ، وتتصل بعالم الطبيعة : أرضه ، وسمائه : وما بين أرضه وسمائه . وبين ما لا يتأتى للإنسان أن يصل إلى معرفته إلا ظناً ، أو وهماً ، وهو عالم ما وراء الطبيعة ، وعالم الخير والشر . وهذان العالمان - عالم ما وراء الطبيعة وعالم الأخلاق - كانا باستمرار موضوع جدل . ومثار نقاش بين الذين يريدون أن يصلوا إلى حقائقها عن طريق العقل المجرد الذي لا يستند إلى دين .

وانقسم العقليون ، منذ أن دار البحث في هذه المسائل عقلياً ، إلى فريقين :

فريق يثبت ما وراء الطبيعة والأخلاق ، وفريق ينكرهما .
وانقسم المثبتون إلى طوائف لا تكاد تحصر . وكل طائفة تنتسب إلى زعيم
ترى أنه العبقري على الإطلاق ، الموفق في كل ما يأتي وما يدع ، المصدق في
كل ما يشير به أو يعلل له .

وكان من الطبيعي - والأمر كذلك - أن تعلن كل طائفة ، الحرب على
الطائفة الأخرى ، مكذبة لها مستجهلة لها ، رامية زعيمها بالغباء والجهل .
(أ) ومن البديهي أن السبب في هذا النزاع : هو أن كل زعيم يختلف عن
الأخر في الصورة التي يرسمها بعقله ، لعالم ما وراء الطبيعة ، ولأسس الأخلاق
ومبادئها .

(ب) ومن البديهي أن سبب هذا الاختلاف فيا وراء الطبيعة والأخلاق
إنما هو اختلاف العقول في فطرتها وجبلتها ، واختلافها بسبب الفطرة الموروثة ،
وسبب البيئة الطبيعية ، والبيئة المتزلية ، واختلافها بحسب الثقافة : كمها
وكيفها ، واختلافها بحسب مؤثرات وظروف وملابسات لا تكاد تدخل تحت
حصر .

إن نوع الطعام ودرجة الحرارة - ودرجة نقاء الهواء ، ودرجة ارتفاع المكان
الذي يعيش فيه الإنسان ، وقربه أو بعده عن شاطئ البحر والوظيفة ،
والعمل ، والأصدقاء . . إن كل ذلك له تأثير على تفكير الإنسان ارتفاعاً
وإنخفاضاً وعمقاً وضحالة ومن الطبيعي والأمر كذلك ، أننا لو ربطنا المعرفة
الخاصة بعالم ما وراء الطبيعة وعالم الأخلاق بالعقل - وشأنه كما بينا - لربطناهما
بأساس يتأرجح ويتذبذب ولا يستقر على قرار .

(ج) وقد حاولت الإنسانية - منذ أن بدأت تفكر عقلياً في الإلهيات

والأخلاق ، أن تحتزع مقاييس ، وموازن - عقلية - تقيس بها الصحة والخطأ في هذين العالمين ، فكانت النتيجة إخفاقاً متتابعاً .

لقد أخفق منطق أرسطو - منطق القياس - في معرفة حقائق الإلهيات والأخلاق . وكانت أخطاء أرسطو في هذين الميدانين : لا تخص ، ولكنها ، ولعنف الهجوم عليها : يش تلاميذ أرسطو ، وهم أيضاً فلاسفة ، من إصلاحها ، وانهمزوا في ميدان الدفاع عنها .

وأخفق منطق فرنسيس بيكون - منطق الاستقراء - في الكشف عن عالم الغيب وعالم الخير والشر . وما كان يتأق له : أن يكشف عنها ، وهو منطق الكشف عن القوانين المادية ، وتبين الحقائق في عالم الحس : عالم الكون والفساد ، ولم يتناول قط إلى كشف الحقائق في عالم البقاء والخلود .

وأخفق منهج ديكارت ، ولم يرض عنه كثير من معاصريه من الفلاسفة ، ولم يرض عنه كثير ممن أتى بعده منهم ، وماجموه في حياته وبعد مماته . وبقيت حقائق ما وراء الطبيعة والأخلاق ، بعد ديكارت ، كما كانت قبله ، موضوعاً للجدل العقلي الذي لا ينهى .

والملاحظ - على كل حال منذ أن بدأ التفكير العقلي في الإلهيات والأخلاق - : أن السنوات تتوالى ، وعشرات السنوات ، وعشرات القرون ، ولم تنته الإنسانية « عقلياً » إلى حل هذه المسائل .

إنها لم تنته إلى حلها « عقلياً » في الغرب ، ولم تنته إلى حلها « عقلياً » في « الشرق » ، ولم توفق إلى حلها فوق قم الجبال ، ولم تصل إلى حلها على شواطئ البحار .

(د) إن المعنى الذي نستتجه من ذلك كله - وهو استنتاج يقرب من أن

يكون بديهيًا - : أن حل مشاكل ما وراء الطبيعة والأخلاق ، عن طريق العقل : مستحيل .

وأن وضعها إذن موضع البحث العقلي : خطأ .
وأنه يجب أن تعيد الإنسانية النظر في اختصاصات القوى ، والملكات البشرية .

وإذا أعادت الإنسانية النظر في اختصاصات القوى والملكات البشرية : فإنها ستجد لا محالة - أن الوضع القديم - الوضع الذي كان قبل نشأة هذا اللون من البحث العقل عند الإغريق ، هو الحكمة بعينها .

وهذا الوضع القديم : هو الذي أعاده الإسلام ، واتبعه المسلمون ، في القرن الأول الإسلامي ، واستمر منذ بدأ الإسلام إلى نشأة المعتزلة .
أما هذا الوضع فهو أن لكل قوة من القوى الإنسانية اختصاصاً معيناً لا يتأتى أن تتعداه ، فقوة الحس ميدانها الطبيعة ، بل الظاهر الحس من الطبيعة .

إن ميدانها : الألوان ، والأصوات ، والروائح ، والطعوم .
إن ميدانها : الإحساس الجسماني في الجسم البشري وفي خارجه .
وهو ميدانها في الحدود التي رسمها الله تعالى لها .
وميدان العقل ودائرته ، إنما هو الفهم الواعي لما يلاحظ ويشاهد ويحس ، ثم الاستنتاج ، والاستنباط مما يلاحظ ويشاهد ويحس .
فإذا كان الأمر أمر غيب ومسائر ، فليس للعقل في ذلك رأى ولا اختراع ولا ابتداع ، وكل ضرب من ذلك يقوم به العقل ، إنما هو خبط عشواء . وسير في متاهات ، وسياحة في صحراء - دون مرشد - لا علامات فيها ، ولا أدلة .

ومن هنا كان هذا التاج الفلسفي الضخم - في ما وراء الطبيعة والأخلاق - يشويه الوهم في الكثير من أسسه .
وفي الكثير من نتائجه .
ولا يمكن الاهتداء عقلياً ، إلى ما فيه من الصواب الثابت ، أو الخطأ والانحراف .

ولكن الإنسان ، ليس حساً وعقلاً وحسب ، بل ليس الإنسان إنساناً بحسه وعقله . فقد يتزل به حسه وعقله إلى المستوى الحيواني البحت ، فيعيش عيشة السائمة ، بل قد يتزل به حسه إلى مستوى أقل من المستوى الحيواني ، ويصير من هذه الطائفة التي ينطبق عليها قول الله تعالى :

﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْإِنْسَانِ الَّذِي بَدَأْنَا مِنْ حُسْنِ مَآئِدِهِمْ أَلَمْ يَذُكِّرْهُمْ أَنْ قُلْنَا إِنَّا لَمُتَّلِكُكُمْ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّ لِلْإِنْسَانِ أَجْلاً لِيَوْمَ يُرْجَعُ إِلَىٰ رَبِّهِ لَمَّا هُوَ فِي سَبِيلِ الْوَعْدِ لَهُمْ فِيهَا آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

والإنسان إذن إنسان بروحه الشفافة ، ونفسه الزكية ، وبصيرته المضيفة ، إنه ذلك الذي تركى ، إنه الذي صفت روحه صفاء يقربه من الملائكة . وإذا ما صفت الروح ، وتزكت النفس زال عن البصيرة ما تراكم عليها من صدأ كان يحجبها باستمرار عن أداء وظيفتها ، وإذا ما تزكت النفس ، أصبحت محلاً للإلهام وللمعرفة المستتيرة في عالم ما وراء الطبيعة . وعالم الخير والشر .

وفهم الحكماء القدماء - قبل العصر اليوناني - ذلك فلم يستعملوا قط الجدل أو القياس ، أو الابتداع العقلي ، والاختراع المنطقي وإنما استعملوا - من أجل معرفة الإلهيات - التنسك والعبادة والذكر ، واستخلاص النفس لله ، أو - بالتعبير القرآني - التزكية . كانت تزكية النفس إذن : وسيلتهم إلى المعرفة وكلما زادت تزكية النفس ، أصبح الشعور بعالم ما وراء الطبيعة ، وأصبح التمييز بين

الخير والشر : ميسوراً واضحاً .

(هـ) وسبيل تركية النفس هذا من أجل للمعرفة : سبيل فهمه الكثير من
الألمعين في العصر اليوناني ، وما لا شك فيه ، أن بقوره الأولى جاءتهم من
الشرق .

لقد كانت فرقة الأورفية في العصر اليوناني الأول تمثل هذا الاتجاه تمثيلاً
واضحاً .

وكانت الفيثاغورية من بعدها تسير في هذا الطريق ، وتؤمن أنه الوسيلة
الصحيحة للوصول إلى عالم الغيب : لقد كان الجانب التنسكي ، وكانت
العبادة وكان الذكر ، كان كل ذلك وغيره مما يتصل بوسائل استخلاص النفس
فه شيئاً عادياً في الفيثاغورية .

لقد كانت الفيثاغورية تصفية نفس وتطهيراً أخلاقياً ، كانت ابتعاداً عن
الرجس ، وانغماساً في عالم الخير ، وكانت بعبارة مختصرة ، تطهيراً للباطن
والظاهر .

وجاءت الأفلاطونية :

وكان أفلاطون يصطق من تلاميذه ، ذوى النفوس الشفافة ، والشعور
المرهف ، وهم قلة قليلة ، فيسلك بهم سبيل التنسك ، سبيل التزكية .
وعلى أثر ذلك جاءت الأفلاطونية الحديثة التي تنسب إلى أفلاطون
المصرى . والتي بلغت بطريق التنسك والتزكية شأواً بعيداً .

ولكن الجانب الحيواني في الإنسان كان يجره باستمرار إلى الإخلاق إلى
الأرض ، واتباع الهوى ، ولم يكن طريق التطهر والتزكية من السهولة بحيث
يلجأ كل طارق .

إن الارتفاع بالنفس سبيل شاق . ومن أجل ذلك عدل الشطر الأكبر من اليونان عن طريق التزكية - إلى طريق الجدل العقلي ، فكانت الفلسفة العقلية اليونانية ، وكان الانحراف عن الطريق السليم .
والذي تولى كبر ذلك ، ودعم أركانه ، وبلغ به القمة ، إنما هو أرسطو .
ومما لا مبالاة فيه ، أن الانحراف في البحث عما وراء الطبيعة يدين بالكثير أو بالأكثر إلى أرسطو .

وأخفق أرسطو فيما وصل إليه من نتائج عما وراء الطبيعة .
وأخفق الذين تابعوه .

وأخفق الذين أتوا من بعدهم .

وترى الإنسانية هذا الإخفاق المتتابع ، ولكن المحاولات ، لمعرفة الغيب عن طريق العقل ، لم تنته بعد .

ومع ذلك فقد كان عند الكثير من مفكري اليونان حدس صادق بالوضع الصحيح في مثل هذه الأمور ، لقد كانوا يؤمنون بأن الفكرة الصحيحة عن معالم الغيب ، وعن الأخلاق إنما تأتي عن طريق رسول يتلقى عن الله الوحي ليبلغه إلى بني البشر . والقصة التالية توضح هذا الشعور لديهم .

فقد اجتمع - كما يقص أفلاطون - سقراط وإثنان من الفيثاغوريين هما سمباس ، وقابس ، وأخذوا يتحدثون عن خلود النفس ، والاستدلال - عقلياً - على بقائها ، فلا يكاد يستقيم لهم الدليل في وضوح وثبات ، ثم « يسكت سقراط ويسكت الجميع » .

وبعد هنية يقول سمباس : « إن العلم بحقيقة هذه الأمور ممتنع أو عسير جداً في هذه الحياة ، ولكن من الجبن - اليأس من البحث قبل الوصول إلى آخر

مدى العقل . فيجب إما الاستيقاق من الحق ، وإما - إن امتنع ذلك -
استكشاف الدليل الأقوى ، والتلوع به في اجتياز الحياة ، كما يحاطر المرء بقطع
البحر على لوح من خشب ، مادام لا سبيل لنا إلى مركب أمتن ، أعنى إلى وحى
إلهي .

للمركب الأمتن الأمن إذن ، إنما هو الوحى الإلهي ، أما العقل فمثل من
يتلوع به كمثل من يحاطر بقطع البحر على لوح من خشب .
لقد حاول اليونانيون إذن البحث العقل ، لاجتياز خضم ما وراء الطبيعة ،
لأنه لم يكن لديهم وحى يرجعون إليه في الهداية والإرشاد ، ولو كان لديهم هذا
الوحى لما اختاروا العقل به بدلاً ولما كانت الفلسفة اليونانية العقلية ، ولقى
توزيع اختصاصات القوى الإنسانية والملكات البشرية على استقامته الأولى .
الحس لعالم الطبيعة :

والعقل للاستتاج مما يأتي به الحس .

أما الروح والبصيرة فإنها لعالم الغيب ، وعالم الخير .

ولقد تأثر علم الكلام الإسلامي بالتيار العقل اليوناني في نهجه العقلي ، وفي
اتجاهه الاختراعى الاجتاعى ، وكان علم الكلام بذلك فلسفة يرتطم بكل
ما يعترض الفلسفة من عقبات وأضاع - بمقدار قره من الفلسفة - ما كان ينبغي
له من قداسة ، وكان بايصاده عن النهج القرآنى السليم القطرى شيئاً لكثير من
المشاكل التي تفرق المسلمين وتجعلهم فرقاً وأشياء متافرين متخاصمين :
ومع ذلك فإن العودة إلى النهج السليم ميسورة - وعلى قادة المسلمين فكراً
ودينياً أن يساهموا في إيصاله .

الفضل الثاني علم الكلام الراهن

١

تمهيد (١)

كانت الدعوة الإسلامية - منذ نشأتها - دعوة إلى التوحيد ، وقد عمل الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، جاهداً في أن يوطد أركان هذه العقيدة في نفوس الذين أتبعوه ، ولم يفعل ذلك عن أمره ، وإنما فعله مُتغلباً للوحي المعصوم ، ولآيات القرآنية الكريمة ، ذلك أن القرآن في جميع أجزائه قد جعل هذه العقيدة ، أولى العقائد الجوهريّة : **ولا إله إلا الله** ؛ إنها كلمة التوحيد ، وهي كلمة الإخلاص ، وهي أول ما يتعلق به الشخص حينما يعتنق الإسلام . وتوحيد الله هو جوهر وحدة الدين :

﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين

(١) لقد ابتد علم الكلام - على مر الزمن - عن القرآن ، مقترناً من الفلسفة ، حتى إنه ليوشك أن يصير فلسفة عقلية بحتة ، وزيد أن نوسم صورة موجزة كل الإيجاز ، صورة ميكانيكية بالغة الانحصار ، لا ينبغي أن يكون عليه علم التوحيد ، وذلك يقتضى أمرين : للدم والبناء ، لذلك مستحدث أولاً عما يجب أن يزول عن مباحث علم الكلام ، ثم تصدحت عما يجب أن يتجه إليه .

ما تدعوهم إليه الله يحنى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب ﴿٢﴾ .
 ولقد كان الهدف الأول لجميع الرسل السابقين هو : التوحيد .
 والقرآن صريح في هذا المعنى وفي تأكيده ، وفي إظهاره :
 ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين ألا تعبدوا إلا الله . . . ﴾
 ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله
 غيره ﴾ .
 ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله
 غيره ﴾ .
 ويبين القرآن أن هذه العقيدة عامة مطلقة ، إنها العقيدة الأولى التي أكدها
 جميع الرسل :
 ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا
 فاعبدون ﴾ (٣) .
 وحينما يقول الله ، سبحانه وتعالى :
 ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول
 عليكم شهيداً ﴾ (٤) .
 فإنه آثر أن يقول : « أمة » بالإنفراد لا أئمة ، ولا يعنى شيئاً آخر غير الأمة
 الإسلامية الواحدة الموحدة .
 والتوحيد إذن سار في جميع أجزاء الرسالة الإسلامية ، ولا شك أن وحدة

(٢) الشورى : ١٣

(٣) الأنبياء : ٢٥

(٤) البقرة : ١٤٣

العقيدة ووحدة الأخلاق : من أهم العوامل التي تتجه بالمؤمنين إلى الوحدة
الشاملة :

« المؤمن أخو المؤمن »

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً »

« مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد »

« أحب لأخيك ما تحب لنفسك . . . »

والإنسان لا يحتاج إلى تعمق كبير ، ليرى أن الدين الإسلامي إنما هو دين
التوحيد ودين الوحدة ، وأن التزاع ، والاختلاف ، والتفرق والشذوذ : ليس
لها في دين الله من مكان .

ومع ذلك فقد تفرق المسلمون .

ولسنا الآن بصدد البحث عن أسباب تفرق المسلمين واختلافهم - في شيء
من التفصيل - ولكننا بصدد البحث عن وحدة العقيدة وعن الأسباب التاريخية
القديمة التي أحدثت - ولا تزال - تهدم في الأساس المتين الذي أقامه وعمل على
تعميقه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

وإذا ما تبينا هذه الأسباب تبينا في الوقت نفسه طريقة تلافى الاختلاف في
العقيدة وربما تبينا ، من ذلك بعض أسباب تفرق المسلمين ، وبعض العلاج
لإزالة هذا التفرق ، فما لا شك فيه أن الاختلاف في العقيدة من دواعي التفرق
في الأمم ، بل في الأمة الواحدة . وأن الاتفاق في العقيدة من دواعي الوحدة .
وقد أتى على هذا الاختلاف في العقيدة أمد من الدهر طويل فتمكن من
النفوس ، ولا مناص إذن من أن نستفيض في شرح الداء حتى يمكن العلاج في
شيء من التوفيق إن شاء الله ، تعالى .

يد أننا سوف لا تقتصر على ذلك ، فإن الاقتصار على ذلك نصف المرحلة ، ولو اقتصرنا عليه لكنا مقصرين - ونريد إذن - والله المستعان - أن نحاول في المرحلة الثانية ، بيان طريقة السلف الصالح في الاعتقاد وفي الاستدلال عليه ، وأن نضرب أمثلة لبعض مظاهر إيمانهم القوي الذي غير وجه العالم ونشر كلمة الله .

وما لا شك فيه : أن الاختلاف في العقائد ، وتفرق الأمة الواحدة إلى فرق متعددة : آثار سيئة ونتائج وخيمة .

ولا ريب أن المسلمين ، على بكرة أبيهم : يودون أن تعود الوحدة في العقيدة إلى ما كانت عليه في الصدر الأول ، وإنهم ليتلمسون الوسائل لإحياء الشعور الديني الذي يأبى التفرق والتنازع في مجالات الإيمان .

وقد ترك الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - وصاحبه : أبو بكر وعمر ، رضی الله عنهما - الأمة الإسلامية ، وكان يتمثل فيها خير تمثيل : الآية القرآنية الكريمة :

﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾^(٥)

والآية الكريمة :

﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾^(٦)

يبد أن الأمة الإسلامية تفرقت بعد وحدة ، وتنازعت بعد اتفاق . نعود فتساءل : ما العوامل التي أدت إلى الاختلاف في العقيدة ؟ وليس بعسير تبين هذه العوامل وتوضيحها ، فإن القرآن الكريم والسنة

(٥) الأنبياء : ٩٢

(٦) المؤمنون : ٥٢

الشريفة قد بينا ذلك في وضوح ، وفي أسلوب لا لبس فيه ، وبيننا أيضاً العلاج الذي ينجع ، وقد وضع سلفنا الصالح نهج الكتاب والسنة في أمر العقائد . والأساس الأول في القرآن هو التمييز الحاسم الذي ميز به القرآن بين ميدانين أطلق لنا الحرية في أن نبحث في أحدهما ما شاء الله لنا أن نبحث ، مؤيدين أو شارحين أو متفهمين : وذلك هو ميدان الآيات المحكمات . أما الآخر الذي ليس لنا أن نبحث فيه فإنه المشابه ، يقول الله تعالى :

﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾^(٧) .

أما الأحاديث الشريفة التي ترسم للمؤمنين الطريق الذي يجب أن يتبعوه احتفاظاً بالوحدة ، واتباعاً للنهج الصحيح ، وابتغاء للطمأنينة القلبية : فإنها كثيرة . وسنذكر منها الكثير في أثناء هذا البحث إن شاء الله تعالى . أما الآن فنسكني بثلاثة :

قال ، صلوات الله وسلامه عليه : « اتبعوا ولا تبتدعوا : فإنما هلك من قبلكم بما ابتدعوا في دينهم ، وقالوا بأرائهم ، وخالفوا سنن أنبيائهم ، فضلوا وأضلوا » .

وقال صلوات الله وسلامه عليه ، في إحكام دقيق ، وفي إيجاز محكم .
« اتبعوا ، ولا تبتدعوا : فقد كفيتم » .

وعن علي ، رضي الله عنه ، قال سمعت رسول الله ، ﷺ ، يقول :

(٧) آل عمران : ٧

« أتاني جبريل ، عليه السلام . فقال : يا محمد ، إن أمتك مختلفة بعدك .
قال : فقلت : فأين المخرج ؟ فقال : كتاب الله .
رسمت الآية القرآنية الكريمة . ورسمت الأحاديث النبوية الشريفة طريق
الوحدة في العقيدة والاطمئنان إجمالاً وعموماً وسيلاً الآن أن نبين . المراد
بالمحكم والمتشابه ، ونبين طريق الاتباع وطريق الابتداع . ونشرح كيفية الترام
بكتاب الله حتى نخرج من الاختلاف لننصوي تحت راية الاعتصام بكتاب الله ،
في وحدة متناسقة . وبالله التوفيق :

٢

مشكلة القدر

« اتبعوا ولا تبندعوا فقد كفيتم » .
هذا الحديث الشريف يلخص المنهج الذي نحب أن يسير عليه العالم
الإسلامي في أمر العقيدة .
نحب أن يسير عليه رأياً وفكرة . ونحب أن يسير عليه - من قبل ذلك -
استعداداً وتأهلاً .
وهذا الاستعداد والتأهل يتأتى على الخصوص بوساطة دور التعليم في جميع
مراحله وبوساطة الصحافة والكتب التي تُنشر .
وهذا الحديث الشريف يسانده في معناه ما لا يكاد يحصى من الآيات
القرآنية والأحاديث النبوية . والآثار التي وردت عن كبار الصحابة وكبار
التابعين ، يقول الله تعالى :

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ .

لقد كمل الدين ، فكفانا الله كل ابتداع ، وإذا كان الدين كاملاً فما علينا إلا الاتباع ، أما طريقة الاتباع ، فقد حددها الله في الآية الكريمة التي سبق أن ذكرناها^(٨) والطريقة إذن أن نتبع الآيات المحكمات في فهم ووعي وتأيد ، وهي ليست مثار جدل ولا خصومة ، وليست مجال نزاع يحتدم ، أو أهواء تتور . وأن تومن بالمتشابه كما ورد ، وألا تتبعه متأولين .

فإن تبع للمتشابه : إنما ينشأ عن القلوب التي تلونت بالزيغ والانحراف ، وهي التي تتبعه ابتغاء الفتنة ، وتتبعه لتأويله وتأويله إنما يعلمه الله .
ولكن ما هو هذا المتشابه ؟

لقد اختلف فيه أئمتنا ، ولا نريد أن نتعرض لهذا الاختلاف . وإنما نريد أن نقول ، في اطمئنان وثقة :

إن المسائل التي نهى الرسول عليه الصلاة والسلام ، عن الخوض فيها ، والمسائل التي كان الاجتهاد العام في عهد الخلفاء الراشدين يتفر من الخوض فيها هي من المتشابه . فالمتشابه إذن : هو ما تنفر منه الروح العامة للدين الإسلامي في عهده الأول : عهد الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، ونخلفائه الراشدين وتخرج من الخوض فيه .

مثل ماذا ؟

(٨) وهو قوله تعالى : (هو الذي أتول عليك الكتاب من آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون أئمتنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب) .

أما أولى مسائل التشابه التي نريد أن نتحدث - بتوفيق الله - عن شيء من تاريخها فهي : مسألة القدر .

لقد شغلت مسألة القدر ، أو الجبر والاختيار ، أو أفعال العباد ، عقول الإنسانية منذ أن كان الدين . أي منذ ابتداء تاريخ الإنسان على ظهر الكرة الأرضية .

وإذا أثرت مسألة القدر في أي وسط كان ، مها كان قليل العدد ، فإنها تقسمه إلى قسمين : يقول أحدهما بالجبر ، والآخر يقول بالاختيار . لقد آثارها اليهود في دينهم ففرقت بينهم : وقال بعضهم بالجبر ، وقال الآخرون بالاختيار .

وأثرت في الديانة النصرانية على مجرى التاريخ فكان التراع والجدل وكان التحيز لرأى والتعصب له . وانقسم رجال المسيحية إلى فريقين مختصان . وأراد رسول الله ، صلوات الله ، سلامه عليه ، أن يتلافى انشقاق الأمة بسبب إثارة هذه المشكلة . فكان ينهى دائماً عن إثارتها وعن الجدل فيها . روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : « خرج رسول الله ، ﷺ ، على أصحابه ذات يوم ، وهم يتراجعون في القدر ، فخرج مغضباً حتى وقف عليهم ، فقال : يا قوم : بهذا ضلت الأمم قبلكم : باختلافهم على أنبيائهم ، وضرهم الكتاب بعضه ببعض ، وإن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض ، ولكن نزل القرآن فصدق بعضه بعضاً ، ما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه فآمنوا به . »

وعن أبي هريرة ، قال : خرج رسول الله ، ﷺ ، ونحن نتنازع في القدر ، فغضب حتى احمر وجهه ، ثم قال :

أبهذا أمرتم ؛ أم بهذا أرسلت إليكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر . عزمت عليكم ألا تنازعوا .
 واتخذ رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، موقفاً حاسماً جازماً بالنسبة لمنع الخلاف في هذه المسألة ، أوحى مجرد إثارتها .
 ومضى رسول الله ، ﷺ ، راضياً مرضياً ، وهو لا يسمع ، حتى النفس الأخير من حياته الشريفة ، بأن تثار هذه المسألة .
 ولم تثر هذه المسألة في عهد سيدنا أبي بكر لانشغال المسلمين بتوطيد دعائم الأمة الإسلامية ، منصرفين بذلك عن العبث في دين الله .
 وكانت ذرة سيدنا عمر كفيلة برد كل من تحدته نفسه بإثارة هذه المشكلة إلى جادة الصواب .

ومسألة القدر إذن : من التشابه ، إنها من أهم مسائل التشابه .
 وهي فضلاً عن ذلك عصية على الحل ، إنها ليست قابلة للحل ، وهي ليست قابلة للحل سواء أثرت في الشرق أو في الغرب ، وسواء أثرت في القديم أو في الحديث ، أو أثرت في البادية أو في الحضر ، إنها مفرقة بين الباحثين فيها ، ومها طال الجدل بينهم فسوف لا ينتهون إلى نتيجة : ومن أجل ذلك كانت الروح الإسلامية العامة تحرم الخوض فيها .
 ومع ذلك فقد بدأت هذه المشكلة تتسلل ، شيئاً فشيئاً إلى المجتمع الإسلامي حتى لقد احتلت يوماً ما مركز الصدارة في الفكر الإسلامي النظري .
 ولقد مهدت السياسة أولاً لهذا التسلل ، وكانت السياسة أول عامل من عوامل إفساد التفكير النظري الديني في المجتمع الإسلامي السليم .
 كتب معاوية بن أبي سفيان - بعد أن تولى الملك - إلى المنيرة بن شعبة

يطلب منه أن يكتب إليه بالحديث الذي كان يقوله ، صلوات الله وسلامه عليه أحياناً ، وهو على المنبر . فكتب إليه للغيرة أن رسول الله ، ﷺ كان يقول في دبر كل صلاة إذا سلم :

« لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد . وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا راد لما قضيت ولا ينفع ذا الجد منك الجد . »
وأخذ معاوية يذيع هذا الحديث الشريف من فوق المنابر مؤمناً بأنه من عوامل توطيد مركزه في الأمة .

هذا الاستعمال السياسي للأقوال الشريفة ، أثار بعض الضمائر التي لم تطمئن إلى هذه الصورة التي اعتبروها استخداماً للدين والتي لم يروا فيها مظهراً للخضوع والانقياد له ، فهبوا يعارضون فكرة الجبر التي أخذ معاوية يبشر بها مستنداً إلى هذا الحديث الشريف .

ولسنا الآن بصدد التأريخ الكامل لهذه المشكلة ، ولقد بينا على الأقل أمرين .

أحدهما : هو أن هذه المشكلة من المتشابهة ، لأن الرسول ﷺ نهي عن الخوض فيها .

ثانيها : أن السياسة هي التي بدأت يادخل هذه المشكلة في البيئة الإسلامية .

أما النتيجة التي نريد أن نصل إليها من وراء كل ذلك ، فهي : أن البحث في هذه المسألة : يجب أن يتتبع كلية من محيط الفكر الإسلامي ، وأن تتتبع المسألة مما يسمونه علم الكلام ، فإذا ما فعلنا ذلك فإننا نكون قد أزلنا سبباً هاماً

من الأسباب التي تفرق المسلمين بسبب الاختلاف في العقيدة ، ونكون بذلك قد ساهمنا بقسط وافر في سبيل التوحيد . وبالله التوفيق .

٣

مشكلة الصفات

(١) يقول الله تعالى :

﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾

ويقول سبحانه : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ .

ويقول ابن عبد البر المتوفى سنة ٤٦٣ هـ - مستتجاً ومرشداً :

« إن الله ليس كمثله شيء ، فكيف يدرك بقياس أو بإنعام نظرة ،

أما حكماء المصريين القدماء : فإنهم يقولون ، في حكمة حكيمة :

« محال على من يفنى : أن يكشف النقاب الذي تنقب به من لا يفنى

ومن يفنى : هو الإنسان .

ومن لا يفنى هو الله الباقي .

وسواء نظرنا إلى التراث اللبني الصحيح من قرآن أو سنة . أو نظرنا إلى

أصحاب الآراء السليمة التي فهمت الأوضاع الدينية فهماً يتلاءم مع الروح

الصحيح للتدين : فإننا نجد أن الاتجاه العام في ذلك كله يعتمد بالإنسان ابتعاداً

تاماً عن أن يقول في الله سبحانه ذاتاً وصفات - برأيه .

« تفكروا في آلاء الله ، ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا » .

إن هذا الأثر يرسم النهج السليم ويعبر عما يجب أن يكون عليه الإنسان إذا

أراد النجاة وابتغى السلامة .

وما من شك في أن البحث في الذات والصفات الإلهية : من ناحية الصلة بينها : توحيداً أو تقييداً ، والبحث في الصفات الموهمة للتشبيه تقييداً أو تأويلاً إنما هو تهجم من الإنسان على مقام لا يرقى إليه وهم متوهم ولا خيال متخيل ، وإنه لحق : أن كل ما خطر ببالك فاقه بخلاف ذلك .

وقد كان من الطبيعي : أن يقدر الباحثون أنفسهم باعتبارهم من البشر حق قدرها ، وأن يقدروا الله ، حق قدره .

ولو سار الأمر على هذا النسق لما تطاول البشر إلى مقام الله ، ولما تجاوزوا حدودهم . وبالتالي لما كان هناك اختلاف وتنازع واقتراق في موضوع الصفات الإلهية .

ولكن بعض الباحثين لم يلتزموا حدودهم كأفراد من البشر ، وغرهم عقلهم ، وخطعهم شيطانهم : فحاولوا بعقولهم أن يفتروا على الله ما لم يتزل به سلطاناً ، فكانت المشكلة الثانية في علم الكلام - مشكلة الصفات - التي أثارها الجدل والخصومة والفرقة بين المسلمين ، وجعلتهم فرقاً تتنازروا وتتخاصم ، ويرمي بعضها بعضاً بالانحراف والضلال .

(ب) ونشأت المشكلة : حيناً بدأ الباحثون يتعرضون للآيات التي وردت في القرآن الكريم ، والتي توهم التشبيه ، كاليد والوجه ، والاستواء ، أو التي وردت في الأحاديث : كالتزول ، والصورة ، والأصابع .

بدأت المشكلة : حيناً تعرض بعض الباحثين لهذه الألفاظ وأمثالها : تأويلاً لها أو تقييداً لمعناها ، أو تفسيراً وشرحاً .

ومنذ أن بدأ الحديث فيها بدأ الجدل حولها والتزاع ، واستمر خلال العصور

عصراً تلو عصر، ولا يزال الآن يثار الجدل بين أنصار الإمام الأشعري ،
وأنصار الإمام ابن تيمية .

وكان النزاع حول موضوع الصفات ، وصلتها بالذات على وجه العموم يسير
في هدوء أحياناً ، وفي عنف أحياناً أخرى .

وقد تولد عنه كثير من المشاكل الدامية « كمشكلة خلق القرآن » .
والمشاكل المبللة للأفكار والحواطر ، كمشكلة : « الصلاح والأصلح » .
وجدت هذه المشاكل وكثرت وتعددت ، كدليل واضح على عجز العقل
البشري تجاه العظمة اللانهائية الإلهية .

ومع الإخفاق المتتابع في البحث في هذا الموضوع ، منذ الآماد المتطاولة .
فإن البشرية لم ترعو ولم تتعظ ، ولا تزال مستمرة في البحث ، تتخبط فيه
وتتنازع وتتجادل وتخصم ؟

(ح) والحكمة كل الحكمة إذن ، إنما هي موقف سلفنا الصالح ، رضوان
الله عليهم ، فقد هدتهم تزعيم النبيية السليمة إلى اللوقف السلم ، فـ « قدروا
الله حق قدره » وقدروا أنفسهم حق قدرها ، فسلموا من البلبلة ،
والاضطراب ، وسلموا من التنازع والاختلاف ، وكانوا فرقة واحدة .
لقد اتخذوا مبدأ أساسياً ، وقاعدة لا مرأء فيها ولا شك ، هي قوله تعالى :
﴿ ليس كمثله شيء ﴾ .

وهذه الآية تنسف كل تشبيه نسفاً مطلقاً ، فاحترز سلفنا الصالح عن
التشبيه ، حتى لقد قالوا : من حرك يده عند قراءة قوله تعالى :
« خلقت يدي » أو أشار بأصبعه عند رواية الحديث الشريف .
« قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن »

وجب قطع يده ، و قطع أصبعه .

احتز السلف عن التشبيه ، ولكنهم احتزوا عن التعطيل أيضاً :
فهم يثبتون لله - اتباعاً للقرآن - الإرادة - والعلم ، والصفات الكريمة التي
ورد بها القرآن الكريم .

والموقف الذي يقفه من أراد متابعة السلف الصالح إذن ، تجاه كلمات :
الصورة ، واليد ، والتزول ، إنما هو : الإيمان بها مع التترية لله ، تعالى ، عن
الجسمية وتوابعها ، وليس معنى ذلك ، أن هذه الألفاظ معطلة عن المعنى ، بل
لها معنى يليق بجلال الله وعظمته : مما ليس بجسم ، ولا عرض في جسم .
وأن يؤمن بأن ما وصف الله تعالى به نفسه أو وصفه به رسوله ، ﷺ : فهو
كما وصفه ، وهو حق بالمعنى الذي أراده ، وعلى الوجه الذي قاله .
وألا يحاول لها تفسيراً ولا تأويلاً :

وشعار السلف معروف في أمثال هذه الكلمات : إنه أمرها كما جاءت ، .
وكانوا يذكرون في هذه الظروف الآية القرآنية الكريمة :
﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر
متشابهات ﴾ .

﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء
تأويله ﴾ .

﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ .

﴿ والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو
الألباب ﴾ .

ولا مناص ، لمن يريد أن يحتز عن الزيغ ، من أن يمنع عن التأويل

والتفسير ، وأن يمر هذه الكلمات كما جاءت .
ويخلص الإمام الرازي في كتابه : « أساس التقديس » المذهب السني في
كلمات موجزة دقيقة كل الدقة فيقول :
« إن هذه التشابهات ، يجب القطع فيها بأن مراد الله تعالى ، فيها شيء غير
ظواهرها ، ثم يجب تفويض معناها إلى الله ، تعالى ، ولا يجوز الخوض في
تفسيرها » .

هذا هو مذهب السلف في الصفات ، وهو مذهب لا يثير جدلاً
ولا خصومة وليس من طبيعته ذلك . إنه مذهب العبودية الصحيحة .
وهو المذهب الذي يتمذهب به كل من عنده نزعة التدين السليمة .
وهو مذهب الإمام مالك ، والإمام الشافعي ، والإمام أحمد بن حنبل ،
والسلف الصالح ، رضوا الله عنهم .
ومن الطبيعي أن يكون مذهب الفرقة الناجية .

ويجب على كل المسلمين الفاقهين لدينهم ، أن ينشروه في جميع أنحاء
المملكة الإسلامية فهو أمانة في عنقهم ، وهو رسالة يجب عليهم نشرها منعاً
للحيرة والاضطراب عند الأفراد ، ومنعاً للاختلاف والتنازع بين الجماعات .
ونشراً للإسلام ، وتوحيداً للكلمة بين الأفراد والجماعات الإسلامية . ويجب أن
يتترع بحث الصفات كلية من محيط الفكر الإسلامي ، وأن تتترع المسألة
مما يسمونه علم الكلام ، فإذا فعلنا ذلك فإننا نكون قد أزلنا سبباً آخر هاماً من
الأسباب التي تفرق المسلمين بسبب الاختلاف في العقيدة ، ونكون بذلك قد
ساهمنا بقسط وافر في سبيل التوحيد .

وجود الله

مشكلة القدر : من المباحث التي يجب ألا يبحث فيها المسلمون .
 ومشكلة الصفات : من المباحث التي يجب ألا يبحث فيها المسلمون .
 ويجب أن تتزع هاتان المشكلتان من مباحث علم الكلام ، يجب أن تتزعا
 بكل ما لها من فروع ومن شعب .
 أما المسألة الثالثة التي يجب أن تتزع أيضاً : فهي البحث في وجود الله ،
 سبحانه وتعالى .

والواقع أنه ، حين بدأ الرسول ﷺ ، الجهر بدعوته ، بعد نحو ثلاث
 سنوات من الإسراء بها : فإنه صلوات الله وسلامه عليه : لم يبدأ بإثبات وجود
 الله ، وإنما بدأ بالبرهنة على صدقه هو . وتحدى العرب بصدقه . ومن قبل
 ذلك : حين فاجأه الملك في الغار وازل الوحي لم يبدأ الملك أو لم يبدأ الوحي .
 بإثبات وجود الله ، وإنما بدأ الأمر بأن يقرأ للرسول ، صلوات الله وسلامه
 عليه ، باسم ربه :

﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ .

ومضى القرن الأول كله ولم يحاول إنسان قط : أن يتحدث حديثاً عابراً
 أو مستفيضاً عن إثبات وجود الله ، تعالى ، ومضى أكثر القرن الثاني والمسألة
 فيما يتعلق بوجود الله - لا توضع موضع البحث .
 ذلك أن وجود الله : إنما هو أمر بدهي لا ينبغي أن يتحدث فيه المؤمنون نفيًا

أو إثباتاً ، ولا سلباً أو إيجاباً . إن وجود الله : من القضايا المسلمة التي لا توضع في الأوساط الدينية موضع البحث : لأنها فطرية :
وإن كل شخص يحاول وضعها موضع البحث إنما هو شخص في إيمانه دخل وفي دينه المحراف لما خفى الله قط حق يحتاج إلى أن يشته البشر ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . ومن المعروف أن الدين الإسلامي لم يحن لإثبات وجود الله وإنما جاء لتوحيد الله . وإذا تصفحت القرآن ، أو التوراة حق على وضعها الخالي ، أو الإنجيل حق في وضعه الراهن : فإنك لا تجد أن مسألة وجود الله قد اتخذت في أي سفر منها مكانة تجعلها هدفاً من الأهداف الدينية ، أو احتلت مكاناً يشعر بأنها من مقاصد الرسالة السماوية .

والقرآن الكريم : يتحدث عن بدهة وجود الله حق عند ذوى العقائد المنحرفة : يقول سبحانه :

﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض - ليقولن الله ﴾ .

إنهم يقولون : إن الخالق هو الله ، مع أنهم مشركون أو منحرفون بوجه من الوجوه ، في إيمانهم بالله ، تعالى ، وما نزلت الأديان قط لإثبات وجود الله ، وإنما نزلت لتصحيح الاعتقاد في الله أو لتصحيح طريق التوحيد .

أما الآيات الكثيرة : التي يظن بعض الناس أنها نزلت لإثبات الوجود : فليست من ذلك في قليل ولا في كثير ، إنها تبين عظمة الله وجلاله وكبريائه وهيمته الكاملة على العالم ، ما عظم من أمره ودق منه ، لا تفوت هيمته صغيرة ولا كبيرة ، ولا يخرج عن سلطانه ما دق وما جل .
وقد أتت على هذا الوضع لتقود الإنسان إلى إسلام وجهه لله إسلاماً كاملاً

بحيث لا يصدر ولا يرد إلا باسمه سبحانه ، ولا يأتي ما يأتي أو يدع ما يدع إلا في سبيله ، تعالى .

ومضى القرن الأول على ذلك . ومضى القرن الثاني أو أكثره على الفطرة ثم كانت الفلسفة اليونانية .

والفلسفة اليونانية فلسفة وثنية : لأنها تصدر عن العقل لا عن الوحي ، وكل فكرة تصدر عن العقل لا عن الوحي في عالم ما وراء الطبيعة ، أى في عالم العقيدة : إنما هي فكرة وثنية ، أى أنها فكرة لاحق لما في الوجود ، لأن عالم العقيدة إنما هو من اختصاص الله : يبينه على لسان رسوله وكل تدخل من الإنسان في هذا العالم : إنما هو تدخل فيما ليس للإنسان التدخل فيه ، لأنه اقتحام لساحة محرمة مقدسة ، لا ينبغي أن يدخلها الإنسان إلا دخول الساجد الخاضع الخاضع المسلم لما جاء به الوحي الإلهي .

إن الفلسفة اليونانية في عالم العقيدة : فلسفة وثنية ، إنها وثنية حتى حين تثبت وجود الله ، ولا يخرجها إثباتها وجود الله عن أن تكون وثنية ، إنها وثنية بالمبدأ الذي قامت عليه ، وهو مبدأ تأليه العقل البشرى : ويستوى بعد ذلك أن تكون قد أثبتت وجود الله أو أنكرته .

وهي حينما تثبت وجود الله عقلياً ليس في ذلك كبير فائدة . ولا يبرر ذلك وجودها ، ولا قيمة لما تثبته ، وإثباتها والعدم سواء : ذلك أن العقل الذي أثبت : هو العقل الذي يمكنه أن ينكر ، وهو العقل الذي ينكر بالفعل . ولا لزوم إذن للطعن والتصفيق الذي نحى به كل عبقرية فكرية في الشرق أو في الغرب تحاول فكراً ، أن تثبت وجود الله .

إننا لا نقيم عقيدتنا على فكر بشري مها كان هذا الفكر عبقرياً .

ويجب على المؤمن ألا يقيم وزناً - أي وزن - لأي نتاج فكري في عالم ما وراء الطبيعة ، سواء خالف معتقده أو وافقه ، إنه في معتقده يدين لله وحده وكفى بالله مصدراً ، وكفى بالله هادياً ، وكفى بالله مرشداً ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ، ومن يعتصم بالله فهو حسبه . إن كل ما عدا الهدى الإلهي في عالم الدين ، إنما هو وثنية وضلال .

كانت الفلسفة اليونانية فلسفة وثنية بشرية ، وقد أرادت أن تعبد لجاماً يعصمها من الخطأ فاخترعت فناً وثنياً آخر . هو فن المنطق ، لما أجدى ولا أفضى ولا تقدم بالفكر الوثني في عالم الصواب شروى تغير .

وبقيت هذه الفلسفة الوثنية - عبر القرون - على ما هي عليه ، فيها كل سمات الوثنية من ضلال وخرافات .

ولقد كانت الأمة اليونانية : معطوبة بعض العذر ، لما كان في ربوعها دين منزل من السماء تلجأ إليه مهتدية مسترشدة ، وما كان مثلها في ذلك إلا كمثل العصر الجاهلي في الجزيرة العربية : فلبجأت إلى العقل وألمته ، وأضلّت تثبت به وتكر ، فضلت وأضلت .

وجاءت الديانة النصرانية مصححة للوضع ، فعزلت فكرة الألوهية من تدنيس الوثنية ، وصمت بالله جل جلاله عن أن تضع وجوده موضع البحث ، ثم تسلّت إليها - كمكروب خبيث - وثنية اليونان ، فجعلت من وجود الله - مجرد وجود الله - باباً ضخماً من أبواب البحث أو من أبواب اللاهوت الكنسي ، ونزلت بذلك الفكرة الدينية المقدسة عن الله إلى مستوى الجور الوثني البشري ا

وجاء الإسلام تطهيراً كاملاً للعقيدة وتركية تامة للإيمان وأعلن بمجرد

التسمية « الإسلام » الحرب على التنخل البشرية في دين الله ورسالته فما
« الإسلام » إلا الاستسلام المطلق لله سبحانه وتعالى : إنه الاسترسال مع الله على
ما يرضيه ، وهل للإنسان غير هذا بالنسبة لله ، وهل للمؤمن أن يتصرف تصرفاً
آخر؟ وهل إذا تصرف تصرفاً آخر سمي مؤمناً؟ إن الاسترسال مع الله على
ما يجب هو الإسلام ، وهو الدين ، لا دين غيره ، يقول الله تعالى :

﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ .

ويقول سبحانه :

﴿ ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾ .

وإن كل من لا يستسلم لله في وجهه استسلاماً مطلقاً : فإنه يتغنى - في قليل
أو في كثير حسب انحرافه - غير الإسلام ديناً .

ولقد كان الإسلام توجيهاً ، وكان مبادئ .

ومن توجيه الإسلام : أن وجود الله لا ينبغي أن يوضع موضع البحث ،
وكل من وضعه موضع البحث : فإنه بذلك يعدل عن توجيه الله تعالى إلى
توجيه بشري إنه يتغنى غير الإسلام موجهاً ؟

وابتغى المسلمون الأول الإسلام توجيهاً ، كما ابتغوه مبادئ ، وسار الأمر
على ذلك إلى أن تسلت الفلسفة اليونانية - كمكروب خبيث - إلى الجو
الإسلامي تسلت في عهد المأمون ، وتولى كبر هذا التسلل المأمون ، وشجعه على
ذلك معتزلة عصره ، وقابل المؤمنون ذلك بكثير من النفور ، وحق لهم ذلك ،
فما كان منطلق الدين ولا منطلق الفطرة السليمة يقضى بأن تكون راية العصمة ،
راية الدين الإلهي مرفوعة ترفرف على ربوع الأمة الإسلامية في محيط العقيدة ،
فتميل بهذه الراية ، قليلاً أو كثيراً ، لترفع بجوارها راية أرسطو ، أو راية أبيقور .

ورفع المأمون راية الانحراف والوثنية بجوار راية الهداية المصومة ، وعارض
المؤمنون واحتجوا وبيّنوا أن الوثنية - ولو وافقت الدين - فهي وثنية .
ولكن النهج الوثني أخذ يقوى شيئاً فشيئاً ، ثم طلب التصريح بالإقامة
واستوطن . ومعاذ الله أن تكون عقائد الإسلام الكبرى - الإيمان بالله وبالرسالة
وبالبعث - قد تلوث بالوثنية ، كلاً ، وإنما الذي تلوث بالوثنية - وإلى حد
كبير - إنما هو النهج والترعة والاتجاه في البحث ومنهج البحث ، وليس ذلك
بالأمر الهين ، أو الذي لا يؤبه له كلاً ، فذلك له خطورته في جانب قوة الإيمان
وضعفه .

وفرق بين أن تأخذ قضايا الوحي مأخذ المستسلم ، المستسلم معها على
ما تريد وأن تأخذها محكماً فيها عقلك مؤولاً لها أو عادلاً بها إلى اتجاه خاص ،
أو شارحاً لها على ترعة معينة .

ويتعبير آخر : فرق بين أن تصدر عن الوحي متفهماً له بعقلك ، وبين أن
تصدر عن عقلك متفهماً للوحي . ولعل بعض الناس لا يرى فرقاً في التعبيرين
ولكن الفرق كبير إذا نظرنا إلى الوضع الإنساني : فهو إما أن ينطلق عن الوحي
قائداً العقل إلى الخضوع له ، وإما أن ينطلق عن العقل محاولاً تأويل الوحي بما
يوافق النتائج التي وصل إليها العقل .

والأول طريق المؤمنين والمسلمين ، والثاني طريق الفلاسفة أو نهج الوثنيين
والنهج الوثني - نهج إثبات وجود الله عقلياً - هو الذي أتاح الانحراف
الكامل ، أي إنكار وجود الله ، لما دام النهج الوثني قد أعطى حق الوجود ؛
فإن الوثنية - كمنهج - تأتي بالوثنية كتتابع .

إن وضع مسألة وجود الله موضع البحث : هو الذي هيأ للنوى الفطر

المنحرفة أن يلحدوا في دين الله ، وأن يكفروا به سبحانه . هذه نتيجة .
أما النتيجة الثانية فإنها : ضعف الإيمان ، إذا كنت تضع الوجود الإلهي -
بمجرد الوجود - موضع بحث : فعنى ذلك أنك وضعت موضع شك وريبة ولولم
يكن كذلك لما وضع موضع البحث .

وإذا كان الوجود الإلهي - مجرد الوجود - موضع شك وريبة . فما بقي من
أمور الدين لا يوضع موضع شك وريبة ؟ إن الإيمان في هذه الأوضاع الوثنية :
لا يتأتى له إلا أن يجبو شيئاً فشيئاً حتى يصبح كلا إيمان .

وهذا هو ما حدث في الأمة الإسلامية : لقد وصل إيمانها إلى درجة يشبه
أن يكون معلوماً . وما ذلك إلا لتغلغل النهج الوثني في بحث قضايا الدين
ومبادئه لقد أصبحت قضايا الدين ، كل قضاياها ، موضع بحث . وهل يتأتى أن
تبقى قضية من قضايا الدين في مجال اليقين بمد أن وضع وجود الله - مجرد
وجوده سبحانه - موضع البحث ؟ نستغفرك اللهم ، ونتوب إليك .

ونعود فنقول : إن الدين في نفسه محفوظ بحفظ الله لكتابه العزيز .
﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ .
ولكن الذي نشكوه منه إنما هو النهج أو المنهج ، أو التزعة ، أو الاتجاه في
البحث ، إن الذي نشكوه منه إنما هو :

منهج البحث الوثني . وإذا شئت قلت : إنما هو منهج البحث اليوناني .
مثل أحد العارفين عن الدليل على الله .
فقال : الله .

فقيل له : فما العقل ؟ فقال : العقل عاجز لا يدل إلا على عاجز مثله .
أما الإمام الكبير العارف بالله ابن عطاء الله السكندري الذي جمع بين

رئاسة الشريعة ورئاسة الحقيقة فإنه يقول :

- « إلهي ، كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفترق إليك ؟ أيكون لغريك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك ؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك . »
- « كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو الذي أظهر كل شيء . »
- « كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو الذي ظهر بكل شيء . »
- « كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو الذي ظهر في كل شيء . »
- « كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو الظاهر قبل وجود كل شيء . »
- « كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو أظهر من كل شيء . »
- « كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو الواحد الذي ليس كمثلته شيء . »
- « كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو أقرب إليك من كل شيء . »
- « كيف يتصور أن يحجبه شيء ، ولولاه ما كان وجود شيء . »
- « شتان بين من يستدل به أو يستدل عليه ، المستدل به عرف الحق لأصله ، فأثبت الأمر من وجود أصله ، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه ، وإلا فحق غاب حتى يستدل عليه ؟ ، ومتى بعد حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه ؟ . »

•

الأحزاب الدينية

في عصر الإسلام الأول كان كل شيء مصطبغاً بالصبغة الدينية ، وينبت عن جو مصطبغ بالصبغة العامة للدولة : صبغة الدين .

ولا غرابة في هذا ، فإن الإسلام ليس عقيدة قلبية فحسب ، ولكنه نظام يتضمن جميع قوانين المجتمع إنه عقيدة وعبادة وأخلاق ، كما أنه تشريع ونظام للمجتمع ، ومبادئ عن الاتجاه العام للدولة ، بحيث تكون في إطار الوحي . أمة تسلم نفسها لله سبحانه ، بحكمة كتابه ، وسنة نبيه .

من أجل ذلك قلنا : « الأحزاب الدينية » ولم نقل : « الأحزاب السياسية » . وما كان لكلمة السياسة ، وجود بمعناه الخالي في ذلك العصر . هذه الأحزاب نشأت نشأة ميسرة تشبه أن تكون طبيعية . لقد نشأ عقب انتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى سؤال عادي ينشأ في كل مجتمع .

من الذي تولى الأمر بعد الرسول ﷺ ؟

إن الإسلام لا يعترف بطبقية أساسها النسب فقط ، والشرف في الإسلام والفضيلة إنما يتبعان التقوى .

وفي الإسلام مبادئ - أشرف ما تكون المبادئ - بالنسبة لذلك : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (٩) .

« إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » (رواه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة) .

﴿ فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ (١٠) .

« رب أشعث أغبر ، لو أقسم على الله لأبره » رواه أحمد ومسلم والحاكم وغيرهم .

(١٠) المؤمنون : ١١١

(٩) الحجرات : ١٣

وإن الجو الإسلامي كله يوحى بأن فضل الشخص لا يرجع إلى مال .
ولا إلى جاه ، ولا إلى منصب ، ولا إلى نسب . . وإنما إلى صلته بالله .
ومن أجل ذلك لم تتجه الجمهرة العظيمة من المسلمين إلى أسرة بلاتها لتولى
الحكم .

إن الحكم في الإسلام خلافة .

والخلافة اتباع لرسول الله ﷺ .

إنها خلافة له ، ومن أجل ذلك : كان الخليفة يتحرى ما كان يفعله ﷺ
ويسير على نسقه .

والأمر شورى :

﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ (١١) .

﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ (١٢) .

وقد غرس رسول الله ﷺ مبادئ الشورى بسلوكه في غزوة بدر حينما
استشار المسلمين في حرب المشركين ، وكانت نتيجة الشورى توجيح فكرة
الحرب .

وأشير على رسول الله ﷺ في موضع نزوله في هذه الغزوة ، وأخذ بالمشورة
وامتشار المسلمين في موضوع الأسرى .

وامتشار المسلمين في غزوة الأحزاب وانتهت المشورة بحفر الخندق .

وامتشار المسلمين في أمور أخرى كثيرة .

ولما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى اجتمع الصحابة في سقيفة

(١١) آل عمران : ١٥٩

(١٢) الشورى : ٣٨

بني ساعدة ، وتشاوروا في الشخصية المثلى لتولي الخلافة ، وانتهى بهم الرأي إلى
أبي بكر رضي الله عنه .

ولقد كان أبو بكر رضوان الله عليه ، جديراً بها .

ولقد قام رضوان الله عليه بها خير قيام .

ورأى أبو بكر رضي الله عنه أنه خليفة رسول الله ﷺ ، وقد اختارته الأمة
لمصلحتها الدينية والدنيوية ، وهذا معناه التفويض في اختيار من يخلفه ، وتلك
وجهة نظر لا غبار عليها .

إن المسلمين اختاروه خليفة : أي ألقوا إليه قيادتهم ، واثقين به في أمور
مصلحتهم ، فاختار لهم - وقد أسلموا إليه الأمر - من يخلفه .

وتحرى هو الأمر ، واستشار واستخار ، ولم يأل جهداً في النصيحة ، واختار
في نهاية حياته وهو مقبل على ربه : اختار عمر رضي الله عنها .
ولكن البعض من الصحابة لم يأخروا بوجهة النظر هذه ، وأخذ متعلقهم
وضعاً آخر .

إن الأقرب إلى رسول الله ﷺ أولى بحمل الرسالة إذا كان يصلح لها ، فإذا
لم يكن في الأقربين من يصلح فيكون الخليفة في من يليهم ، وهكذا .
إنها القرى والصلاحية ، ولا يخرج الأمر عن ذلك إلا إذا انعدمت
الصلاحية الحققة تماماً .

وكان هذا الفريق يتخذ من سيدنا علي ، كرم الله وجهه ، مثلاً كريماً لتولي
الخلافة .

ولقد كان سيدنا علي مثلاً كريماً للخلافة ، ومن الذي يعارض في ذلك ؟

لقد كان مثلاً أعلى في الصلاح، والتقوى، وفي الشهامة والبطولة، وفي العلم . . .

ولكن الأمور سارت على غير ما يجب هؤلاء .
إنها سارت على غير ما يأملون حينما اختير سيدنا عمر، وسارت على غير ما يحبون حينما اختير سيدنا عثمان .

وكان هذا الفريق يقوى على مر الزمن ويكثر عدده، خصوصاً في أواخر عهد عثمان رضى الله عنه .

وعثمان رضى الله عنه هو : « ذو النورين » وهو الذى قال عنه رسول الله ﷺ :

« اللهم ارض عن عثمان فإنى عنه راض » رواه ابن هشام .
وقال عنه ﷺ عندما وضع في حجر رسول الله ﷺ مبلغاً من المال هو من الكثرة بحيث أفاد المسلمون منه فائدة كبرى في حريم، قال عنه .
« ما على عثمان ما فعل بعد اليوم » رواه أحمد والترمذى .
ثم هو من العشرة المبشرين بالجنة .

وانتهت حياة عثمان بهذه المأساة التى لا تحب الخوض فيها مراعاة لحرمه الصحابة، ولكن الذى نستطيع أن نؤكد أنه هو أن سيدنا علياً براء من دم عثمان، وكذلك كبار صحابة رسول الله ﷺ .
وتولى سيدنا على الخلافة، تولاها عن طريق الشورى، وكانت خلافته صحيحة .

ولكن حدث ما حدث من المأساة الكبرى، والحرب التى سقط فيها تسعون ألفاً من فرسان الصدر الأول للإسلام .

وتولى معاوية الحكم ، وتغيرت صورة الحكم ، فبعد أن كان خلافة أصبح ملكاً عضوداً .

وبعد أن كان ترسماً دقيقاً لخطوات رسول الله ﷺ أصبحت شخصية الحاكم لها دخلها في الأمر .

ومنذ أن حدثت هذه الأحداث وجد في الأمة أحزاب :

حزب العلويين أو الشيعة .

حزب الخوارج .

وحزب الأمويين .

وحزب المرجئة .

وأصبح النزاع نزاعاً يدور حول أشخاص ، ومن أجل أشخاص ، وأصبح في الأمة أحزاب تدين بالولاء لأشخاص .

والإسلام لا يعترف بأشخاص ، إنما يعترف بمبادئ وأخلاق - وصفات عليا ، وشعاره :

﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

إن الإسلام يعترف بأنبياء ورسول ذوى عصمة . أما غيرهم من البشر فلا عصمة لهم في نظر الإسلام .

إن الإسلام يهتم بالمبادئ والمثل العليا والقيم الكريمة ، ومكارم الأخلاق ، أما الأشخاص فلا يثنأ أن تكون سيئاً في التفرقة بين الأمة .

ويحب على المسلمين جميعاً أن يعلموا حق العلم أن الإسلام ليس من عقائده ما يتصل بالشخصيات ، اللهم إلا الرسول ﷺ .

فإذا أخرجنا الشخصيات من محيطنا الاجتماعي فإن كل الأحزاب التي تقوم

على الشخصيات إيماناً بها أو معارضة لها تسقط من نفسها .
وما من شك في أن البطولات تفرض التقدير على المجتمع ، وهذا أمر جرى
عليه العرف ، وتناسقت العواطف مع العرف ، وشعور الإنسان المترن يسير مع
العرف ومع العواطف .

إن الإنسانية محترم البطولات التي تقدم لها أعمال الخير : سواء أكانت
بطولات علمية أم بطولات أخلاقية تهدي إلى الرشد ، وتدعو إلى سبيل الله ،
ولكل إنسان مطلق الحرية في أن يقدر فلاناً أو أن يفضله على فلان . أما أن
تدخل الأشخاص - غير الأنبياء والرسل - في العقائد فإن ذلك الأمر بعيد عن
الجو الإسلامي الذي من شعاراته قوله تعالى :

﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

وأول قواعد التقريب أن تسقط من عقائدنا ما يتصل بالأشخاص ، ولنا أن
محترم منهم من نشاء ، وأن نصرف النظر عن نشاء . .
ولكن ذلك وحده غير كاف في السير بالفرق إلى الوحدة ، وإذا كان ذلك
يلغى الأحزاب الدينية فإنه لا يقضى على الفرق الدينية .

٦

الفرق الدينية

إن الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز عن القرآن الكريم :
﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر
متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء

تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا
وما يذكر إلا أولو الألباب ﴿ (١٣) .

أما الآيات المحكمة فإنها سهلة . ميسر فهمها .

وأما الآيات المتشابهات فإنها الآيات التي تتصل بالغيب .

ولقد مدح الله سبحانه في أوائل كتابه المؤمنين بالغيب فقال :

﴿ ألم . فلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب
ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل
من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم
المفلحون ﴿ (١٤) .

وإذا سألت عن التشابهات فإنها - إذن - الذات الإلهية من حيث هي
غيب ، وأسرار الذات الإلهية من حيث هي قضاء وقدر ، وصفات الله من
حيث صلتها بالذات العلية .

ومها اختلف علماء الكلام وعلماء التفسير في التشابه ما هو ؟ فإنه لا يتأتى
الاختلاف في أن ما نهى رسول الله ﷺ ، عن البحث فيه ، هو من
التشابه .

ولقد نهى رسول الله ﷺ كثيراً عن البحث في القضاء والقدر ، وصلة
ذلك باختيار الإنسان أو عدم اختياره . .

إن البحث في مسألة الجبر والاختيار والقضاء والقدر ، يثير كثيراً من
العقول :

(١٣) آل عمران : ٧

(١٤) البقرة : ١ - ٥

أهم مقادير تجري في أعتابها ، والإنسان في محيطها كالريشة في مهب
الرياح ؟ . . .

أم أن الإنسان له إرادته وحرية واختياره ؟ . . .
إنه البحث الخالد الذي أثار وما زال يثير جدلاً حاداً بين المتكلمين ، وبين
الفلاسفة . وهو بحث يقسم الباحثين - منذ اللحظات الأولى - إلى فريقين :

الفريق الذي يقول بالجبر .

والفريق الذي يقول بالاختيار .

ولقد فرق هذا البحث بين علماء اليهود منذ أن نشأت اليهودية ، وما زال
إلى الآن يفرق بينهم في الرأي .

وفرق بين الفلاسفة منذ نشأة الفلسفة في اليونان القديمة .

وفرق بين النصارى وما زال يفرق بينهم في الرأي .

وتكلم المسلمون الأوائل منذ العهد المدني ، وكان الرسول ﷺ ينههم نهياً
حاسماً عن البحث في هذا الموضوع ، وكان من أوامره ﷺ :

« إذا ذكر القدر فأمسكوا ، رواء الطيراني وابن حلس .

وكان رسول الله ﷺ ينذر ويهدد ويوعد كل من يثير هذا الموضوع ،

وله ﷺ أحاديث كثيرة في ذلك .

ولكن كثيراً من الناس لا يستجيبون لنداء الهداية ، وتغلبهم نزعاتهم ، أو

نزعاتهم ، على أنفسهم فيسبون في طرق من البحث ، نهوا عن السير فيها . . .

ولم يأخذ هؤلاء عظة وعبرة من نتائج هذا البحث عند اليهود وعند

النصارى ، تلك النتائج التي كانت الضربة المستمرة على مر القرون ، وعدم

الوصول إلى حل للمشكلة . . .

وسار بعض المسلمين في الطريق الذي سار فيه من قبلهم ، وافترقوا كما افترق من قبلهم ، ونشأ بسبب ذلك فرق تنازعت وتشاحت .

إن مسألة الجبر والاختيار مسألة عصية على الحل ، آية على الاتفاق . . إنها كذلك شرقاً ، وهي كذلك غرباً ، وهي كذلك قديماً ، وهي كذلك حديثاً ، ولا مفر للعاقل من أن يقول في ذلك مع الراسخين في العلم :

﴿آمنا به كل من عند ربنا﴾

وتأمل معي سؤالين ، سألهما عللان من كبار العلماء كل لصاحبه .

أقول إن الله يجب أن يعصى ؟ « مذهب الجبر » .

أقول إن الله يعصى رغماً عنه ؟ « مذهب الاختيار » .

والله سبحانه وتعالى لا يجب أن يعصى ، وهو سبحانه لا يعصى بالرغم عنه

ماذا إذن ؟

﴿آمنا به كل من عند ربنا﴾ .

ويجب - إذن - أن نسقط البحث في الجبر والاختيار ، فلذلك من أسرار

الله سبحانه ، فإذا سقط البحث في الجبر والاختيار سقط جانب كبير من عوامل

الضربة بين المسلمين . .

٧

البحث في الذات والصفات

إن كنه ذات ما - أيا كانت هذه الذات - لم يصل بعد البحث إلى بيانه ،

ورسول الله ﷺ يقول :

« تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا » رواه أبو الشيخ ورواه

الطبراني في الأوسط وابن عدي والبيهقي في الشعب . .

والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ سبحانه ربك رب العزة عما يصفون ﴾ (١٥)

ويقول :

﴿ ليس كمثله شيء ﴾ (١٦)

ولقد ذكر القرآن الكريم سبحانه وتعالى صفات تشترك في الاسم مع صفات

الإنسان .

لقد وصفه سبحانه بالعلم والإرادة والقدرة . .

وقال سبحانه :

﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما

ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً ﴾ (١٧)

وقال :

﴿ كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ (١٨)

هذه الصفات من إرادة وقدرة . . ما صلتها بالذات ؟

أهي هي ؟ . . أهي غيرها ؟ . .

ومحتمل في ذلك للتكلمون والفلاسفة . واختلفوا ، وكان لا مفر من

الاختلاف ، لأن ذلك غيب ، والغيب يثير الاختلاف دائماً ، . . وكان على

المسلمين أن يتفكروا في آلاء الله ، وفي التفكير في آلاء الله استشارة للشكر

والتقوى والحشية . .

(١٧) النجاشي : ١٠

(١٨) الرحمن : ٢٦ ، ٢٧

(١٥) الصافات : ١٨٠

(١٦) الشورى : ١١

ولكن المتكلمين والفلاسفة تعدوا حدودهم فبحثوا في صلة الذات بهذه الصفات فاختلفوا . .

وهذه الصفات من يد ، ومن وجه ، ماذا تعنى ؟ . . أتعنى يداً ووجهاً أم قدرة وذاتاً ؟ . . أناخذها على ظاهرها أم توولها ؟ . .

ويبحث المتكلمون والفلاسفة في ذلك ، واختلفوا ، وجروا وراعهم في الاختلاف الكثيرين ، وتعدوا حدودهم . .

ولم يكن ذلك مطلوباً في العقيدة . ولن يتأتى أن يقول قائل إن تحديد معنى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ في الاستطاعة الإنسانية ، أو هو مطلوب في العقيدة . .

وما من شك في أن أسلافنا قد وقفوا من ذلك موقف المستبصر المستتير ، إنهم كانوا يقولون في كل ذلك .

آمنا بذلك على مراد ربنا .

أويقولون :

﴿ آمنا به كل من عند ربنا ﴾ .

وكل ذلك من التشابه ، بل في مركز الدائرة من التشابه :

﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله

وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ .

وإذا رأيت الباحث المجادل الذى يجرى وراء تحديد الغيب فاعلم أنه من

الذين في قلوبهم زيغ .

وإذا سقط البحث في ذلك وقلنا : آمنا به على مراد ربنا ، سلمنا ،

وسلمت عقائدنا ، واسترحنا ، وأرحنا الأمة من اتباع ما تشابه منه .

وتأمل معي قول رسول الله ﷺ :

« إن المقسطين عند الله يوم القيامة عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا » (١٩)

وتأمل :

﴿ وهو معكم أين ما كنتم ﴾ (٢٠) .

وتأمل :

﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴾ (٢١) .

﴿ وهو الله في السماوات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون ﴾ (٢٢) .

وهو سبحانه ليس كمثله شيء .

إننا إذا أسقطنا البحث في التشابه ، انهار صرح الاختلاف الذي يعمل كل أعداء الإسلام على أن يستمر وأن يتسع .
وإذا ما سرنا دائماً في هذا التيار فإن أعين أعداء الإسلام تفر ، ويفرحون لتحقيق آمانيهم في إثارة التراع والتفرقة بين المسلمين .
ولكن الله غالب على أمره ، ومنعصم به سبحانه .

(١٩) رواه أحمد ومسلم والنسائي .

(٢٠) الحديد : ٤

(٢١) المجادلة : ٧

(٢٢) الأنعام : ٣

﴿ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم﴾
سنعتم به فلا نجعل الأشخاص يفرقون بيننا . وسنعتم به فلا نبحت في
المتشابه وبذلك نرضى الله سبحانه ورسوله ﷺ .

٨

وكلنا يديه . . يمين

يقول رسول الله ﷺ : فيما رواه أحمد ومسلم والنسائي عن عبد الله
ابن عمرو - رضى الله عنها :

« إن المقسطين عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن ،
وكلنا يديه يمين : الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا . »

وكيف نتصور : وكلنا يديه يمين ؟

إن الأوضاع العادية ترينا دائماً أن إحدى اليدين يمين والأخرى يسار .
ونحن بمقلنا المخلود نتصور دائماً الأمر كذلك ، ولكن الحديث الشريف ينبثق
عن قاعدة عامة تتمثل في قوله تعالى :

﴿ ليس كمثله شيء ﴾ .

وتتمثل في قوله تعالى :

﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾ .

والواقع أن الذات الإلهية أعز وأمنع من أن يصل إلى وصفها العقل البشرى
بمقاييسه وموازينه .

إن الذات الإلهية غيب ، والغيب يؤمن به الإنسان دون تصور له . اللهم
إلا إذا شبه بشيء رآه أو سمعه : أحس به على وجه العموم .

والإنسان هكذا خلق : إنه لا يمكنه أن يتصور إلا ما شاهده أو أحسه
بإحدى حواسه .

والله سبحانه غيب . ولقد قال الإمام ابن عبد البر كلمة في غاية العمق .
إن الله ليس كمثل شيء ، فكيف يدرك بقياس أو بانعام نظر؟
إن الله لا يدرك من حيث ذاته بقياس ، ولا يدرك من حيث الذات بانعام
النظر ، إنه :

﴿ ليس كمثل شيء ﴾ .

هذه النظرة المؤسسة على القرآن والسنة هي النظرة التي وصل إليها الفلاسفة
المؤطون .

ولقد وصل الأمر ببعض الفلاسفة المؤطين إلى أنهم لا يتحدثون عن الله
إلا بالسلب ، فهم إذا أحبوا أن يقولوا : الواحد . يقولون « اللاتنين » مثلا ،
أو تعبيراً سلبياً يؤدي معنى الواحد .

وذلك أن كل وصف إنما هو تحديد ، وكل تحديد هو تقييد ، وكل تحديد
هو حصر ، والله سبحانه لا حصر له .

ومن هنا كانت حتمية الالتزام بما ورد في النص الإلهي . وهذا الالتزام
لا يفسر ولا يؤول ، ولا يترجم إلى تصور معين ، وإنما يقال : آمنا به على مراد
الله سبحانه ، فإذا قال الله سبحانه :

﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ .

فإن الموقف الحتمي أن نقول :

آمنا به على مراد الله ، ولا شيء غير ذلك ؛ وكل تفسير ، وكل تأويل ، هو
انحراف عن الصراط المستقيم .

وفي مقابلة الفوقية حينما ترد في نص ، نقول : آمنا به على مراد الله ، وفي هذه الحالة لا يتأتى أن يتساءل إنسان عن الجهة التي تقتضيا الفوقية ، وذلك أنه مادام الأمر : آمنا به على مراد الله ، لا يتأتى هذا السؤال .

والاستواء : آمنا به على مراد الله .

و . . . ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ . . . آمنا به على مراد الله . ولقد عبر الله سبحانه بأعيننا ولم يقل بعيننا ولا بعينينا .

وهكذا في كل ما يرد عن الذات الإلهية .

وما من شك في أن الحديث في الذات الإلهية إنما هو من التشابه ، ومما قال المفسرون في تفسير التشابه ، فإنه مما لا شك فيه أن الحديث في الذات الإلهية ، إنما هو من التشابه ، بل هو مركز التشابه ، ونحن نعلم الموقف القرآني من التشابه ، يقول سبحانه عن القرآن الكريم :

﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ (٢٣) .

لقد نبينا في قوة عن البحث والجدل في التشابه .

فإذا لم نبحث ولم نجادل واتبعنا التوجيه القرآني ، فإنه لا يكون بيننا - أعني أمة الإسلام - فرقة مصدرها التشابه ، الاستواء ، الفوقية ، اليد إلخ ﴿ والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ﴾ .

وشيء آخر ، لا ندرى كيف جرؤ الباحثون من أهل السنة ومن المعتزلة على

(٢٣) آل عمران : ٧

البحث فيه ؟ وذلك هو موضوع ، الذات والصفات .
لقد وصل الأمر بالباحثين في تناولهم وجرأتهم وكبرياتهم أن يبحثوا في :
هل الذات الإلهية والصفات الإلهية شيء واحد . أو أن الذات غير الصفات ؟
هل هي هي ، أو هي غيرها ، أو لا هي هي ولا هي غيرها ؟
إن الإنسان حينما يكون الأمر متصلاً بالله ليس له إلا الانكسار والخشية ،
والخضوع والتضرع إلى الله سبحانه في أن يهبه التواضع ، وأن يرزقه الرغبة إليه ،
والرهبة منه ، وأن يقول مع الشاعر الرقيق : إسماعيل صبرى :
يارب أهلقى لفضلك واكفى شطط العقول وفتنة الأفكار
أما أن يصل الأمر إلى هذا الحد من التناول على المجال الأقدس ، فإن
ذلك لا يكون الموقف منه إلا للموقف الذي التزمه الأئمة : مالك والشافعي
وأحمد بن حنبل وسفيان الثوري وأهل الحديث : التحريم .
لقد حرم هؤلاء الأئمة الأفاضل الحديث في ذلك تحريماً مطلقاً ، وكانوا على
حق رضي الله عنهم .
لقد كانوا متناسقين مع القرآن والسنة ، ومع العقل والمنطق ، ونحن يجب
علينا وجوباً مطلقاً أن نسير في ذلك على هدى من القرآن والسنة ، وعلى سنن
أئمتنا رضي الله عنهم .
وبعد ، إذا فعلنا ذلك أمنا من الزلل ، وأدينا لله حقه من القداسة ، وأزلنا
الكثير من الخلاف فيما بيننا ، وهذا هدفنا من المقال .
ونرجو الله أن يهدي له وأن يهدي به ، إنه سميع قريب مجيب .

المناهب الفقهية

لقد طبق رسول الله ﷺ الإسلام كما أحبه الله سبحانه وتعالى ، طبقه في مختلف مواقفه : طبقه بكلامه ، وطبقه بعمله ، وطبقه بمشاعره .
وكان الصحابة رضوان الله عليهم ، يسيرون حسباً يرسم ، ويتخلون به قدوة ، ويعملون كما يعمل ، وبذلك تواترت سنته ﷺ العملية ، وكانوا رضوا الله عنهم يشرحون هذه السنة وكانوا يروون ما يحدث به ﷺ في مواقفه المتنوعة .

ولقد حفظ بعض الصحابة ما لم يحفظه الآخرون ، ثم تفرقوا في البلاد في الأمة الإسلامية ، وحفظت الأمة الإسلامية في مختلف البلاد عن هؤلاء الصحابة الكثير ، وأخذوا يروون ما حفظوا . ونشأ قوم اتجهوا إلى جمع هذه الأحاديث في صحاح وفي مسانيد ، وتحروا فيها الصدق ، نافين عنها كل ما يمكن أن يناله الشك ، وقاموا في سبيل ذلك بما لم يصل إلى مثله المؤرخون الحديثون من أساليب النقد ، وتحري الصحة .

وكان رسول الله ﷺ له أوضاع تسير على نسق واحد في بعض المسائل وتختلف في بعضها الآخر .

إنه ﷺ كان يلتزم سلوكاً واحداً فيما هو فرض ، كالقراءة والركوع والسجود والجلوس للشهد في الصلاة ، وكصيام شهر رمضان ، والإمساك الكامل فيه عن الطعام والشراب . . وهكذا .

أما فيما يتعلق بالسنة فإن رسول الله ﷺ ما كان يلتزم بصورة حتمية سلوكاً واحداً ، وإنما كان يأتي في بعض الأحيان ما لم يأتيه في أحيان أخرى .
ومن أمثلة ذلك ما كان يقوله ﷺ بعد تكبيرة الإحرام قبل قراءة الفاتحة .
وما كان يقوله ﷺ من دعاء في سجوده .

وهل كان ﷺ في وقوفه بين يدي الله للصلاة يرخي ذراعيه أو يقبضها واضعاً اليمنى على اليسرى . . . وهكذا .

ومثل هذه الأمور تحدث في أعمال العبادة ، كما تحدث في البيع والربا والإجارة وغيرها من أعمال التعامل بين الناس .

ومذاهب الفقهاء تدور في هذا القلک : إنه لا اختلاف بينهم في الركوع والسجود مثلاً ، ولكن الاختلاف بينهم في غير الفروض الواجبة الأداء .

ولكن هذه الأمور الهينة التي ليست بفروض ولا واجبات قد استغلتها جهات يترها التفرقة بين المسلمين . وجهات أخرى مهمتها التفرقة بين المسلمين ، حتى تصرفهم الفرقة عن الأخذ في مهام الحياة الكبرى ، وحتى تضعفهم هذه الفرقة فتصرفهم عن الإصلاح الحقيقي للمجتمع .

ولقد اخترع لهم أعداء الإسلام مسائل للاختلاف :

فمسألة : « السدل والقبض » : « والسدل » : هو إرخاء اليدين في الصلاة ، « والقبض » هو وضع اليد اليمنى على اليسرى حينما يكون الإنسان واقفاً بين يدي الله .

لقد اختلف فيها بعض العلماء في بعض الأقطار إلى درجة حادة ، ويعجبني موقف عالم مستير وقف في جلسة احتد فيها النقاش حدة سيئة فقال :
يا علماء الإسلام ، أسألکم بالله : إذا وقف الإنسان في الصلاة ومد يديه

تماماً أمامه ، هل تفسد صلاته ؟

قالوا : لا .

فقال : فإذا رفع يديه تماماً إلى أعلى ، هل تفسد صلاته ؟

فقالوا : لا .

وأخذ يسألهم : فإذا أخطأها ؟ فإذا ضمها إلى بعضها ؟

وهكذا أخذ يسألهم عن الأوضاع المختلفة للدين ويقولون : إنها لا تفسد الصلاة .

فقال لهم في النهاية : علام اختلافكم يا علماء الإسلام ، علام شقاقكم وتزاعكم واختلافكم ؟ إنها فتنة ، فجنبوا الإسلام عنها ، وجنبوا المجتمع شرها . وهذا الجميع ، وعرفوا أن حدثهم في الخلاف إنما تقوم على غير أساس صحيح .

وعلى كل حال ، فإن منشأ الاختلاف بين الفقهاء هو استناد بعضهم إلى ما روته الأحاديث من حالات رسول الله ﷺ من أمر السنن ، واستناد البعض الآخر إلى ما روته الأحاديث من حالات أخرى :

وكلهم من رسول الله ملتصقون غرقاً من البحر أو رشفاً من الدير ، وكل مذاهب الفقه إنما هي آراء في مدرسة واحدة هي المدرسة الإسلامية ، أو هي مدرسة رسول الله ﷺ .

يبد أن ضيق الأفق عند بعض المتأخرين هو الذي جعلهم يقيمون من هذه الآراء ومذاهب منفصلة ، منفصلة الأتباع ، يتصركل منهم للمذهب .

ويوشك هذا الانفصال أن يزول الآن في واقع المسلمين ، وليس له على كل حال الحدة التي كانت له في الماضي .

وإذا كانت المذاهب آراء مجتهدين في مدرسة رسول الله ﷺ ، وهذا يشبه أن يكون بدهياً ، فإن الذي مازال خامضاً نوعاً ما في أذهان بعض الناس إنما هو أمر : « الاجتهاد » .

ولقد حاول البعض أن يشيع بين الناس أن باب الاجتهاد قد أغلق ، وأن المجتهدين هم هؤلاء الذين نبغوا في الماضي من أمثال الإمام مالك والإمام الشافعي رضي الله عنهم .

وأخذ آخرون يجادلونهم في ذلك ، يرون أن باب الاجتهاد مازال مفتوحاً ، ولكنهم يتحدثون عن الاجتهاد وكأنه ميسر لكل من يريد .

والواقع أنه لا يتأتى لشخص مستير ذي بصيرة مضيئة أن يقول إن فضل الله قد اقتصر على عدد محدود من الناس ، هم المجتهدون السابقون ، وذلك أنه من البديهي أن كل من تتوفر فيه شروط الاجتهاد يمكن أن يكون مجتهداً .
أما شروط الاجتهاد فهي :

١ - معرفة متمكنة للغة العربية ، ولقد كان الإمام مالك رضي الله عنه ، وكان الإمام الشافعي رضي الله عنه ، وكان غيرهما من المجتهدين من فحول اللغة العربية الأفلاذ .

٢ - حفظ القرآن الكريم حفظاً متقناً ، وفهمه فهماً لا يقل عن فهم كبار المفسرين ، ويتضمن ذلك معرفة أسباب النزول في الآيات التي كان لها أسباب نزول ، وذلك أنه وإن كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فإن معرفة أسباب النزول تساعد على فهم الجوال الذي نزلت فيه الآية ، كما تساعد على التعمق في فهمها .

٣ - معرفة الأحاديث معرفة لا تقل عن معرفة المحدثين ، وخصوصاً

الأحاديث التي تتصل بالأحكام ، وذلك أن الأحاديث الخاصة بالأحكام تفسر الكثير مما لا تفصله بعض الآيات القرآنية .

٤ - معرفة السنة العملية لرسول الله ﷺ ، والسنة العملية متواترة لأن الذين لازموا رسول الله ﷺ في مكة ، ثم الذين لازموا في المدينة كانوا كثرة كثيرة - ولقد شاهدوا ما فعله رسول الله ﷺ وتابعوه صلياً فيما قام به ، ونقلوا ذلك لمن شاهدتهم من بعد ، وهكذا .

٥ - معرفة سيرة رسول الله ﷺ في صورة واضحة .

وهذه الأمور التي ذكرناها يقرنا عليها كل من عنده صورة للاجتهاد : ما هو؟ وكيف يكون؟

وهي وإن كانت متعددة فإن بعضها يدخل في بعض ، وبعضها يفسر ببعض ، وبعضها أسباب وبعضها نتائج . وكل منها يساعد على فهم الآخر : فهي - إذن - ميسورة ، ولكن لا بد من إتقانها .
والأمر الهام الذي نحب بتوفيق الله تعالى أن نأخذ في الحديث فيه الآن هو : هدف الاجتهاد .

يظن بعض الناس أن هدف الاجتهاد إنما هو تيسير الأمور ، أو اختراع رأى ، أو ابتداع فكرة ، أو إبداء رأى شخصي .

لو كان الأمر كذلك لما كان هناك من حاجة إلى شروط ، أو كد في التحصيل ، أو جهد في المعرفة - كلاً ، إن الاجتهاد ليس كذلك .

إن رسول الله ﷺ يقول فيما رواه الشيخان :

« من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من دعا إلى

هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً ، رواه مسلم . .

وعن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري قال : قال رسول الله ﷺ :
« يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » رواه البيهقي .

وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ :
« لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » رواه في « شرح السنة » وقال النووي في « أربعينه » هذا حديث صحيح رويناه في « كتاب الحججة » بإسناد صحيح .

إن هدف الاجتهاد أمران :

الأمر الأول : هو الاجتهاد في المسائل التي كانت في عهد الرسول ﷺ ، للوصول إلى ما كان عليه النبي ﷺ في هذه المسألة أو تلك . إنه بذل الجهد للوصول إلى حكم يقيني في مسألة أو مسائل كانت على عهد الرسول ﷺ ، وهذا لا يتصل من قرب أو من بعد بالابتداع أو الاختراع أو الرأي الشخصي .

وأما الأمر الثاني : فهو الاجتهاد في مسألة حدثت بعد عهد النبي ﷺ من أجل ربطها بقاعدة عامة من قواعد الدين الإسلامي محلاة أو محرمة .

إن القرآن الكريم ، وإن السنة النبوية الشريفة ، فيها قواعد عامة ينحل فيها ما لا يخص من الجزئيات ، ومهمة المجتهد هي أن يربط المسألة الحديثة بالقواعد العامة .

وهو في هذا لا حرية له ، إنه مقيد بالقياس والقواعد العامة ، ليس له في

هذا حرية الانطلاق كيفما يريد : كلاً ، إنه في كل ظروفه متبع لا مبتدع ،
ورسول الله ﷺ يقول في نوعي الاجتهاد :
« اتبعوا ، ولا تتبدعوا ، فقد كفيتم » .
والذي نريد أن ننهي إليه هو :

- ١ - للمذاهب الفقهية آراء في مدرسة الرسول ﷺ ، وهي بهذا الاعتبار لا تفرق ولا تفصل بين فرد وفرد ، ولا بين جماعة وجماعة .
- ٢ - باب الاجتهاد مفتوح إذا توافرت الشروط : والمسألة ليست مسألة جدل في هذا ، وإنما هي مسألة اجتهاد في أن تتوافر الشروط .
- ٣ - الاجتهاد لا ابتداع فيه ، وهو ليس رأياً شخصياً .
وبعد كل ذلك نقول :

إننا قبل هذا الحديث وبعده نشترط في المجتهد أن يكون متحلياً بفضيلة التقوى . .

إن قم الفقهاء جميعاً من الأولياء ، والاجتهاد الصادق عند المجتهدين القمم هو فتح من الله ، ونور من لدنه سبحانه .
ونحن نزور الإمام الشافعي مؤمنين بأنه من أولياء الله ، وأهل العراق يزورون الإمام أبا حنيفة مؤمنين بأنه من الأولياء . . وهكذا .
ولن يأتي فتح الله إلا لمن تحلى بالتقوى ، والله سبحانه وتعالى يقول :
﴿ ومن يتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ﴾ . .

الفصل الثالث

الإمام الغزالي والمتكلمون

١

يحتل البحث في نظرية المعرفة مكاناً كبيراً في العصر الحاضر ، حتى لقد رأى بعض المفكرين أن نظرية المعرفة إنما هي نصف الفلسفة .
وإنه لمن الطبيعي أن يبحث الإنسان في الوسائل التي تؤدي به إلى الهدف الذي يريده ، ومن هنا كانت أهمية نظرية المعرفة في الفلسفة الحديثة .
بيد أن البحث في هذا الجانب أصبح في العصر الحاضر كأنه هدف لا وسيلة فأصبحت نظرية المعرفة تدرس لنفسها ، كأنها جزء من الفلسفة .
ومن الواضح أنه من الانحراف عن الطريق الفلسفي المستقيم أن يوجد إنسان يستمر طيلة حياته يبحث في نظرية المعرفة من جميع أطرافها ويقتصر على ذلك فلا يتخطاه إلى المعرفة نفسها ، ومع ذلك يطلق عليه الباحثون لقب « فيلسوف » .

ومن أجل ذلك أخذ بعض المفكرين يتكلمون على بعض دارسي الفلسفة في العصر الحديث . لأنهم يشغلون أنفسهم بالوسيلة عن الغاية ، أي يشغلون أنفسهم بنظرية المعرفة ولا يلتفتون بأنفسهم في خضم المعرفة نفسها يرتشفون منه وينهلون . .

وشغلت نظرية المعرفة الإمام الغزالي ، لقد فكر في وسائل المعرفة ودرسها ، وانتقدتها ، وسواء كانت الوسيلة : هي الحس أو هي العقل ؟ ، فإنه قدر كلاً حقاً تقديره ووضعها في مكانه المناسب له . وستحدث عن ذلك حيناً نتحدث عن موقفه من الفلسفة .

وشغل نفسه بنظرية المعرفة من حيث الاتجاهات والطرق والسبل التي سارت فيها طوائف مختلفة من الباحثين فوصلوا إلى نتائج مختلفة تتفق أحياناً وتختلف وتعارض في كثير من الأحيان .

وبدأ بحثه في هذا الجانب بمصر الطالبين للحق السالكين سبيله سواء كانوا سائرين على الطريق الصحيح أم متكبين سواء الصراط .

فوجدهم لا يعدون أربع فرق :

١- المتكلمون : وهم يدعون أنهم أهل الرأي والتفكير .
٢- الباطنية : وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم ، والمخصوصون بالاعتباس من الإمام المعصوم .

٣- الفلاسفة : وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان .

٤- الصوفية : وهم يدعون أنهم خواص الحضرة ، وأهل المشاهدة والمكاشفة^(١) وهذا الحصر للسالكين سبيل طلب الحق ، أوسع مما تبحث فيه الفلسفة الحديثة . إذ الفلسفة الحديثة تهمل إجمالاً يكاد يكون تماماً طريقة

(١) التقى من الضلال .

المتكلمين ، وتهمل أيضاً إهمالاً يكاد يكون تاماً هؤلاء الذين يزعمون أنهم « أصحاب التعليم ومن الخصوصيين بالاعتباس من الإمام المعصوم » .
ويبدأ الإمام الغزالي ، بعد هذا الحصر ، بالبحث في عمق هذه الطرق واستقصاء ما عندها مبتدأ بعلم الكلام .

وعلم الكلام ، الذي كان على عهد الإمام الغزالي ، هو علم الكلام الذي ندرسه الآن ، فإذا تحدث الإمام الغزالي عنه فليس ذلك الحديث مختصاً بالفترة التي عاش فيها الإمام الغزالي ، وإنما هو يصل إلى العصر الحاضر ، وإلى هذا النهج من الدراسة الموجودة في كتب علم الكلام المتداولة الآن .
وإذا تحدث عنه الإمام الغزالي فإنما يتحدث حديث الوثائق الحخير ، فقد حصل وطلاع كتب المحققين فيه وصنف فيه ما أراد الله أن يصنف ، ثم كان له في النهاية رأيه الشخصي .

وهذا الرأي الشخصي رأى جرىء حاسم يتفق حقيقة مع الوضع الإسلامي الصحيح ، ولكن الظروف أوجدت الإمام الغزالي في بيئة كان لعلم الكلام فيها - على ما هو عليه - قداسته واحترامه ، فحاول الإمام الغزالي أن يعلن رأيه على أساليب مختلفة وعلى أنماط متعددة منها الجمال الرفيق الذي لا يرضى كل الرضا ولكنه يتسامح في أسلوبه ويجمال في تعبيراته ويعطف ويشفق ، ومع ذلك يتبين في وضوح أن الوضع خطأ ، وفي أحيان أخرى تضيق نفسه بالوضع الخاطئ فيغضب ويثور ويحسم الأمر في أسلوب قوي ، وفي حلة ، ما كان الإنسان يتوقعها من صاحب « الاقتصاد في الاعتقاد » .

ومن أجل أن يكون رأى الغزالي مقنعاً ، ومن أجل أن يأخذ رأيه المكاتبة التي يريدتها والذبيوع والانتشار الذي يطمح إليه أخذ يستشهد بآراء أئمة السلف

في علم الكلام كالإمام مالك والإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل وغيرهم من السلف الصالح الذين تؤمن بسعة علمهم وبإخلاصهم وبتابعهم للنهج الديني الصحيح .

والآن نذكر رأيه في صورته الحاسمة : إنه يتحدث عن علم الكلام في كتابه النفيس « إحياء علوم الدين » فيقول : « وأما منفعتة فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه ، وهيات ، فليس في الكلام وفاء لهذا المطلب الشريف . ولعل التخييط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف . هذا إذا سمعته من محدث أو حشوى ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا . فاصبر هذا ممن خبر الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين . وجاوز ذلك إلى التعمق في علوم أخر تناسب نوع الكلام وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود^(٢) » .

ويرى الإمام أن المتكلم لا يزيد على العامى إلا في صنعة الكلام ، ولأجله سميت صناعته كلاماً .

أما إذا تساءلت عن إيمان المتكلمين فإن إيمانهم « ممزوج بنوع استدلال ودرجته قريبة من درجة إيمان العوام^(٣) » .

ويروى الإمام الغزالي أن « جميع أهل الحديث من السلف » ذهبوا إلى تحريم الكلام وإلى التحريم أيضاً « ذهب الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان » وسيأتي توضيح رأيهم .

هذا الاتجاه الذي سار فيه الإمام الغزالي إنما هو اتجاه الصوفية على وجه

(٢) الإحياء ج ١

(٣) الإحياء ج ١

العموم وهو فيما نرى الرأي الصحيح الذي انتهى إليه الإمام الغزالي بعد تجربة
محصنة وخبرة واعية .

٣

نصوص

هذه النصوص مأخوذة في قسمها الأول من كتاب الإمام السيوطي « صون
المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام » ، ونحن نتفق مع الإمام السيوطي
اتفاقاً كاملاً في وجهة نظره في هذا الكتاب .

والقسم الثاني من هذه النصوص مأخوذ من كتاب « إحياء علوم الدين »
لا على أنه رأى الإمام الغزالي ، وإنما على أن الإمام الغزالي جامع لمختلف الآراء
في موضوع علم الكلام ، فأخذنا منه وجهة نظر خاصة ، أخذناها على اعتبار أن
دور الإمام الغزالي إنما هو دور المؤرخ الناقل ليس إلا .

القسم الأول :

قال عليه السلام : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من
خلفهم حتى يأتي أمر الله » .

وأخرج المروى عن معاوية أنه قام فقال : « أما بعد ، فإنه بلغني أن رجلاً
منكم يتحدثون بأحاديث ليست في كتاب الله ولا تعرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
أولئك جهالكم » .

وأخرج المروى عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا لم يعلم الشيء لم يقل فيه برأيه ولم يتكلفه .

وأخرج المروى عن سهل بن حنيف قال : يأبى الناس اتهموا رأيكم فلقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ يوم أبي جندل ، ولو نستطيع أن نرد على رسول الله ﷺ أمره لرددناه ، [الحديث أخرجه البخارى] .

وأخرج المروى عن عمر بن الخطاب قال : يأبى الناس اتهموا الرأى على الدين فلقد رأيتنى أرد أمر رسول الله ﷺ ، برأى اجتهاداً ، والله ما آلوا عن الحق ، وذلك يوم أبي جندل .

وأخرج المروى عن ابن عباس قال : إياكم والرأى فإن الله رد على الملائكة الرأى ، قال : إني أعلم ما لا تعلمون . . . وقال لنييه ﷺ : ﴿ لتحكم بين الناس بما أراك الله ﴾ ، ولم يقل بما رأيت .

وقال شيخ الإسلام إسماعيل المروى ، فى باب ذم اتباع متشابه القرآن والجدال به :

عن عائشة قالت : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب ﴾ فقال : إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه ، فألتك الذين سمى الله ، فاحذروهم .

وأخرج عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ فأما الذين فى قلوبهم زيغ ﴾ ، قال : هم أصحاب الخصومات والمراء فى دين الله .

وأخرج عن أبى ، قال : ما استبان لك فاعمل به ، وانضع به ، وما شبه عليك فأمن به وكله إلى الله .

وأخرج عن سعيد بن المسيب قال : قام عمر بن الخطاب فى الناس فقال :

أيها الناس : ألا إن أصحاب الرأي أعداء السنة أعييتهم الأحاديث أن يحفظوها وتفلت منهم أن يعوها فعاندوا السن برأيهم فضلوا وأضلوا كثيراً ، والذي نفس عمر بيده ما قبض الله نبيه ، ولا رفع الوحي عنهم ، حتى أغناهم عن الرأي ولو كان الدين يؤخذ بالرأي ، لكان أسفل الخف أحق بالمسح من ظاهره فإياكم وإياهم ، ثم إياكم وإياهم .

وأخرج المروى عن هشام بن عبد الملك أنه قال لبيته : إياكم وأصحاب الكلام فإن أمرهم لا يؤول إلى الرشاد .

وأخرج المروى عن مالك قال : إياكم والبدع . قيل : يا أبا عبد الله وما البدع ؟ قال : أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته ، ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان .

وأخرج عن مالك قال : من طلب الدين بالكلام تزندق .

وأخرج عن عبد الرحمن بن مهدي قال : دخلت على مالك وعنده رجل يسأله عن القرآن فقال : لعلك من أصحاب عمرو بن عبيد ، لعن الله عمرأ فإنه ابتدع هذه البدع من الكلام . ولو كان الكلام علماً لتكلم فيه الصحابة والتابعون كما تكلموا في الأحكام والشرائع ، ولكنه باطل يدل على باطل .

وعن يونس بن عبد الأعلى قال : سمعت الشافعي يقول : إذا سمعت الرجل يقول : الاسم غير المسمى والشئ غير الشئ ، فاشهد عليه بالزندقة .

وقيل لأبي حنيفة : ما تقول فيما أحدث الناس من الكلام في الأعراض والأجسام ؟ فقال : مقالات الفلاسفة . عليك بالأثر وطريقة السلف ، وإياك وكل محدثة فإنها بدعة .

وعن الأوزاعي قال : « عليك بآثار السلف وإياك وآراء الرجال ، وإن زخرفوها بالقول » .

وأخرج عن عبد الله بن داود الحريزي قال : سألت سفيان الثوري عن الكلام ، فقال : دع الباطل أين أنت عن الحق ، اتبع السنة ودع الباطل .
وأخرج عن أحمد بن مهدي قال : سألت أبا جعفر الثقفلي عن الخوض في الكلام ، فقال : سئل الأوزاعي عنه فقال : اجتنب علماً إذا بلغت فيه المنتهى نسبوكم للزندقة ، عليك بالاعتدال والتقليد .

وأخرج عن أبي يوسف القاضي قال : من طلب الدين بالكلام تزندق .
وأخرج عن أبي يوسف : قال العلم بالخصومة والكلام جهل ، والجهل بالخصومة والكلام علم .

وأخرج عن محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة : لعن الله عمرو بن عبيد ، فإنه فتح للناس الطريق إلى الكلام فيما لا يعنيه من الكلام ، قال : وكان أبو حنيفة يبحث على الفقه وينهاها عن الكلام .

وأخرج عن أبي القاسم عثمان بن سعيد الأنماطي ، قال : سمعت المزي يقول : كنت أنظر في الكلام قبل أن يقدم الشافعي ، فلما قدم الشافعي أتته فسألته عن مسألة في الكلام ، فقال لي : تدري أين أنت ؟ قلت : نعم أنا في المسجد الجامع بالفسطاط ، فقال له : أنت في تاران ؟ قال أبو القاسم : وتاران موضع في بحر القلزم لا تكاد تسلم منه سفينة . ثم ألقى على مسألة من الفقه ، فأجبت فيه ، فأدخل شيئاً أفسد جوابي ، فأجبت بغير ذلك ، فأدخل شيئاً أفسد جوابي ، فجعلت كلما أجبت بشيء أفسده ، ثم قال لي : هلنا الفقه الذي فيه الكتاب والسنة وأقاويل الناس يدخله مثل هذا ، فكيف الكلام في رب

العالمين ، الذي الزلل فيه كفر ، فتركت الكلام وأقبلت على الفقه .
 وأخرج عن طريق عبد الله بن أحمد بن حنبل قال : سمعت محمد بن داود
 قال : لم يحفظ في دهر الشافعي كله أنه تكلم في شيء من الأهواء ولا نسب
 إليه ، ولا عرف به مع بغضه لأهل الكلام والبدع .
 وأخرج عن طريق عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه ، قال : كان
 الشافعي إذا ثبت عنده الخبر قلده ، ونحير خصلة كانت فيه لم يكن يشتهي
 الكلام إنما هم الفقه .
 وأخرج عن المزني أن رجلاً سأله عن شيء من الكلام فقال : إني أكره
 هذا ، بل أنهى عنه كما نهى عنه الشافعي .
 وأخرج من طريق أبي داود وأبي ثور قالوا : سمعنا الشافعي يقول : ما من
 أحد ارتدى بالكلام فأفلح .
 وأخرج من طريق الحسين بن إسماعيل المحاملي قال : قال المزني : سألت
 الشافعي عن مسألة من الكلام ، فقال : سألني عن شيء إذا أخطأت فيه قلت
 أخطأت ، ولا تسألني عن شيء إذ أخطأت قلت كفرت .
 وأخرج عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم قال : قال لي الشافعي :
 يا محمد إن سألك رجل عن شيء من الكلام فلا تجبه فإنه إن سألك عن دية ،
 قلت درهماً أو دانتاً ، قال لك أخطأت ، وإن سألك عن شيء من الكلام
 فقلت قال لك كفرت .
 وأخرج عن الربيع بن سليمان سمعت الشافعي يقول : المرء في الدين يقسو
 القلب ويورث الضغائن .
 وأخرج عن الربيع قال : قال لي الشافعي : يا ربيع اقبل مني ثلاثة أشياء ،

لا تخض في أصحاب رسول الله ﷺ فإن خصمك النبي ﷺ يوم القيامة ،
ولا تشتغل بالكلام فإنني قد اطلعت من أهل الكلام على التعطيل ، ولا تشتغل
بالنجوم ، فإنه يجر إلى التعطيل .

وأخرج عن محمد بن عبد العزيز الأشعري صاحب الشافعي قال : قال
الشافعي : مذمى في أهل الكلام تفنيح رهوسهم بالسياط وتشريدهم من
البلاد .

وأخرج عن الكرايبي قال : قال الشافعي حكى في أهل الكلام حكم
عمر في صبيخ .

وأخرج عن أبي ثور والكرايبي والزعفراني قالوا : سمعنا الشافعي يقول :
حكى في أهل الكلام أن يضربوا بالجرید ومحملوا على الايل ويطاف بهم في
العشائر والقبائل وينادى عليهم هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على
الكلام .

عن أبي ثور قال : قلت للشافعي ضع في الكلام شيئاً ، فقال : من ارتدى
بالكلام لم يفلح .

وأخرج من طريق ابن خزيمة : سمعت يونس بن عبد الأعلى قال : قال
الشافعي : لأن يبتلى الله المرء بما نهى عنه خلاً الشرك خير من أن يبتليه
بالكلام .

وأخرج عن الزعفراني قال : كان الشافعي يعم بهامة كبيرة كأنه أعرابي
ويده هراوة ، وكان أذرب الناس لساناً ، وكان إذا خيض في مجلسه بالكلام
نهى عنه ، وقال : لسا بأصحاب كلام .

وأخرج عن أحمد بن الوزير القاضي قال : قلت لأبي عمر الضرير :

الرجل يتعلم شيئاً من الكلام يرد به على أهل الجهل ، فقال : الكلام كله جهل ، وإنك كلما كنت بالجهل أعلم كنت بالعلم أجهل .
عن عثمان بن سعيد الدارمي قال : لا نكيف هذه الصفات ولا نكذب بها ولا نفسرها .

ولقد ذكر يونس بن عبد الأعلى عن الشافعي أنه قال : ما من ذنب يلقي الله به عبد بعد الشرك بالله ، أعظم من أن يلقاه بهذا الكلام . قال : فقلت له : فإن صاحبنا الليث بن سعد كان يقول : لو رأيت رجلاً من أهل الكلام يمشي على الماء فلا تركزن إليه . فقال الشافعي : لقد قصر . إن رأيت يمشي في الهواء فلا تركزن إليه .

وقال يونس بن عبد الأعلى ، عن الشافعي ، قال : مذمبي في أهل الكلام مذنب عمر في صبيخ تقنع زهوسهم بالسياط ويسرون من البلاد .
وأخرج عن جعفر الفرعاني قال : سمعت الجنيد بن محمد يقول : أقل ما في الكلام سقوط هيئة الرب من القلب - والقلب إذا عرى من الهيئة بالله عرى من الإيمان .

« ثم هو نفسه ~~كأنه~~ قد بعث إلى جميع أهل الأديان ، لما جادلهم إلا بما تلى عليهم من التنزيل ، ولو شاء كلمهم بالمقاييس ودقيق الكلام . ولو كان ذلك هدى كان أولى به وعليه أقوى فلم تقم عليهم الحجة إلا بالتنزيل ، وضرب عن جلدكم باللقايق وعلم أن ذلك رضي ومحبة لربه فترك الجدل والتحصومات من السنة . »

« ما يؤمنني أن أقيم الحجة ببعض التأويل أو القياس أرى أنه أهدى ، وهو عند الله كذب عليه . وقد تبين لي ذلك فيما مضى من عمري ؛ قد كنت أقول

القول ثم يتبين لي أنه خطأ فأرجع عنه .

« وما من كلام نسمعه لفرقة منهم ، إلا ولخصومهم عليه كلام يوازيه أو يقاربه ، فكل بكل معارض وبعض ببعض مقابل ، وإنما يكون تقدم الواحد منهم وقلجه على خصمه ، بقدر حظه من البيان وحذقه في صنعة الجدل والكلام وأكثر ما يظهر به بعضهم على بعض ، إنما هو إلزام من طريق الجدل على أصول مؤصلة ، ومناقضات على مقالات حفظوها عليهم ، فهم يطالبونهم بعودها وطردتها ، فن تقاعد عن شيء منها سموه من طريق الجدل ، منقطعاً وجعلوه مبطلاً ، وحكموا بالفلج لخصمه عليه .

والجدل لا يبين به حق ، ولا تقوم به حجة ، وقد يكون الخصمان على مقالتين مختلفتين . كلتاها باطلة ، ويكون الحق في ثالثة غيرها فناقضة أحدهما صاحبه غير مصحح مذهبه وإن كان مفسداً به قول خصمه لأنها مجتمعان معاً في الخطأ مشتركان فيه كقول الشاعر فيهم :

حجج تهافت كالزجاج نحاها
حقاً وكل كاسر مكسور

وإنما كان الأمر كذلك لأن واحداً من الفريقين لا يعتمد في مقاله التي ينصرها أصلاً صحيحاً وإنما هو أوضاع وآراء تتكافأ وتتقابل ، فيكثر المقال ويدوم الاختلاف ، ويقل الصواب .

قال الله تعالى : ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ .
فأخبر سبحانه أن ما كثر فيه الاختلاف فإنه ليس من عنده ، وهذا من أدل الدليل على أن مذاهب المتكلمين فاسدة لكثرة ما يوجد فيها من الاختلاف المفضى بهم إلى التكفير والتضليل ، وذلك صفة الباطل الذي أخبر الله سبحانه

عنه . ثم قال في صفة الحق : ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ (٤) .

القسم الثاني :

ونأتي الآن إلى ما ذكره الإمام الغزالي في كتابه « إحياء علوم الدين » ط الشعب ج ١ ص ١٦٣ وما بعدها ، إنه يقول :
فإن قلت تعلم الجدل والكلام منموم كتعلم النجوم أو هو مباح أو مندوب إليه ؟ فاعلم أن للناس في هذا غلو وإسرافاً في أطراف : فمن قائل إنه بدعة وحرام وإن العبد إن لقي الله عز وجل بكل ذنب سوى الشرك ، خير له من أن يلقاه بالكلام . ومن قائل إنه واجب وفرض إما على الكفاية أو على الأعيان ، وأنه أفضل الأعمال ، وأعلى القربات ، فإنه تحقيق لعلم التوحيد ، ونضال عن دين الله تعالى .

وإلى التحريم ذهب الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أهل الحديث من السلف .

قال ابن عبد الأعلى رحمه الله : سمعت الشافعي رضي الله عنه يوم ناظر حفصاً الفرد ، وكان من متكلمي المعتزلة ، يقول : لأن يلقى الله عز وجل العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بشيء من علم الكلام . ولقد سمعت من حفص كلاماً لا أقدر أن أحكيه .

وقال أيضاً : قد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننته قط ، ولأن يبتي العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك خير له من أن ينظر في الكلام .

(٤) كلام أبي أحمد بن محمد الخطابي في كتابه : الغنية عن الكلام .

وحكى الكرايسى أن الشافعى رضى الله عنه سئل عن شيء من الكلام
فغضب وقال سل عن هذا حفصاً الفرد وأصحابه أنزاهم الله .

ولا مرض الشافعى رضى الله عنه دخل عليه حفص فقال له من أنا ؟
فقال حفص الفرد : لا حفظك الله ورعاك حتى تتوب مما أنت فيه .
وقال أيضاً : لو علم الناس ما فى الكلام من الأهواء لفروا منه فرارهم من
الأسد .

وقال أيضاً : إذا سمعت الرجل يقول الاسم هو المسمى أو غير المسمى فاشهد
بأنه من أهل الكلام ولا دين له .

قال الزعفرانى : قال : الشافعى حكى فى أصحاب الكلام أن يضربوا
بالجرىد ويطاف بهم فى القبائل والمشارير ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب
والسنة وأخذ فى الكلام .

وقال أحمد بن حنبل : لا يفلح صاحب الكلام أبداً ، ولا تكاد ترى أحداً
نظر فى الكلام إلا وفى قلبه دغل ، ونبالغ فى ذمه حتى هجر الحارث المحاسبى مع
زهده وورعه بسبب تصنيفه كتاباً فى الرد على المبتدعة . وقال له : ويحك أأنت
تحكى بدعتهم أولاً ثم ترد عليهم ! أأنت تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة
البدعة والتمسك فى تلك الشبهات ؟ فيدعوهم ذلك إلى الرأى والبحث ! .

وقال أحمد رحمه الله : علماء الكلام زنادقة .

وقال مالك رحمه الله : أرايت إن جاءه من هو أجدل منه ؟ أيدع دينه كل
يوم . لدين جديد ؟ يعنى أن أقوال المتجادلين تضاوت .

وقال مالك رحمه الله أيضاً : لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء . فقال

بعض أصحابه في تأويله إنه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام على أي مذهب كانوا .

وقال أبو يوسف : من طلب العلم بالكلام ترتدق .
وقال الحسن : لا يجادلوا أهل الأهواء ولا يجالسوهم ولا تسمعوا منهم .
وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا ، ولا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه ، وقالوا : ما سكت عنه الصحابة ، مع أنهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم إلا لعلمهم بما يتولد منه من الشر ، ولذلك قال : النبي ﷺ (٥) : هلك المتطعون ، هلك المتطعون ، هلك المتطعون ؟ (أي المتعمقون في البحث والاستقصاء جدلاً) .

واحتجوا أيضاً بأن ذلك لو كان من الدين لكان ذلك أهم ما يأمر به رسول الله ﷺ ويعلم طريقه ويثنى عليه وعلى أربابه فقد علمهم الاستجاء (٦) ونديهم إلى علم الفرائض وأثنى عليهم (٧) ونهاهم عن الكلام في القدر وقال : (أمسكوا عن القدر) .

وعلى هذا استمر الصحابة - رضي الله عنهم - فالزيادة على الأستاذ طغيان وظلم ، وهم الأستاذون والقنوة ، ونحن الأتباع والتلامذة .
وقد ذكر الإمام الغزالي بعد ذلك رأى الفريق المعارض لهذا ورأيه الشخصي ، ولكننا نكتفي هنا بأن نذكر رأى الأئمة الذين تقتدى بهم في عبادتنا ، ورأى المحدثين .

(٥) حديث هلك المتطعون . مسلم من حديث ابن مسعود .

(٦) حديث أن النبي ﷺ علمهم الاستجاء : مسلم من حديث سلمان الفارسي .

(٧) حديث نديهم إلى علم الفرائض وأثنى عليهم : ابن ماجه من حديث أبي هريرة تعلموا الفرائض وعلموها الناس الحديث ، وللقزويني من حديث أنس وأقرضهم زيد بن ثابت .

إننا مع هؤلاء ومها قيل من آراء أخرى ، فإننا نكتفي برأي هؤلاء . ونعتر
بأن نكون في صف الشافعي ، ومالك ، وأحمد بن حنبل ، والثوري ،
وجميع المحدثين .

الفصل الرابع

علم الكلام فيما ينبى أن يكون

١

هذه المسائل التي ذكرناها تكون - مع فروعها ولوازمها - ثلاثة أرباع علم الكلام التقليدي على التقريب .

وقد يتساءل القارئ عن علم الكلام فيما ينبى أن يكون . وعلم الكلام فيما ينبى أن يكون ، إنما يدور حول النبوة أولاً . إنه يدور حول إثباتها على وجه العموم ، وإثباتها في استفاضة على وجه الخصوص بالنسبة لسيدنا محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ويدور ثانياً حول بيان أن الدعوة - في آياتها المحكمات - إنما هي : آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ، وأن الذين يرتابون فيها هم المبطلون وأن الذين يمحطون بها هم الظالمون . وتعبير آخر : يتركز علم الكلام في الداعي والدعوة ، إنه يتركز في الداعي في صورة مستفيضة ، ويتركز في الدعوة على صورة جملة .

وهذا الذي نذكره : إنما هو المنهج الذي اخطله القرآن . والآية الكريمة التالية : تجمع الجانبين ، يقول الله تعالى :

﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذن
لا رتاب المبطلون ﴾ .

وهذا في شأن الداعي ، وتستمر الآيات ، فيقول الله تعالى :
﴿ بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ، وما يجحد بآياتنا إلا
الظالمون ﴾ .
وهذا في شأن الدعوة .

وهذا المنهج هو منهج الرسول - ﷺ ، يتابع فيه القرآن ، فإنه ، ﷺ ،
حين أمر بالجهار بالدعوة : تحدى العرب بصدقه : أي أنه ، ﷺ ، كان بين
صدق الداعي .

ولما جاءه عتبة يفاوضه في شأن التزول عن دعوته : لم يعمل ، ﷺ ، شيئاً
سوى أنه قرأ عليه صدر السورة الكريمة ، سورة فصلت .
وهذا المنهج : هو الذي اتبعه أصحاب الآفاق الواسعة من البشر في
الوصول إلى تعرف الحقيقة عن طريق : حال الداعي - وقيمة الدعوة ، وهو
المنهج الذي تريد أن تلتزمه إن شاء الله تعالى متخذين من الوسائل لذلك آراء
بعض الذين اتبعوه ومن الله نرجو العون والهداية .

٢

إن الله يصطفى من الناس رسلاً .
﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ﴾ (١) .
يصطفهم فيعلمهم إعداداً خاصاً قبل ميلادهم ، يعلمهم في أصلاب

(١) آل عمران : ٣٣

أجدادهم وآبائهم ، فيخير الله عز وجل لهم الأجداد والآباء . يقول الإمام
البوصيري عن رسول الله ﷺ :

لم تزل في ضائر الكون تحت رلك الأمهات والآباء

ويقول : أبان مولده عن طيب عنصره ...

بعد سبحانه ، أوعيتهم - الجدات والأمهات - خلقاً وخلقاً ، وبعد
سبحانه الرسل بعد ميلادهم : وسطاً ، وبيته .

يعلمهم على عينه : ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ .

ويصطنعهم لنفسه : ﴿ واصطنعتك لنفسي ﴾ .

ويقول ﷺ ، عن كل ذلك فيما رواه الإمام مسلم ، إن الله اصطفى من ولد
إبراهيم : إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل : بنى كنانة ، واصطفى من بنى
كنانة : قريشاً ، واصطفى من قريش : بنى هاشم ، واصطفاى من بنى هاشم ، .
لقد رسم الله ماضيهم البعيد . ورسم حاضرهم الذى عاشوه طفولة فشباباً .
فكهولة ، فشيخوخة ، منذ الأزل . يقول سبحانه وتعالى فى سيدنا عيسى عليه
السلام :

﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن
مريم وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس فى المهد وكهلاً ومن
الصالحين ﴾ (٣) .

﴿ ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً ﴾ (٣) .

وهذا الذى يذكره ، عز وجل ، بمناسبة سيدنا عيسى عليه السلام : من أنه

(٢) آل عمران (٤٥ - ٤٦)

(٣) مريم : ٢١

كان أمراً مقضياً ، قبل ميلاده : ليس خاصاً بسيدنا عيسى ، إنما هو عام في كل الأنبياء والرسل ، إن أمرهم كان مقضياً قبل أن يولدوا ، بل إن الله ، سبحانه وتعالى : قضى في أزله أن يكونوا ذوى حسب في قومهم ، وذى منعة من عشيرتهم .

٣

والرسل والأنبياء علامات مميزة . وسماوات محددة يتحدث عنها ابن خلدون حديثاً دقيقاً ، فيقول :

اعلم أن الله سبحانه اصطفى من البشر أشخاصاً خصهم بخطابه ، وفطرهم على معرفته ، وجعلهم وسائل بينه وبين عباده ، يعرفونهم بمصالحهم ، ويحرضونهم على هدايتهم ، ويأخذون بمحجزاتهم عن النار ، ويدلونهم على طريق النجاة .

وكان فيما يليه إليهم من المعارف ويظهره على ألسنتهم من الخوارق والأخبار ، الكائنات المغيبة عن البشر ، التي لا سبيل إلى معرفتها إلا من الله بوساطتهم ، ولا يعلمونها إلا بتعليم الله إياهم . قال ﷺ :
« ألا وإني لا أعلم إلا ما علمني الله » .

واعلم أن خبرهم في ذلك من خاصيته وضرورته الصديق ، لما يتبين لك عند بيان حقيقة النبوة .

وعلمة هذا الصنف من البشر أن توجد لهم في حال الوحي غيبة عن الحاضرين معهم مع غطيط كأنها غشية أو إغماء في رأى العين وليست منها في شيء . وإنما هي في الحقيقة استفراق في لقاء الملك الروحاني بإدراكهم المناسب

لهم الخارج عن مدارك البشر بالكلية . ثم ينتزل إلى المدارك البشرية إما بسمع
دوى من الكلام فيفهمه ، أو يتمثل له في صورة شخص يخاطبه بما جاء به من
عند الله . ثم تتجلى عنه تلك الحال وقد وعى ما ألقى إليه . قال عليه السلام ، وقد مثل
عن الوحي : « أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ فيفصم عني
وقد وعيت ما قال : وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول »
ويدركه في أثناء ذلك من الشدة والفظ مالا يعبر عنه . ففي الحديث :

« كان مما يعالج من التريل شدة » . . .

وقالت عائشة : « كان يتزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم منه ،
وإن جبينه ليضمد عرقاً » .

وقال تعالى : ﴿ إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً ﴾ .
ولأجل هذه الحالة في تنزل الوحي كان المشركون يرمون الأنبياء بالجنون ،
ويقولون : له رقى أو تابع من الجن ، وإنما لبس عليهم بما شاهدوه من ظاهر
تلك الأحوال : ﴿ ومن يضل الله فإله من هاد ﴾ .
ومن علاماتهم أيضاً أنه يوجد لهم قبل الوحي خلق الخير والزكاة ، وبجانبه
المطمومات والرجس أجمع . وهذا هو معنى العصمة . وكأنه مفطور على التنزه
عن المطمومات والمنافرة لها ، وكأنها منافية لجبته ، وفي الصحيح أنه حمل
الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة فجعلها في إزاره ، فأنكشف
فسقط مغشياً عليه حتى استر يزاره ، ودعى إلى مجتمع ولجة فيها عرس ولعب
فأصابه غشى النوم إلى أن طلعت الشمس ولم يحضر شيئاً من شأنهم ، بل نزهه
الله عن ذلك كله ، حتى إنه يجبلته ينتزه عن المطمومات المستكرهه . فقد كان
عليه السلام ، لا يقرب البصل . والثوم . فقيل له في ذلك . فقال :

« إني أتاجي من لا تتاجون » .

وانظر لما أخبر النبي ، ﷺ ، خديجة ، رضى الله عنها ، بحال الوحي أول ما فجأته وأرادت اختباره ، فقالت : اجعلنى بينك وبين ثوبك ، فلما فعل ذلك ذهب عنه ، فقالت : إنه ملك وليس بشيطان .

ومعناه أنه لا يقرب النساء .

وكذلك سأله عن أحب الثياب إليه أن يأتيه فيها .

فقال : البياض والخضرة .

فقالت : إنه الملك .

يعنى أن البياض والخضرة من ألوان الخير والملائكة ، والسواد من ألوان الشر والشياطين وأمثال ذلك .

ومن علاماتهم أيضاً دعاؤهم إلى الدين والعبادة من الصلاة والصدقة والعفاف وقد استدلّت خديجة على صدقه ، ﷺ ، بذلك ، وكذلك أبو بكر ، ولم يحتاجا في أمره إلى دليل خارج عن حاله وخلقه .

وفي الصحيح أن هرقل حين جاءه كتاب النبي ، ﷺ ، يدعو إلى الإسلام أحضر من وجد ببلده من قريش ، وفيهم أبو سفيان ليسألهم عن حاله ، فكان فيما سأل أن قال : بم يأمركم ؟

فقال أبو سفيان : بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف إلى آخر ما سأل فأجابه ، فقال :

« إن يكن ما يقول حقاً فهو نبي ، وسيملك ما تحت قلبي هاتين » .

والعفاف الذى أشار إليه هرقل هو العصمة .

فانظر كيف أخذ من العصمة والدعاء إلى الدين والعبادة ، دليلاً على صحة

نبوته . ولم يحتاج إلى معجزة . فدل على أن ذلك من علامات النبوة . ومن
علاماتهم أيضاً أن يكونوا ذوى حسب في قومهم . وفي الصحيح : « ما بعث
الله نبياً إلا في منعة من قومه » وفي رواية أخرى « في ثروة من قومه » ، استدركه
الحاكم على الصحيحين . وفي مسألة هرقل لأبي سفيان كما هو في الصحيح
قال : « كيف هو فيكم ؟ »

قال أبو سفيان : « هو فينا ذو حسب » .

فقال هرقل : « وكذلك الرسل تبعث في أحساب قومها »
ومعناه أن تكون له عصبية وشوكة تمنعه عن أذى الكفار حتى يبلغ رسالة ربه
ويتم مراد الله من إكمال دينه وملته .

ومن علاماتهم أيضاً وقوع الخوارق لهم شاهدة بصدقهم ، وهي أفعال
يعجز البشر عن مثلها فسميت بذلك معجزة ، وليست من جنس مقدور
العباد ، وإنما تقع في غير محل قدرتهم^(٤) ، ا هـ .

٤

فإذا أصبحت نفوسهم - بتريية الله وعنايته - أهلاً للتلقى فاجأها الوحي
وهي سائرة في الوادي المقدس ، وفي البقعة المباركة .
﴿ وهل أتاك حديث موسى . إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً
لعل آتيكم منها بقبس أو أجدر على النار هدى . فلما أتاها نودى يا موسى . إني أنا
ربك فاطلع نعليك إنيك بالواد المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى .

(٤) مقدمة ابن خلدون تحقيق الدكتور علي عبد الواحد .

إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني . وأقم الصلاة لذكري . إن الساعة آتية أكاد
أنقضها لنجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه
فتردى ﴿٥٠﴾ .

﴿ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله
امكثوا إني آنست نارا لعل آتيكم منها بخير أو جنوة من النار لعلكم تصطلون .
فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى
إني أنا الله رب العالمين ﴿٥١﴾ .

ويفاجئها الوحي وهي في غار حراء .

وعندنا في الإسلام الوثيقة الوحيدة في العالم كله عن كيفية بدء الوحي وهي
وثيقة تحمل في طياتها كثيراً من المعاني الخاصة بالنبوة ويصفقات الرسول ﷺ ،
وهي تشير في صراحة ويسر وسهولة إلى كثير من الآيات الدالة على صدق رسول
الله ، ونظام التبيين ، ولا مناص من الاستفاضة في شرحها وتحليلها فهي ذخيرة
من العبرة والهداية للمتأملين ، وهذه الوثيقة رويت بشق الطرق وبمختلف
الأسانيد ، والقرآن يشير إلى الحالة التي نذكرها بصراحة لا لبس فيها يقول
سبحانه :

﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب
ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى
صراط مستقيم ﴿٥٢﴾ .

(٥) طه : ٩ - ١٦

(٦) القصص : ٢٩ ، ٣٠

(٧) الشورى : ٥٢

﴿ نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين ﴾^(٨) .

أما الوثيقة التي نتحدث عنها فإننا نقلها هنا عن أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى ، وهو كتاب صحيح البخارى : عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : أول ما بدئ به رسول الله ، ﷺ ، من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حيب إليه الحلاء ، وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه ، وهو التعب الليلي ذوات العدد قبل أن يتزعج إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ .

قال : ما أنا بقارئ .

قال : فأخذي فضطى حتى بلغ مني الجهد . ثم أرسلني .

فقال : اقرأ .

قلت : ما أنا بقارئ ، فأخذي فضطى الثانية ، حتى بلغ مني الجهد ،

فقال : اقرأ .

فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذي فضطى الثالثة ، ثم أرسلني فقال :

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك

الأكرم ﴾ .

فرجع بها رسول الله ، ﷺ ، يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت

خويلد ، رضى الله عنها ، فقال : زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروح ،

فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى .

(٨) الشعراء : ١٩٣ - ١٩٥

فقال خديجة :

كلاً والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ،
وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى
- ابن عم خديجة - وكان امرأً قد تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب
العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً
قد عمى ، فقالت له خديجة :

يا بن عم ، اسمع من ابن أخيك :

فقال له ورقة : يا بن أخي ، ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ، ﷺ ، خبر
ما رأى .

فقال له ورقة : هذا الناموس . الذي نزل الله على موسى ، ياليتني فيها
جدعاً ، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك :

فقال رسول الله ﷺ : أو يخرجني هم ؟

قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني
يومك أنصرك نصراً مؤزراً ، ثم لم ينشب ورقة أن توفي ، وفتر الوحي .

قال ابن شهاب : وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله
الأنصاري قال وهو يحدث عن فترة الوحي عن رسول الله ﷺ ، فقال في
حديثه : « بينا أنا أمشي ، إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري ، فإذا
الملك الذي جاءني ببراءة ، جالس على كرمي بين السماء والأرض ، فرعبت منه
فرجعت فقلت : زملوني ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبِّكَ
فَكْبَرُ . وَثِيَابِكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ .

فحمى الوحي وتتابع .
ولنبداً الآن بتحليل هذه الوثيقة الغنية بالمعاني ، الزاخرة بالمفاهيم ، الثرية
بالدلالات .



تقول السيدة عائشة رضی الله عنها :
« أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي : الرؤيا الصالحة في النوم
فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح » .
وتعبر السيدة عائشة يفهم منه أن الرؤيا الصالحة من الوحي ، ومن
الأحاديث التي تستند هذا وتؤيده : الأحاديث التي ترشد إلى أن الرؤيا جزء من
سنة وأربعين جزءاً من النبوة .

وهذا الذي قالته السيدة عائشة هو أحد الأدلة على النبوة . والذي انتهى
إليه عباقرة الفكر وأساطين الآفاق الذهنية الرحبة .
فهذا هو الفارابي يتحدث في كتابه : (آراء أهل المدينة الفاضلة) عن
الرؤيا فيكتب فصلاً مستقلاً عن سبب المنامات ، ثم يتبع هذا مباشرة بفصل
آخر (في الوحي ورؤية الملك) .

وهو يرى أن الرؤيا الصادقة إنما هي اتصال بين الأرض والسماء يتم حينما
تكون المحسات الواردة عن طريق الحواس لا تستغرق القوة للتخيلة استغراقاً
تاماً .

وهذا الذي يتم من هذه الصلة ، حينما تكون الحواس معطلة بالنوم : قد
جره أكثر الخلق ، إن لم يكن كلهم ، وجميع الناس إذن عندهم جزء من

النبوة ، يرشدكم إلى الاستدلال على صحتها وإمكانها ، إذا تبصروا فيه وترووا في أمره .

وهذه الفكرة تسلمنا إلى التحدث عن رأى الإمام الغزالي : إنه يتحدث في كتابه : (إحياء علوم الدين) ، في الاستدلال على أن الاتصال بين السماء والأرض - في صورة الوحي - أمر ممكن وموجود ، ويذكر للدليل القاطع الذي لا يقدر أحد على جحده . ويراها أمرين :

أحدهما : وهو الذي سنقتصر على ذكره هنا إن شاء الله تعالى - عجائب الرؤيا الصادقة :

فإنه يتكشف بها الغيب - وإذا جاز ذلك في النوم فلا يستحيل أيضاً ، في اليقظة فلن يفارق النوم اليقظة إلا في ركود الحواس ، وعدم اشتغالها بالمحسّات : فكم من مستيقظ غافض لا يسمع ولا يبصر لاشتغاله بنفسه . بيد أن الإمام الغزالي يفصل الأمر بعض التفصيل ، حينما يعود إلى الموضوع في كتابه : (المنقذ من الضلال) فيشرح الأمر في صورة أوفى نوعاً ما ، إنه يقول :

وقد قرب الله ، تعالى ذلك على خلقه ، بأن أعطاهم أنموذجاً من خاصية النبوة ، وهو النوم ، إذ التأم يدرك ما سيكون من الغيب : إما صريحاً ، وإما في كسوة مثال يكشف عنه التعبير ، وهذا لو لم يحربه الإنسان من نفسه - وقيل له : إن من الناس من يستيقظ مغشياً عليه كالميت ويزول عنه إحساسه وسمعه وبصره ، فيدرك الغيب لأنكره ، وأقام البرهان على استحالته ، وقال : القوى الحساسة : من أسباب الإدراك ، فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها . وحضورها : فبأن لا يدركها مع ركودها أولى وأحق ، وهذا نوع قياس يكلبه

الوجود والمشاهدة ، فكما أن للعقل طوراً من أطوار الأدمى ، يحصل فيه عين
بيصر بها أنواعاً من المعقولات والحواس معزولة عنها ، فالنبوة أيضاً عبارة عن
طور يحصل فيه عين لها نور يظهر في نورها الغيب ، وأمور لا يدركها العقل .
ولقد حددت السيدة عائشة ، رضى الله عنها الرؤيا بأنها الصالحة ، وهذا
التحديد له أهمية كبرى ، فما من شك أن الأمر كما يقول الرسول ، صلوات الله
وسلامه عليه :

« الرؤيا الصادقة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من
النبوة » .

« وإن الرؤيا من الله والحلم من الشيطان » .

« وإن رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » .

« وأنه لم يبق من النبوة إلا للبشرات قالوا : وما للبشرات ؟ قال : الرؤيا
الصالحة » .

هذه الأحاديث التي نقلناها عن الإمام البخارى رضى الله عنه تساندها
أحاديث أخرى ، وينتهي الأمر بالأحاديث إلى تقسيم ما يراه النائم إلى ثلاثة
أقسام :

قسم من الله وهو الرؤيا الصادقة ، وقسم من الشيطان ، وقسم مما يحدث به
الرجل نفسه في اليقظة فيراه في النوم .

وهذه الأقسام تشتمل على جميع ما يراه الإنسان في النوم .

أما العلم الحديث فقد بين في وضوح تام أثر العوامل الخارجية ، والعوامل
الداخلية الباطنية في الرؤيا .

لقد « أبان » (فرويد) في جلاء أثر للميل الكامنة في تشكيل الرؤى

والأحلام ، وخاصة لدى الكهول والشبان واستطاع (هرفي) و (موري) أن يبرهننا على أن الحلم ، غالباً : ما يكون امتداداً لإحساس سابق ، أو نتيجة لإحساس مقارن ، فقد يحلم الإنسان بحريق في حجراته في الوقت الذي يقع فيه بصيص من الضوء على حلقته في أثناء نومه ، أو بأنه يضرب على أثر ألم في ظهره ، وقد حدث مرة : أن رأى شخص أن داره تنهار به في الوقت الذي انكسرت فيه إحدى قوائم سريره ، ولقد وصل الأمر بهيرني ، أن ظن - بناء على ما سبق - أنه يمكن أن يتصرف الإنسان في أحلامه ويشكلها كما يشاء .
لقد ربط صلة بين بعض الإحساسات وذكريات معينة ، استطاع في نومه استعادة هذه الذكريات بإثارة الإحساسات المتصلة بها .
وقديماً حاول الإغريق أن يحتفظوا بأحلامهم أو يثيروها ، بواسطة بعض الطقوس الدينية^(١) .

وهذا الذي يذكره العلم الحديث في تفسير الرؤيا حق لا مراء فيه .
يبد أن فيه تصوراً واضحاً وجوهرياً عن التفسير اللغوي للرؤيا .
فالذين يذكر ما يذكره العلم الحديث ، ويزيد عليه ما هو بدهي عند كل إنسان : من وجود نوع الرؤيا الصادقة . هو كشف للغيب وتنبؤ به ، سواء أكان غيباً مكانياً ، أم غيباً زمانياً .

وهذا النوع من الرؤيا الصادقة تعترف به الأديان السماوية الكبرى جميعها ، فهي تتحدث عن رؤيا يوسف عليه السلام ، ورؤيا الملك الذي استدعى يوسف عليه السلام من السجن لتأويل رؤياه ، ويقول القرآن الكريم في شأن رسولنا عليه الصلاة والسلام :

(١) عن كتاب : في الفلسفة الإسلامية للدكتور إبراهيم المذكور .

﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين مخلفين به وسكتم ومقصرين لا تخافون ﴾ .

بيد أن الطريف في موضوع الرؤيا : أن لها معبرين ، أو مؤولين أو مفسرين : فإنها ، في الأغلب الأعم : رمزية ، وحل هذه الرموز إنما هو فن قائم بنفسه ، اشتهر به رجال ، وكتبت فيه كتب .

فمن الرجال مثلاً ، محمد بن سيرين ، وعبد الغنى النابلسي ، وخليل بن شاهين القاهري ، وكل منهم ألف في هذه المادة كتاباً .

ولقد كان رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه يسأل الصحابة ، رضوان الله عليهم ، عن رؤياهم ويعبرها لهم ، ويحدثهم هو أحياناً عن رؤيا له ويعبرها ومن ذلك ما قاله صلوات الله عليه وسلامه فيما رواه مسلم :

« رأيت ذات ليلة فيما يرى النائم كأننا في دار عقبة بن رافع ، فأوتينا برطب من رطب ابن طاب » .

« فأولت الرفعة لنا في الدنيا ، والرفعة في الآخرة . وأن ديتنا قد طاب » .
وتعبير الرؤيا وتفسيرها فن يشترك فيه الآن علماء التحليل النفسي ، وهؤلاء الذين يلهمهم الله التعبير من الصالحين .

بيد أن علماء التحليل النفسي يقتصرون على تعبيرها في جوانبها الحسية المادية ويكتفون بذلك ، أما الآخرون : فإنهم يعمرونها في جوانبها الغيبية الصادقة . ولا يضير الحق أن يسجن علماء التحليل النفسي أنفسهم ، وأن يسجن العلم الحديث نفسه في سجن المادة والحواس ، فإن الحق في أمر الرؤيا واضح أبلغ ، والناس من شرقيين وغربيين ، ومن قداماء ومحدثين ، يلاحظون وجود الرؤيا الصادقة ، ووقوعها يجرى في دائرة تجاربهم .

بعد أن تحدثت أم المؤمنين عائشة ، رضى الله عنها : أن :
 « أول ما بدئ به رسول الله ، ﷺ ، من الوحي الرقيا الصالحة في النوم ،
 فكان لا يرى رقيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ... » .

بعد أن ذكرت السيدة عائشة هذا ، أخذت تصف حال رسول الله ،
 صلوات الله عليه وسلامه قبل الوحي :
 لقد حجب الله إليه الخلاء فكان يغادر مكة ويتعد عن حياتها الصاخبة ،
 التي كان يرى فيها من الضلال الشيء الكثير .

يتركها ليخلو بفارحراء فريداً يتأمل ويرجو ويسجد لله متعبداً ، خاشعاً طالباً
 رضاه ، وآملاً في هدايته .

كان يتحنث في هذا الغار : أي يتعبد فيه الليالي ذوات العدد ، قيل أن
 يترع إلى أهله ، ويتروذ ليعود من جديد إلى النسك ، وإلى العبادة .
 لم يكن إذن يطلب مالاً ، أو ثراء ، أو لذة مادية ، أو جاهاً ، أو مجداً عند
 الناس ، إنه يطلب الهداية ويبحث عنها .

ولقد وضع عزوفه عن زخارف الحياة وضوحاً بيناً في قوله وسلوكه .
 وتذكر السيرة النبوية نبأين لها مغزى واحد عميق .

أما النبأ الأول فهو : أن عتبة بن ربيعة ، وكان سيداً في قومه ، قال يوماً
 وهو جالس في نادي قريش ورسول الله ، ﷺ جالس في المسجد وحده :
 يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل

بعضها فنعطيه أيها شاء .

وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ ، يزيدون ويكثرون .

فقالوا : بلى يا أبا الوليد : قم إليه فكلمه .

فقام إليه عتبة ، حتى جلس إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا بن أخي . إنك منا حيث قد علمت : من البسطة في العشيرة . والكمال في النسب ، وإنك قد آتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جاعتهم ، وسفهت به أحلامهم وعبت به آفتهم ، وكفرت من مضي من آباتهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل مني بعضها .

فقال له رسول الله ﷺ : « قل يا أبا الوليد أسمع »

قال : يا بن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا .

وإن كنت إنما تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك .

وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا .

وإن كان هذا الذي بأتيك رؤياً تراه ، لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، ويدلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه ..

حتى إذا فرغ عتبة ، ورسول الله ﷺ ، يستمع منه قال : أقد فرغت

يا أبا الوليد ؟

قال : نعم .

قال : فاسمع مني .

قال : افعل .

فقال ، ﷺ : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم حم تتريل من الرحمن الرحيم .
كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون . بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم
لا يسمعون . وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ... ﴾

ثم مضى رسول الله ، ﷺ ، يقرؤها عليه .

فلما سمعها منه عتبة ، أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها
يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله ﷺ ، إلى السجدة منها فسجد ، ثم قال :
« قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك » .

فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم
أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به !!!

فلما جلس إليهم قالوا :

« ما وراءك يا أبا الوليد ؟ » قال :

« ورأى : أنى سمعت قولاً ، والله ما سمعت مثله قط . والله ما هو بالسحر ،

ولا بالسحر ، ولا بالكهانة . يا معشر قريش ، أطيعوني واجملوها لى ، ونحلوا
بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه
نبأ ، فإن تُصِبه العرب فقد كفيتموه بغيركم . وإن يظهر على العرب لملكه
ملككم وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : « سحرك والله ، يا أبا الوليد بلسانه »

قال :

« هذا رأي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم » . . .

قد يقول قائل : إن هذا العرض قد عرض على محمد من فرد واحد ، ولو

أنه عرض عليه ﷺ من هيئة تستطيع تنفيذه لقبول . هذا القول : ينقضه : أن عتبة كان مفروضاً من زعماء قريش ، وينقضه أيضاً الخبر الآخر الذي ترويه كتب السيرة ، وهو .

لقد اجتمع عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبوسفيان بن حرب ، والنضر بن الحارث - أخو بني عبد الدار - وأبو البختري بن هشام ، والأسود ابن المطلب بن أسد ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام - عليه لعنة الله - وعبد الله بن أبي أمية ، والعاص بن وائل ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان ، وأمية بن خلف ، اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض :

« اهبثوا إلى محمد فكلموه ، وخاصموه ، حتى تعذروا فيه . . فهبثوا إليه : أن أشرف قومك قد اجتمعوا ليكلموك فأتهم .

فجاءهم رسول الله ، ﷺ ، سريعاً ، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بدو ، وكان عليهم حريصاً : يحب رشدهم ويعز عليه عنهم ، حتى جلس إليهم فقالوا له :

« يا محمد ، إنا قد بهتنا إليك لنكلمك ، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك : لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهة وسفهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فما بقي أمر قبيح إلا جئت فيما بينهم وبينك . .

فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً .

وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا .

وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا .
وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع
من الجن رثياً - فرمما كان ذلك ، بدلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى
نبرئك منه أو نعذر فيك .

فقال لهم رسول الله ﷺ :

« ما لي ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف
فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً ، وأنزل علي كتاباً ،
وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربي ، ونصحت لكم
فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علي أصبر
لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم . »

هذا العزوف عن المجد والجاه عند الناس ، وعن المال والثراء ، وعن الدنيا
كلها ، تؤيده حياته ، صلوات الله عليه وسلامه من أولها إلى آخرها وتؤيده
القرآن تأييداً حاسماً صريحاً :

﴿ قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو على كل شيء
شاهد ﴾ (١٠) .

﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها
لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها .
وناطل ما كانوا يعملون ﴾ (١١) .

(١٠) سبأ : ٤٧

(١١) هود : ١٥ ، ١٦

﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم
بصلاها مذموماً منسجوراً ﴾ (١٢) .

﴿ اعلّموا أنّما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال
والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يبيح فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً
وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع
الغرور ﴾ (١٣) .

وعن جبير بن نفير ، رضى الله عنه ، قال : « دخلت على عائشة ، رضى
الله عنها ، فسألتها عن خلق رسول الله ، ﷺ ، فقالت : القرآن .
وحقيقة الأمر : أن رسول الله ، ﷺ كان في كل ما يأتيه وكل ما يدعه
قرآناً مطبقاً ، ومن هنا كان قول الله سبحانه وتعالى في بيان ذلك في شأنه
ﷺ : ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴾ (١٤) . ﴿ وإني لعلى خلق عظيم ﴾ .
﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين
لا يعلمون ﴾ (١٥)

﴿ وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من
العلم مالك من الله من ولى ولا واق ﴾ (١٦) .
﴿ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ﴾ (١٧) .

(١٢) الإسراء : ١٨

(١٣) الحديد : ٢٠

(١٤) يونس : ١٥

(١٥) الجاثية : ١٨

(١٦) الرعد : ٣٧

(١٧) هود : ١١٢

كانت تأتيه الدنيا فينفقها وهو جالس « أتى إليه صلوات الله وسلامه عليه ، سبعون ألف درهم ، فوضعها - كما يروى هارون بن رباب - على حصير ، ثم قام إليها يقسمها ، لما رد سائلاً حتى فرغ منها .

وبينما هو عائد من حين ، تكاثرت الأعراب عليه يسألونه . وخطفوا رداءه ، فوقف رسول الله ﷺ ، وقال : أعطوني ردائي ، لو كان لي عدد هذه العضاة (شجر عظيم له شوك) نعماً لقسمته بينكم ، ثم لا تجدونني بخيلاً ، ولا كذاباً ، ولا جباناً ، ويقول صلوات الله وسلامه عليه لأصحابه : « مالي وللدنيا » .

ويقول ﷺ : « عرضت على الدنيا فأيتها » .

وقال صلوات الله وسلامه عليه :

« خيرت بين أن أكون عبداً رسولاً أو ملكاً رسولاً ، فاخترت أن أكون عبداً رسولاً » .

« ولقد كان رسول الله - ﷺ - كما يروى عن أنس رضي الله عنه - أحب شخص إلى الأنصار والمهاجرين ، ولكنهم كانوا إذا رأوه لا يقومون له ، لما يعرفون من كراهيته له : « أي القيام له » ويقول ، ﷺ ، لأصحابه : « إن الدنيا حلوة بخصرة ، وإن الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء » .

ويقول ، ﷺ ، لأصحابه وهم جالسون حوله :

« إن مما أخاف عليكم من بعدى ، ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها » .

إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه : ما كان يتطلع إلى الدنيا في مختلف

جوانبها : وهو يقرأ قوله تعالى :

﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن الثواب ﴾ (١٨) .

عزوفه ، ﷺ ، عن الدنيا : قضية هي ، من البدهاة : بحيث تفجأ في النظرة الأولى كل دارس لسيرته ، ﷺ .

وحينما رفعه الله إليه ، لم يترك الضياع والعمارات والبساتين ، ولم يترك الآلاف المؤلفة من الذهب والفضة ، وإنما ، ترك وراءه مبادئ الحق التي أوحاها الله إليه ، والتي مكث طوال حياته يجاهد بقوله وعمله في سبيل إقامتها ونشرها ويكافح كفاحاً لا يهدأ ولا يفتر في سبيل تدعيمها .

وترك وراءه رجالاً يؤمنون بهذه المبادئ ، وبأنهم مكلفون - باعتبارهم من المسلمين - بنشرها وإذاعتها بين أرجاء العالم أجمع .
وترك عبيراً يتضوع رحمة ، ويشع نوراً ، مها طالت القرون وتناولت الأزمنة .

إنه ، ﷺ : هو تلك الصورة الحية للتطبيق القرآني . فكان ، ﷺ : عازفاً عن الدنيا ، ما في ذلك من شك ، وكان عازفاً عن الدنيا ، لسعيه وراء الآخرة ، وعزمه المصمم على أن يكون فيها يأتي وفيها يدع ، مرضياً لله تعالى ، ومن كان كذلك كان صادقاً حقاً .

وعزوفه عن الدنيا من أقوى الأدلة على صدقه وعلى إخلاصه ، صلوات الله وسلامه عليه .

(١٨) آل عمران : ١٤

أخبر رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، خديجة ، رضى الله عنها ، بما حدث له وقال :

« لقد خشيت على نفسى ، فقالت السيدة الكريمة :
 « كلا والله ما يجزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ،
 وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق » .
 لم تغلب السيدة خديجة ، رضوان الله عليها ، دليلاً ، ولا إثباتاً ،
 ولا برهاناً ، ولا معجزة ، وإنما استدلت بحالته وبحيائه ، وأخلاقه ، على
 صدقه ، صلوات الله وسلامه عليه .

وإذا كان علماء الكلام يكادون يقصرون كلامهم فى إثبات النبوة على
 المعجزة ، فإن آفاقاً من التفكير أوسع ، وإشراقات من الإلهام أسمى ، تتجه
 بالاستدلال إلى وسائل أخرى مضافة إلى المعجزة .

يقول الإمام الغزالي :

« فإن وقع لك الشك فى شخص معين : أنه نبي أم لا ؟ .
 فلا يحصل اليقين إلا بمعرفة أحواله : إما بالمشاهدة أو بالتواتر والتسامع .
 فإنك إذا عرفت الطب والفقہ يمكنك أن تعرف الفقهاء والأطباء ، بمشاهدة
 أحوالهم ، وسماع أقوالهم ، وإن لم تشاهدهم ، ولا تعجز أيضاً عن معرفة كون
 « الشافعى » - رحمه الله فقيهاً ، وكون (جالنوس) طبيباً ، معرفة بالحقيقة
 لا بالتقليد عن الغير ، بل بأن تتعلم شيئاً من الفقہ والطب ، وتطالع كتبها ،

وتصانيفها فيحصل لك علم ضروري بجمالها .
فكذلك ، إذا فهمت معنى النبوة ، فأكثرت النظر في القرآن ، والأخبار ،
يحصل لك العلم الضروري ، بكونه ، ﷺ ، على أعلى درجات النبوة .
وأعضد ذلك بتجربة ما قاله في العبادات وتأثيرها في تصفية القلوب .
وكيف صدق في قوله : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .
كيف صدق في قوله : « من أعان ظالماً سلطه الله عليه » .
وكيف صدق في قوله : « من أصبح وهمومه هم واحد : (هو التقوى)
كفاه الله تعالى هموم الدنيا والآخرة » .
فإذا جريت ذلك في ألف ، وألفين ، حصل لك علم ضروري لاتنأى
فيه .

فمن هذا الطريق : اطلب اليقين بالنبوة ، لا من قلب العصا ثعباناً ، وشق
القمر ، فإن ذلك إذا نظرت إليه وحده ، ولم تنضم إليه القرائن الكثيرة الخارجة
عن الحصر : ربما ظننت أنه سحر ، وتخيل ، وأنه من الله : إضلال ، فإنه :
﴿ يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ .
وترد عليك أسئلة المعجزات : فإن كان مستنداً إيمانك إلى كلام منظوم في
وجه دلالة المعجزة ، فينجزم إيمانك بكلام مرتب في وجه الأشكال والشبهة
عليها .

فليكن مثل هذه الخوارق ، إحدى الدلائل والقرائن في جملة نظرك ، حتى
يحصل لك علم ضروري لا يمكنك ذكر مستنده ، على التعيين كالذي يخبره جماعة
بخبير متواتر لا يمكنه أن يذكر أن اليقين مستفاد من قول واحد معين ، بل من
حيث لا يدري ، ولا يخرج عن جملة ذلك ، ولا بتعيين الآحاد .

فهذا هو الإيمان القوى العلمى .
وأما الذوق فهو كالمشاهدة ، والأخذ باليد ، ولا يوجد إلا فى طريق
الصوفية .

وينحو الإمام الغزالي فى اتجاهه هذا إلى أن إثبات النبوة : له - فضلاً عن
المعجزة - طريقان :
أحدهما : حالة الشخص .
ثانيها : دعوته .

وإذا كان الإمام الغزالي ينحو هذا النحو : فإنما هو فيه متبع للقرآن الكريم
فقد تحدث القرآن الكريم عن المعجزة الكبرى ، وهى القرآن نفسه ، وتحدى
العرب به .

لقد تحداهم به فى عنف ، وتحداهم متدرجاً بهم ، إذ طلب إليهم ، أولاً :
أن يأتوا بمثله ، فقال تعالى :

﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون
بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ (١٩) .

فما عجزوا طلب إليهم أن يأتوا بعشر سور مثله :

﴿ أم يقولون افتراء قل : فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم
من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ (٢٠)

فما عجزوا طلب إليهم أن يأتوا بسورة من مثله :

﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا

(١٩) الإسراء : ٨٨

(٢٠) هود : ١٣

شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار
التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴿ (٢١) .
أما عن حياته ؛ صلوات الله وسلامه عليه ، فإن القرآن : يتحدث عنها من
زوايا مختلفة .

لقد تحدث عنها في صراحة لا لبس فيها ، وتحدث عنها في إشارات ذات
مغزى ، وتركنا فضلاً عن ذلك ، نستتج من الأخبار الكثيرة التي قصها عنه :
جوانب لا تعد من السمو الأخلاق الكرم .

لقد تجرد صلوات الله وسلامه عليه من كل مطمح دنيوى :
﴿ قل ما سألتكم من أجر ، فهو لكم ، إن أجرى إلا على الله ، وهو على
كل شيء شهيد ﴾ (٢٢) .

ولقد لبث فيهم من قبل أربعين عاماً فلم يحدثهم بنبوة ، ولا برسالة .
﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من
قبله أفلا تعقلون ﴾ (٢٣) .

ويطلب إليهم القرآن الكريم أن يتفكروا في أمر صاحبهم هذا ، الذي نشأ
بينهم ، وترجع على مرأى ومسمع منهم .

﴿ قل إنما أعظكم بواحدة . أن تقوموا لله مثنى وفردى ثم تفكروا
ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾ (٢٤) .
ويشرح الزمخشري هذه الآية شرحاً لطيفاً فيقول ، ما ملخصه :

(٢١) البقرة : ٢٣ ، ٢٤

(٢٢) سبأ : ٤٧

(٢٣) يونس : ١٦

(٢٤) سبأ : ٤٦

إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق ، وتخلصتم ، وهي أن تقوموا
لوجه الله خالصاً : اثنين اثنين ، وواحداً واحداً ، ثم تفكروا ، في أمر محمد ،
ﷺ .

أما الاثنان فيفكران ويعرض كل واحد منها محمول فكره على صاحبه ،
وينظران فيه متصادقين ، متناصفين : لا يميل بهما اتباع الهوى ، ولا ينبض لهما
عرق عصبية ، حتى يهجم بهما الفكر الصالح ، والنظر الصحيح ، على جادة
الحق وسنته .

وكذلك الفرد ، يفكر في نفسه بعدل ونصفة ، من غير أن يكابر ، ويعرض
فكره على عقله وذمته ، وما استقر عنده من عادات العقلاء ، وبجاري
أحوالهم .

والذي أوجب تفرقهم منى وفرادى : أن الاجتماع : مما يشوش الخواطر
ويمنع من الروية ، ومع ذلك يقل الإنصاف ، ويكثر الاعتساف .
وقد علمتهم أن محمداً ﷺ : ما به من جنة . بل علمتموه : أرجح قريش
عقلاً ، وأصلهم رأياً وأصدقهم قولاً ، وأزهم نفساً ، فكان مظنة لأن تظنوا
به الخير ، وإذا فعلتم ذلك : كفاكم أن تطالبوه بأن يأتيكم بآية .
ويصف القرآن الكريم جانباً من جوانب حياته ، ويصف دعوته أيضاً ،
فيقول :

﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه يمينك ، إذا لارتاب
المبطلون . بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ، وما يجحد بآياتنا
إلا الظالمون ﴾ (٢٥) .

(٢٥) المنكوت : ٤٨ ، ٤٩

وإذا وقفنا قليلاً عند هاتين الآيتين ، فإننا نجد أن الآية الأولى : تريد أن تقول : إنه حق ، لو فرضنا أن محمداً ، صلوات الله وسلامه عليه : كان يقرأ ويكتب ، وكان يتلو من قبله كتاباً ، أو كان ينحطه يمينه ، لاقتصر الارتباب على المبطلين فحسب .

ذلك أن معاني الكتاب ، ومفاهيم الدعوة التي أتى بها ، والقواعد والمبادئ التي يبشر بها ، كل ذلك : آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ، لا ينبغي ولا يحجدها إلا الظالمون ، والظالمون في كل آونة : يمحذون الحق ، وينكرون المنطق السليم .

ويتوج القرآن الكريم تحدته عن الرسول ، صلوات الله عليه ، بهذه الكلمة العميقة : ﴿ وإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

إن الدعوة الإبلامية : آيات بينات في منطق الحق وفي منطق العقول المستتيرة وها هوذا (أكرم بن صيني) : أحد حكماء العرب : ينهج بفطرته السليمة هذا النهج : من الاستدلال على صدق الرسول ﷺ ، بدعوته : يذكر (الألوسي) :

أنه لما ظهر النبي ، ﷺ ، بمكة ، ودعا إلى الإسلام : بعث أكرم بن صيني ابنه : « حيشاً » فأتاه بخبره فجمع بني تميم ، وقال لهم - فيما قال : إن ابني شافه هذا الرجل مشافهة ، وأتاني بخبره ، وكتابه يأمر بالمعروف وينهى فيه عن المنكر ، ويأخذ فيه بحماسن الأخلاق ، ويدعو إلى توحيد الله تعالى ، وخلع الأوثان ، وترك الحلف بالنيران ، وقد حلف (عرف) ذوو الرأي منكم : أن الفضل فيم يدعو إليه ، وأن الرأي ، ترك ما ينهى عنه . ثم يقول هذه الكلمة الرائعة :

« إن الذي يدعو إليه محمد ، لو لم يكن ديناً ، لكان في أخلاق الناس حسناً » .

وقد كان الاستدلال بصدق الدعوة وكرم أخلاق الداعية على صدق الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، هو المنحى الذي سار فيه جعفر بن أبي طالب ، رضوان الله عليه ، حينما سأله النجاشي عن أمر دينه ، وذلك أنه : لما سافر المسلمون بدينهم إلى الحبشة مهاجرين إليها بسبب ما نالهم ، من تعذيب أليم ، أرسل القرشيون وقدأ إلى النجاشي ، فيه عبد الله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص ، لرد المهاجرين إلى مكة ليعذبوهم من جديد . ولما التقى الوفد بالنجاشي ، قال له عمرو بن العاص :

إنه قد لجأ إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يندخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم : من آباؤهم وأعمامهم ، وعشائرتهم ، لتردهم عليهم ، فهم أعلى بهم عيناً (أي أبصر بهم) وأعلم بما عابوا عليهم .

فلما سمع النجاشي كلامهم رأى ، أن من الحكمة : ألا يسلم إليهم المهاجرين دون أن يسمع كلامهم ، وحجتهم ، فأرسل إلى أصحاب رسول الله ، ﷺ ، فدعاهم فلما جاءوا قال لهم :

ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تندخلوا في ديني ولا دين أحد من هذه الملل ؟

فكان الذي كلمه : جعفر بن أبي طالب ، فقال له :
أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية : نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ونأكل القوي منا الضعيف .

فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا : نعرف نسبه ، وصدقته ،
وأمانته ، وعفافه ، فدعانا إلى الله ، لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن
وأباؤنا من دونه : من الحجارة والأوثان . .

أمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار والكف
عن المحارم ، والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال
اليتيم : وقذف المحصنة .

وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئاً وأمرنا بالصلاة ، والزكاة
والصيام . .

(وعدد عليه أمور الإسلام) .

فصدقناه ، وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ،
ولم نشرك به شيئاً ، وحرمتنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا . . فعدا علينا
قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله ،
تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الحبائث ، فلما قهرونا وظلمونا ، وضيقوا
علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك . .

ولما قرأ عليه صدرأ من سورة مريم ، بكى النجاشي ثم قال :

إن هذا ، والذي جاء به عيسى : ليخرج من مشكاة واحدة .

ثم التفت إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص فقال لها :

« انطلقا . فلا والله لا أسلمهم إليكما » .

لقد علم النجاشي ، فور سماعه ، المبادئ الإسلامية .

« أن هذه المبادئ حق وأنها آيات بينات لا يخفى صدقها على أصحاب الفطر

السليمة ، وعلم أن ما أتى به محمد ، صلوات الله وسلامه عليه : إنما يصدر من

المنبع الذي كانت تصدر عنه رسالة عيسى ، عليه السلام .
 وبعد فإن سيرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، والمبادئ الإسلامية :
 من أهم الوسائل التي ينبغي أن يتجه إليها المبشرون بالدين الإسلامي لنشرها
 وبيانها .
 وهما أيضاً : من أهم الموضوعات التي يجب أن يتجه إليها علماء الكلام
 الإسلامي ليكون علم الكلام إسلامياً حقاً .

٨

١ - ذهبت السيدة خديجة . رضى الله عنها مع الرسول ، صلوات الله عليه
 وسلامه ، إلى ورقة بن نوفل ، وقالت له :
 يا بن عمى ، اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة :
 يا بن أخي ماذا ترى ؟
 فأخبره رسول الله ﷺ ، خبر ما رأى . فقال له ورقة : هذا الناموس الذي
 أنزله الله على موسى .
 وتمنى ورقة أن لو كان شاباً فتياً - لينصر الرسول ، صلوات الله وسلامه
 عليه ، نصراً مؤزراً .
 كان ورقة ، على علم بحياة الرسول ، ﷺ ، في طهرها ونقاها ، ولكنه
 حينما سمع أول آية من القرآن :
 ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . . . ﴾ لم يملك أن آمن بأن هذا - الذي
 يتلى - إنما هو : وحى من السماء .
 إن : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ تنص على أن القراءة : لا تكون باسم وزير

ولا أمير ، ولا باسم منفعة شخصية ، ولا باسم مصلحة إقليمية ، ولا باسم غاية مادية أبداً كانت ، ولا باسم وطن أو بيعة ، وإنما هي : باسم الله .

وإذا كانت باسم الله ، فإنها تفيد الشخص باعتباره فرداً .

وتفيد المجتمع الخاص الذي نسميه : « وطناً » .

وتفيد المجتمع الإسلامى العام .

بل وتفيد الإنسانية جمعاء .

وإذا ما تجردت القراءة لله تعالى ، وكان هدفها الأول والأخير هو : الله : مصدر الخير والنور ، كانت خيراً ، وكانت نوراً فى جميع الأرجاء وفى جميع الأزمان .

وما كان يقصد القرآن قط بهذه الكلمة الأولى : القراءة وحسب ، وإنما كانت القراءة : رمزا لكل ما يأتى الإنسان فى الجانب الإيجابى ، وكل ما يدعه الإنسان فى الجانب السلبى .

إن هذه الكلمة الأولى : تريد - بمفهومها وروحها :

اقرأ باسم ربك ، تحرك باسم ربك ، تكلم باسم ربك ، اعمل باسم ربك .
أما إذا امتنعت عن حركة أو فعل ، فینبى أن يكون ذلك أيضا باسم ربك .

ويكون معنى الآية فى النهاية : جرد حياتك كلها وكيانك كله : أسباباً وغايات لله ، سبحانه وتعالى .

وإذا كانت الآية الكريمة : واضحة المعنى فى الجانب الإيجابى الذى يحث على القراءة ، والذى يحث على أن تكون القراءة باسم الله ، فإن الجانب

السلي - قد نزلت فيه - فيما بعد آيات صريحة الدلالة واضحة المعنى ، يقول الله تعالى :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ .

وأما ما ذبح على النصب : فلم يرد به وجه الله تعالى : فهو أيضاً فسق ، لأنه لم يذكر اسم الله عليه ، فكل ما لم يذكر اسم الله عليه إذن : يجب الامتناع عنه .

أما الإقدام عليه فإنه : فسق يتفاوت في درجته : من الرجس زيادة ونقصاناً .

وهكذا يضعنا الإسلام - منذ : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ أي منذ اللحظة الأولى من تاريخه - على قمة الإخلاص ، وعلى قمة الإحسان ، وفي خضم من التقوى ، وعلى السنام من الصدق .

فما دامت الحياة كلها لله ، فليس هناك مجال للكذب ، والرياء ، والنفاق والخديعة وإرادة غير الله بالأعمال .

القرأ . . والتربية

٢ - ويقول الله تعالى ، في هذه الآية الأولى : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ ولم يقل : اقرأ باسم الله ، ذلك لأنه أراد سبحانه ، منذ البدء : أن يشير إلى أن هذا المنصور الإلهي النازل من السماء إنما هو تربية ، إنه يتزل باسم الرب ، وما دامت هذه التربية إلهية المصدر ، فهي إذن محكمة الأحكام كله ، كاملة في جميع جوانبها وقد قال الله تعالى فيما بعد عن هذا المنصور :

﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ (٢٦) .

وقال الله تعالى :

﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ (٢٧) .

والترية التامة تشتمل على جانب العقيدة ، وجانب الأخلاق ، وجانب التشريع ، ولقد نزل الدستور الإلهي على التوالى مبيناً لكل هذه الجوانب ، مفصلاً لها .

ولكن الله سبحانه وتعالى : بين في هذه الآية التي بين أيدينا : أن هذه التربية : يجب أن تتقبل دون تشكك أو تردد ، لأنها من الذي خلق . ذلك أن الذي خلق ، فكون كل خلية في الجسم ، ونسقتها مع غيرها : لتؤدي ، ويؤدي المجمع وظائف معينة ، هذا الذي فصل ذلك : محيط علمياً بالإنسان المرئي ، فهذه التربية ليست من كائن لا صلة له بالخلق ، وإنما هي تربية الخالق نفسه ، الذي أحاط بلسان الخلق ، وعرف ما تحتاج إليه مخلوقاته ، وعرف الضار والنافع ، وعرف الخير والشر ، فتربيته إذن قيادة على علم ، وهداية على بصيرة ، وهي من أجل ذلك كله ، تربية خالدة ، لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة ، لأن الإنسان : هو الإنسان أينما وجد وأينما كان ، لم يتبدل خلقاً بخلق ، ولا تركيباً بتركيب .

(٢٦) هود : ١ .

(٢٧) فصلت : ٤٢ .

اقرأ . . والأخلاق

٣ - حينما سمع ورقة هذه الكلمة الأولى ، لم يملك أن آمن .
وماذا يمكن أن تقول لشخص تجرد إلى الله ، ويدعوك أن تتجرد إليه
سبحانه ، شخص لم يطلب مالاً ولا جاهاً ، ولا زعامة ، ولا ملكاً ، إنه يريد
أن تقرأ الإنسانية كلها باسم ربها ، وأن تقوم في كيانها كله على أساس من تربية
ربها . ماذا يمكن أن تقول له ، إذا كان يشير بذلك ؟
أيمكن أن تقول له ، إنك كذاب ، لما الصديق إذن ؟
أيمكن أن تقول له ، إنك منافق ، فأين هو الإخلاص ؟ .

اقرأ . . والعلم

٤ - إن هذه الكلمة الأولى ، قادت ورقة فور سماعها إلى الإيمان .
ونعود إليها من جديد ، ونرى إشارتها إلى معان أجملتها فيما سبق ، نريد أن
نفصل فيما بعد بعض التضميل :
كانت « اقرأ » ، دعوة آمرة موجهة إلى الثقافة ، إلى العلم ، إلى الفكر ، إلى
البحث المستفيض في السماء وفي الأرض ، وفي الجبال ، والبحار ، وفي كل
ما خلق الله تعالى ، من كائنات صغرت أم كبرت .
ولقد اتسم الإسلام منذ هذه الكلمة بالطابع العلمي ، كسمة تجاور السمات
الأخرى التي ستحدث عنها فيما بعد ، إن شاء الله تعالى .
﴿ وقل رب زدني علماً ﴾ .

تلك إحدى شعارات المسلم ، ومن استوى يومه فهو مغبون ، ومن لم يكن إلى زيادة فهو حقا إلى نقصان ، وهل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون . وإن مداد العلماء للثقتين : ليوزن ، في ميزان الخير والحسنات . بدم الشهداء فيرجع مداد العلماء .

إن الله ، سبحانه وتعالى : قد امتن علينا في آيات كثيرة من القرآن ، بأنه سخر لنا الليل والنهار والشمس والقمر ، وسخر لنا الأرض والسماء ، وما بين الأرض والسماء .

والامتنان الإلهي ، بهنا معناه ، دعوة صريحة للمسلمين ، إلى أن يستجيبوا للتوجيه الإلهي : فيسخرُوا كل ذلك بالعلم والمعرفة ، ويمتلكوا الكون ، مستعملين الملاحظة والتجربة ، في نفع الإنسانية ، ولكن العلم والمعرفة ، في الإسلام ، لا يقتصران على الجانب المادي ، لأن النظرة الحديثة الإسلامية إلى العلم ، أوسع بكثير ، وأعمق من النظرة الحديثة الأوربية التي تقصر العلم على الجانب المادي .

إن العلم المادي ، علم تسخير الكون . بحث عليه الإسلام ، ولكنه لا يقف عنده ، فغاية المسلم ، تتمثل في قوله تعالى :

﴿ وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾ (٢٨) .

وإن ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ ، توجهنا مباشرة نحو هذا المنتهى ، وإذا كنا - كمسلمين - مدعوين إلى تسخير الكون ، مأمورين بتسخيره في سبيل الله ، ويتلبيه رجاء مرضاة الله : فنحن بهذا ، متجهون إلى الله ، غير ناظرين إلى هذا التسخير للكون ، من حيث هو تسخير ، وإنما إلى المكون .

(٢٨) النجم : ٤٢ .

وبذلك يكون التسخير نفسه عبادة : « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

فالسيطرة على الطبيعة إذن ، في الوضع الإسلامي الصحيح : هجرة إلى الله تعالى .

وإنها قراءة باسمه ، فهي داخلة في نطاق : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ .
وإذا قرأت باسم ربك : فأنت عابد في أعمالك وفي أقوالك ، والعلم ، في الإسلام على الوضع الصحيح ، إذن : عبادة ، حتى في الجانب المادى منه .
هـ - ولا يتأتى ، ولن يتأتى أن يقف الإسلام عقبة في سبيل العلم ، وأن يتعارض الإسلام مع العلم الحديث .

إن مشكلة التعارض بين الدين والعلم : إنما نشأت في أوروبا بعيدة عن الجو الإسلامي ، إنها : تصور نزاعاً في بيئة بعيدة كل البعد عن الروح الإسلامية التي حثت الإنسانية على التعليم ، والتي ولد المنهج العلمي الذي يسمونه المنهج الحديث ، بين ربوعها ، والتي أنشأت - على أساس من هذا المنهج - حضارة ضخمة لا تزال تكشف كل يوم، الكثير من أبحاثها العميقة .

وما من شك في أن الحضارة الإسلامية هي التي قدمت للحضارة الغربية الحديثة منهجها وقدمت لها الكثير من الحقائق العلمية في كثير من المجالات المختلفة .

إن المنهج العلمي الحديث ، في أوروبا : يرجع إلى « روجر بيكون » فهو الذي أذاعه ونشره في أرجاء أوروبا .

ويتحدث الأستاذ (بريقولت) في كتابه : (بناء الإنسانية) فيقول عن

روجرييكون : إنه درس اللغة العربية والعلوم العربية في مدارس أكسفورد على خلقاء العرب في الأندلس ، وليس : لروجرييكون ، ولا لسميه الذي جاء بعده - الحق في أن ينسب إليها الفضل في ابتكار المنهج التجريبي ، فلم يكن (روجرييكون) إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوروبا المسيحية ، وهو لم يمل قط من التصريح ، بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب ، هو الطريق الوحيد للمعرفة ، والمناقشات التي دارت حول واضعي المنهج التجريبي ، هي طرف من التحريف المائل لأصول الحضارة الأوربية . وقد كان منهج العرب التجريبي في عصر (يكون) : قد انتشر انتشاراً واسعاً ، وانكب الناس في لطف على تحصيله في ربوع أوروبا . ويقول (بريفولت) أيضاً : لقد كان العلم : أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث : ولكن ثماره كانت بطيئة النضج . إن المبقرية التي ولدتها ثقافة العرب في أسبانيا : لم تنهض في عتفوانها إلا بعد مضي وقت طويل على انخفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام ، ولم يكن العلم وحده هو الذي أعاد إلى أوروبا الحياة ، بل إن مؤثرات أخرى كثيرة : من مؤثرات الحضارة الإسلامية : بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية اهـ . وإذا كان الإسلام هو الذي أنشأ هذا المنهج وهذا العلم ، فمن الطبيعي ألا يتعارض معه .

٦ - على أن مسألة التعارض بين الدين والعلم ، إنما هي مسألة وهمية ، إذا نظرنا إلى حقيقة الأمر :

وذلك : أن العلم دائرته : المادة والحس ، أما الدين فدائرته ما وراء الطبيعة ، والخير ، والفضيلة ، فهما لا يلتقيان في الموضوع ، فكيف يتعارضان .

إن ملاحظة العصر الحاضر ، يتوهمون مشاكل لا أساس لها ، ثم يضعونها على بساط البحث ، ويتناقشون فيها ، ويتجادلون ، وعلى مر الزمن : يضيئ الإلغاف عليها ، وهي وهمية ، صورة من ظلال الحقائق ، فيظن بعض الناس أنها مشاكل جديدة بالبحث والنظر .

من ذلك مسألة التعارض بين العلم والدين ، مع أنه لا اتحاد بين موضوعيهما .

العلم في الإسلام أوسع دائرة

٧ - وإذا اقتضت أوروبا على العلم المادى ، فإن الإسلام : لا يقف عند ذلك ، وإنما يوجه الإنسانية إلى مصدر آخر للعلم والمعرفة ، ألا وهو : القلب أو هو الروح والبصيرة .
إن الإسلام يوجه الإنسانية إلى المعرفة الإشرافية ، أو الكشفية ، أو الإلهامية .

ويصح الإسلام الاتجاه العلمى الحديث إلى الاتجاه البصرى فى قوله : ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مشغولاً ﴾ (٢٩) .
فالسمع ، والبصر ، هما أساس العلم المادى : علم التجربة ، والملاحظة .
أما القلب : فإنه أساس العلم الإلهامى . إن الله ، سبحانه وتعالى يوجه المسلم إلى الملاحظة والتجربة ، ويوجهه أيضا إلى الاستشراف للهداية والنور القلبي ، عن طريق الخلق الكريم ، والتقوى والإخلاص ، وحب الإنسانية ، والمعاونة فى الخير .

(٢٩) الإسراء : ٣٦

٨ - وإذا كان الإسلام ، أوسع نظرة في الجانب العلمي عن الحضارة الحديثة ، وأدق وأشمل ، فإنه يختلف معها اختلافاً جذرياً حاسماً في مسألة الإرادات والنوايا ، وفي أمر الأسباب والبواعث . وفي اتجاه الغايات والأهداف :

إن الحضارة الحديثة تقول : العلم لا صلة له بالأخلاق ، أو تقول : العلم : لا أخلاق .

والعلم ، في نظرها لا شأن له بالخير والشر .
ولكن الإسلام : يجعل أسس العلم متمسة بالخير ، ويجعل غايته ، منغسة في الخير ، ويجعل من العلم قريناً إلى الله ، ويجعل منه عبادة لله :
ومن هنا : كانت حضارة الإسلام : حضارة رحمة وهداية ، لا حضارة تدمير وتحريب :

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ .

تلك حقيقة في الدين الإسلامي ، سواء نظرنا إلى أساسه أو نظرنا إلى غايته .
أما الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه : فإنه : (رحمة مهداة) .

٩

وبعد فإننا نختتم هذه الدراسة بذكر الحديث الذي أتى به الإمام البخاري عن الكيفية التي استدلل بها هرقل على صدق الرسول ﷺ وهي كيفية تدل على سعة أفقه وعلى رحابة صدره ، وهي كيفية يستدل بها وعلى غرارها كل من آتاه الله أفقاً رجباً وذكاءً موقفاً وبصيرة رشيدة .
حدثنا أبو إيمان : الحكم بن نافع ، قال : أخبرنا شعيب عن الزهري ،

قال : أخبرني عبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود : أن عبد الله بن عباس أخبره : أن أبا سفيان بن حرب أخبره : أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش ، وكانوا تجاراً بالشام ، في المدة التي كان رسول الله ، ﷺ ، هادن فيها أبا سفيان وكفار قريش ، فأتوه وهم بإيلياء ، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ، ودعا بترجمانه ، فقال :

أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟

فقال أبو سفيان : قلت : أنا أقربهم نسباً :

فقال ادنوه مني وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهري ، ثم قال لترجمانه :

قل لهم : إني سأتل هذا عن هذا الرجل ، فإني كذبتني فكذبوه .

فوالله لولا الحياء من أن يأتروا على كذبا لكذبت عنه .

ثم كان أول ما سألتني عنه : أن قال : كيف نسبة فيكم ؟

قلت : هو فينا ذو نسب . . .

قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟

قلت : لا .

قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا .

قال : فأشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ قلت : بل ضعفاؤهم .

قال : أيزيدون أم ينقصون ؟

قلت : بل يزيدون .

قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لديته بعد أن يدخل فيه ؟

قلت : لا .

قال : فهل كنتم تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

قلت : لا .

قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل

فيها .

قال : ولم يمكف كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة .

قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت نعم .

قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال : ينال

منا وننال منه .

قال : ماذا يأمركم ؟

قلت : يقول : اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول

آبائكم ، ويأمرنا بالإصلاة ، والصدق ، والعفاف ، والصلة .

فقال للترجبان : قل له سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ،

فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها .

وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت أن لا ، فقلت :

لو كان أحد قال هذا القول قبله قلت : رجل يأتي بقول قيل قبله .

وسألتك هل كان من آبائه من ملك ؟ فذكرت أن لا ، قلت : فلو كان من

آبائه من ملك ؟ قلت : رجل يطلب ملك أبيه .

وسألتك : هل كنتم تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت :

أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .

وسألتك أشرف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟

فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه .

وهم أتباع الرسل .

وسألتك : أيزيدون أم ينقصون ؟

فذكرت أنهم يزيدون ،

وكذلك أمر الإيمان حتى يتم

وسألتك : أيرتد أحد منهم مسخطة لدينه بعد أن يدخل فيه .

فذكرت : أن لا . وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب .

وسألتك : هل يتغدر ؟

فذكرت : أن لا . وكذلك الرسل لا تغدر .

وسألتك : بم يأمركم ؟

فذكرت : أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبينهاكم عن عبادة

الأوثان ، ويأمركم بالصلاة ، والصدق ، والصفاء .

فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قومي هاتين .

وقد كنت أعلم أنه خارج ، لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أني أعلم أني

أنخلص إليه لتبجشمت لقاؤه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قلبي « صلى الله عليه وسلم » .

خاتمة الإسلام والحضارة الحديثة

وموضوع الدين والحضارة^(١) يستلحيني أن أقول في المبدأ : إنني مها
محدثت عن الحضارة بإجلال أو بتحقير ، ومها تكلمت عنها بنقد أو تحليل ،
فإن الدين على وجه العموم لا يعارض قط ، التقدم العلمى لإسعاد الإنسانية :
لا يعارض التقدم الصناعى لإسعاد الإنسانية . لا يعارض فى الناحية العلمية
على أية صورة كانت مادام الأمر أمر إسعاد الإنسانية ، وإذا كانت هذه قضية
مفروغاً منها ، فإننى أجه إذن لتصوير نشأة الحضارة .

نشأة الحضارة :

الحضارة نشأت فى فترة معينة من التاريخ ، وفى زمن محدد نعلم ابتداءه
ونعلم العوامل التى أنشأتها ، والتى كانت الأساس فى هذه النشأة .
وكلنا يعلم أنه فى فترة من الفترات ، كانت الكنيسة مسيطرة على العالم
الأوربى سيطرة تامة : ما كان هناك شىء "يفعل" ، أو شىء ينتهى فيه الأمر ،
ولا شىء يقام أو يهدم ، وما كان إنسان يقدم على أمر ، وما كان إنسان يحجم

(١) هذه الخاتمة ، هى محاضرة أقيمت فى قاعة الشيخ محمد عبد شفيق أبقينا أسلوبها الشفهى دون
تغيير ليا .

عن أمر ، إلا باستئذان الكنيسة ، وباستئذان رجال الدين . ولكن الكنيسة ورجال الدين تعسفوا في استعمال سلطتهم ، حتى لقد أنشأوا محاكم التفتيش . وقد كتب الأوربيون والمسيحيون عن محاكم التفتيش كثيراً ، وصوروها في أبشع مظاهرها ، وفي أسوأ صورها ، كتب الكاثوليك . والبروتستانت وكتب الفرنسيون ، وكتب الإنجليز . كتب كل هؤلاء - وهم رجال المسيحية - فيما يتعلق بهذا الأمر .

ولقد وضحوا وبنوا أن الكبت الذي كان يغمر أوروبا في ذلك العصر ، ولد الانفجار ، واتخذ الانفجار اتجاهاً معيناً ، اتخذ الاتجاه الإنساني .

وأخذ قادة الحضارة - مبتدئين من هذا الاتجاه الإنساني - يقررون أن الإنسان له كيانه ، له شخصيته ، له ذاته ، له حدوده ، له تقديراته ، له مكانته التي يجب أن يحتلها . يجب أن يحتل الإنسان المكانة التي تليق به . ومن هنا كانت كلمة الإنسانية التي تطلق - كرمز مميز - على هذه الحضارة ومن هنا كان تمجيد الإنسانية .

ولكن حيناً بدعوا يتحدثون عن الإنسان في ثورة عواطفهم القوية ، وفي غمرة نفورهم الشديد من رجال الدين ، كانت كلمة الإنسانية توحى - عند قادتهم - بانفصال الإنسانية عن الإلهية ، أو انفصال الإنسانية عن الكنيسة أو انفصال الإنسان عن الدين ، أو بالتعبير الحديث انفصال الدين عن الدولة . يجب أن يكون للإنسان مكانته ، يجب أن يكون له موقفه أمام الدين واتجاه الألوهية . تجاه النص المقدس ، تجاه الكنيسة ، ويجب أن يخضع كل ذلك للإنسان .

فالإنسان له عقله ، له منطق ، ويجب أن يسير بهذا العقل ، وبهذا التفكير
وبهذا المنطق .

وتصوروا جماعة من الجماعات ، كانت السيوف مصلته عليها من جميع
النواحي ، ثم انفجرت هذه الجماعة فقضت على السلاح الموجه إلى غيرها . ماذا
يكون تفكيرها بالنسبة لهذا السلاح ، وبالنسبة لحامله : بالنسبة لهذا المصدر
الذي كان للكبت ؟ إن تفكيرها في أهدأ حالاته يكون معارضاً متقدماً ،
ومتحمساً في معارضته ، وفي انتقاده ، ولكن يشعر أحياناً بشعور السفاك النهم
لإسالة السماء !

هكذا كان الأمر في بدء الحضارة الحديثة : لقد أراد زعماؤها ، أن يتخلصوا
من الدين ومن رجال الدين ، لتحتل الإنسانية مكانتها دون معارضة لها أو كبت
أو تنكيل .

وحينما أقول : « الإنسانية » : يخلط الأمر نوعاً ما ، إذ إن معنى هذه
الكلمة اكتسب من الآلام التي نزلت بالإنسانية - في كثير من فترات التاريخ -
نوعاً من التقديس وكثيراً من التمجيد والعلف ، ولذلك فإني دون إخلال
بالمعنى ، سأستعمل كلمة « البشرية » وإذا استعملت كلمة البشرية كان المعنى
الذي أريده أدق فيما يتعلق بصلة الثورة الأوربية ، أو الحضارة الأوربية في بدء
نشأتها ، وفي ثورتها ضد رجال الكنيسة .

كان هناك إذن الدين من جانب ، وكانت هناك البشرية من جانب آخر ،
وأرادت هذه البشرية أن تقف في وجه الدين ، وأن تستقل بنفسها في وضع
أصولها ، وقواعدها ، ونظمها ، وأن تنتهي في النهاية إلى أن تكون مستقلة كل
الاستقلال عن جميع النواحي التي تتعلق بهذا الجانب الروحي .

وتلقت الحضارة أو ممثلو الحضارة : أو الذين يقومون على الحضارة تلتفتوا
يميناً وشمالاً على الأصول والقواعد التي يمكنهم أن يقيموا عليها نظمهم
البشرية ، وتساءلوا : ماذا يمكن أن يحمل حمل الدين ؟
إن الدين نظام اجتماعي ، وتشريعي ، وأخلاقي ، فما الذي يمكن أن يحمل
عمل هذه النظم ؟ إذا أردنا أن نتخلص من هذه النظم لأنها نظم دينية يقوم
عليها رجال الكنيسة ، رجال محاكم التفتيش ، فما هي المصادر والنتائج التي
نستقي منها ، إذا أردنا أن يسود الاطمئنان في المجتمع ؟ .

أما المصادر لما كان يمكن ، وما كان يتأتى ، إلا أن تكون مصدرين :
١ - العقل في ناحية ما وراء الطبيعة .
٢ - والضمير في ناحية الأخلاق .

إذن لجأت الحضارة الحديثة ، فيما وراء الطبيعة إلى العقل ، ولجأت في
الأخلاق إلى الضمير : فالعقل : هو الذي يؤسس ما وراء الطبيعة . والضمير
هو الذي نرجع إليه في الأخلاق .

ولكن . . . تحبط العقل : لأنه يخلف من إنسان لآخر ، ومن بيئة لأخرى ،
ومن زمن لزمن ، ومن مكان لمكان ، ومن ثقافة لأخرى .
وأخذ الضمير من جانبه أيضاً يوحى بإيماءات مختلفة : فالضمير ليس
إلا أثراً للبيئة ، وللثقافة ، وللوسط الذي يعيش فيه . ليس الضمير معصوماً قط
وإنها لفكرة خرافية : كون الضمير معصوماً . والضمير إذا تخلص من سيطرة
الدين فإنه يوحى بالفساد ، كما يوحى بالصلاح ، لأنه ابن البيئة ، فإذا كانت
البيئة إجرامية فالضمير إجرامي ، وإذا كانت البيئة صالحة فالضمير صالح ،

وإذا كانت البيئة أوربية فالضمير أوربي ، وإذا كانت البيئة شرقية فالضمير شرقى .

ومن الواضح ، أن ضمير الأوربيين لا يؤنبهم قط على السفك الذى يستيحونه فى كل قطر يسيطرون عليه ، إنه يسبح إذن - لو اتخذناه مقياساً - السفك والتكيل ، والاستعمار .

ليس هناك إذن شىء ثابت مستقر معصوم اسمه الضمير .

وليس هناك قضايا يتفق عليها العقل فى وراء الطبيعة .

وتخبط العقل ، وتخبط الضمير .

لما أخرج إذن ؟

أسطورة التطور الإنسانى :

رأى رجال الحضارة ، أن يلجأوا إلى شىء يعيد عنهم وصمة العجز ، فلجأوا إلى فكرة التطور : الإنسان متطور ، الأفكار متطورة . وإذن المسألة ليست مسألة خطأ صريح ، وإنما هى مسألة تطور فيما يتعلق بالأفكار ، وفيما يتعلق بالمعنى . ومادام هناك قانون للتطور إذن لا عيب عليهم إذا أخطأوا أو تخبطوا فى كل مرحلة من مراحلهم . وفى كل فترة من فتراتهم . . . ونادى الحضاريون البشريون بفصل الدين عن الدولة . وحيناً فصل الدين عن الدولة رأت الدولة نفسها تتخبط حيناً تستند إلى العقل فى نظمها الدينية والاجتماعية ، وحيناً تستند إلى الضمير فى نظمها الأخلاقية ، فاخترعت أسطورة التطور الإنسانى فيما يتعلق بالتفكير .

وكانت كلمة التطور هى الطلمس السحرى ، الذى يحاولون التعلل به ،

لإخفاء عجز العقل والضمير الإنساني ، لإخفاء هذا العجز المطلق الذي يجعل الإنسان متخبطاً بعقله في أمور ما وراء الطبيعة ، ومتخبطاً بضميره ، في أمور الأخلاق ؟ لقد أخذوا كل ذلك بفكرة التطور .

ليس في الأحكام القاطعة تطور :

ولكن إذا نظرنا إلى فكرة التطور في الدين والأخلاق لما معناها حقيقة ؟ ما معنى فكرة التطور ، إذا أدخلناها في الفكر على وجه العموم ؟ إن فكرة التطور ما هي إلا عودة إلى السوفسطائية القديمة ، إنها عودة إلى آراء اليونان القدماء - السوفسطائية منها - لأن معنى التطور في الفكر أنه ليس هناك قضية ثابتة - وإنما جميع القضايا الفكرية متطورة ، وهذا التطور لا ينتهي إلى حد ، وإذن هناك النسبية باستمرار ، هناك النسبية المطلقة ، هناك إذن الخطأ المستمر ، وهذا الخطأ لا علاج له ما دمتا نقول بالتطور ، لأنه ما دمتا نقول بالنسبية وبالتطور فليس هناك الثبات ، وإذن لا يكون هناك ثبات في الدين ، ولا يكون هناك ثبات في الأخلاق .

فإذا أدخلنا فكرتهم بالتطور في الدين فقد قضينا على الدين وإذا أدخلنا فكرة التطور في الأخلاق فقد قضينا على الأخلاق .

هذه الفكرة التي أتحدث عنها : فكرة إدخال التطور في الدين فكرة سمعتها من الكثيرين ، لقد ألفنا كلمة التطور ، وألفنا لذلك كلمة إدخال التطور في الدين إلى درجة أنه يجيل إلى وأنا أتحدث فيها ، أن الأمر غريب على بعض الأذهان التي تتساءل : لم لا يكون في الدين تطور ؟

ولكن إذا فهمت فكرة التطور على حقيقتها ، وإذا فهمت فكرة الدين على

حقيقتها : كان لا مناص من الإقرار ، بأن الدين لا يندخه قط - ولا شروى
نقى ، لا ، ولا قلامة ظفر - فكرة التطور .

إن التطور الفكرى تغيير من حال إلى حال ، وهو تغيير مستمر دائم ، إنه
تغيير لا يتأبه هدوء ولا سكون ، إنها إذن النسبية ، إنها إذن السوفسطائية
القديمة ، إنها عود إلى هذه الفترة القديمة التى لم يكن فيها دين ثابت ، ولم يكن
فيها خلق ثابت ، فالأمر فيها حينئذ عند السوفسطائيين ليس أمر ثابت مطلق .
وليس أمر عصمة ، وليس أمر قضايا محققة ، وإنما الأمر أمر تغيير باستمرار
وأمر نسبية .

وبذلك يقضى على الدين : ويقضى على الأخلاق .

وإنه لمن المؤسف حقيقة - أننا نجد فكرة التطور تسرب إلى الناحية
الدينية ، وإلى المحيط الدينى فى الأقاليم الإسلامية ، وهذه الفكرة لتطورتها
ولأنى أعلق على إزالتها كثيراً من الأهمية : أريد أن أضرب بعض الأمثلة حتى
تكون على بينة من الأمر :

قرأت فى بعض المجلات مقالاً يقول كاتبه إن فضيلة الشيخ (. . .) رجل
متطور واسع الأفق ، ومن مظاهر تطوره - فى رأى الكاتب - أنه يأبى إلا أن
يقم صلاة الغائب على روح فلان ، وفلان هذا الذى ذكره الكاتب ، لا يدين
بدين الإسلام ، وما من شك فى أن ذلك لا يجوز إسلامياً ، وما من شك فى
أن فضيلة العالم الكبير ، لا يفعل ذلك ولا يبيحه ، ولكن ذلك إن دل على
شئ فإنما يدل على جهل الكاتب بمعنى الحقائق الدينية التى لا تتغير بتغير
الأهواء والمواطف ، ويدل من جانب آخر على الخطورة التى يتعرض لها الدين

حينما تدخله فكرة التطور ، وحينما تناوله أقلام الذين لا يعقلون دين الله على الوجه السليم .

ومثل آخر :

إننا جميعاً نجل الشيخ محمد عبده ، ونحترمه وندين له بكثير من تخلص الدين من الخرافات والأساطير ، ولكن حينما نقرأ له تفسير قصة آدم فنراه لا يمنع احتمال أنها تمثيل 1 ، نتساءل : لم ذكر الشيخ محمد عبده هذا الاحتمال ؟ حينما نتساءل حقيقة عن السر العميق - في الشعور أو في اللاشعور - نجد أن الشيخ محمد عبده رأى أن فكرة التطور متشرة في جميع أرجاء أوربا ، بل والعالم وهي - فيما يرى بظاهرها - تتعارض مع التعاليم التي تنبئ أن آدم هو أول البشر ، وهو الذي خلقه الله وسواه ، ونحاطب الملائكة في شأنه وأمرهم أن يسجدوا له :

رأى الشيخ محمد عبده أن كل ذلك لا يتلاءم كثيراً مع فكرة التطور المزعومة . . . لماذا صنع ؟ ذكر هذا الاحتمال ، وبذلك يمكننا أن نؤولها كيفما شئنا ، وما كنا نود أن يميز ذلك إذ أنه يفتح للناس باب التأويل في صورة من الاستغاضة الضارة .

كما رأى الشيخ محمد عبده أن يفسر اختلاف رسائل الرسل وتعاقبها . موسوية وعيسوية وإسلامية ، بتطور الإنسانية ، إن الإنسانية - حسبما يرى - حسية في زمن موسى ، فكانت رسالة سيدنا موسى حسية . ثم تطورت الإنسانية من الحس إلى العاطفة ، فكانت رسالة سيدنا عيسى عاطفية . ثم تطورت الإنسانية من الحس والعاطفة إلى العقل ، فكانت رسالة سيدنا محمد عقلية . ورأى أن الإنسانية لم تتطور هذا التطور ، وأن الإنسانية أينما سرنا وعند أي

فرد رأينا ، وفي أي مجتمع شاهدنا ، فإنما يتمثل فيها جوانب ثلاثة .
الحس ، وال عاطفة ، والعقل ، ولكن فكرة التطور ، وأن الإنسانية متطورة
انتهت بأن أصبحت مسيطرة على الكثيرين فانقادوا لها ، وأدخلوها في المحيط
الديني ، فأفسدت كثيراً من القضايا . ونعود فنترحم على الشيخ محمد عبده ،
وإذا كنا نتقدمه ونحن نحاضر في قاعته ، فذلك أننا نعلم أنه رحمه الله ، كان من
سعة الصدر ، ومن سعة الأفق بحيث لا يضيق بتقد ، ونعتقد أنه لا يضيق الآن
بتقدنا .

ونأتي إلى شخصية أخرى نمجدها أيضاً ونحترمها : شخصية محمد إقبال .
وإن جهاده بالنسبة للإسلام ، وجهاده بالنسبة للمسلمين لا ينكر .
ولكنه لم يستطع أن يتخلص من فكرة التطور في بعض المسائل كما رأى
فليراجمها من شاء في آرائه وفلسفته .

أيها السادة :

كلكم تعلمون أن الدين عقيدة وأخلاق وشريعة ، وتصوير التطور في
العقيدة ، أن نقول مثلاً : اليوم ، ربنا واحد . . أما غداً فإنه سبحانه وتعالى
عن ذلك - يكون اثنين ١٩ .

وتصوير التطور في الأخلاق ، أن نقول مثلاً : إن الصدق اليوم فضيلة
وغداً يكون رذيلة ، أو الصدق فضيلة اليوم وهو غداً ليس بفضيلة ولا رذيلة !
فأنتم ترون أنه لا تطور في العقيدة ، ولا في الأخلاق .

لكن الشبه تطلق في بعض الأذهان حول التطور في التشريع ، والذي يوجد
الوهم بهذه الشبه هو : باب الاجتهاد ، والمتعلق يقول : إنه مادام هناك اجتهاد
في التشريع فسيكون هناك تطور فيه ، ولكن الذي يقول هذا الكلام لا يفهم

معنى الاجتهاد ، أو هو يفهم معناه ويحاول أن يتجاهله . معنى الاجتهاد وحقيقته ، إنما هو المحاولة الجادة المستمرة للوصول إلى ما كان عليه الرسول ﷺ ، من أجل اتباعه ، ومن أجل إدخال المسائل الجديدة تحت القواعد القديمة التي استتجت من كلام الرسول ﷺ ومن القرآن . وليس للاجتهاد معنى آخر غير هذا .

وكل المجتهدين : الإمام الشافعي ، الإمام أحمد بن حنبل ، الإمام أبو حنيفة ، الإمام مالك - كلهم يقولون : إذا صح الحديث فاضرب برأى عرض الحائط : أى أنه إذا رأى رأياً من الآراء ملتصقاً في هذا الرأى ، أن يكون موافقاً لكلام الرسول ، ثم تبين فيما بعد أنه خطأ ، لأن الحديث يفيد غير ذلك ، فإن كلامه ورأيه لا قيمة لها ، ويجب أن يطرحا ويملا وأن يأخذ بكلام الرسول ﷺ .

وإذن ليس في الاجتهاد تطور .

إن العقل كمنبع لما وراء الطبيعة ، والضمير كمنبع للأخلاق . . . كل هذه هي البشرية في مقابلة الألوهية ، في مقابلة النص ، واعتمدت إذن الحضارة الحديثة على البشرية في مبادئها وقواعدها ، فكانت النظم الاجتماعية المختلفة ، والنظم الأخلاقية المختلفة . وكان الهدم في كل يوم وانتهت في بعض الميادين الفكرية الاجتماعية إلى ما كان يمكن أن يتصور أن تنهى إليه :

لقد انتهت بتفسير أو تصوير رائع ، لآية قرآنية كريمة هي : ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثل كمثل

الكلب إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ﴿
وأريد أن أشرح هذه الآية في إيحاء : إن آيات الله محيطه بالإنسان من
جميع أقطاره ، فالسماوات من آيات الله ، والأرض من آيات الله ، والأشجار
من آيات الله ، والأنهار والجبال ، والمحيطات والنجوم والكواكب كل ذلك من
آيات الله . هذا الإيداع المحكم ، الذي يحيط بالإنسان من جميع أقطاره ، هذه
الآيات التي تحيط بالناس ، أينما كانوا والتي تتأدى بجلال الله وعظمته
حاول بعض الناس الانسلاخ منها - فلم يقرأوا بالآلوهية الإقرار السليم . والتعبير
بالانسلاخ من أحكم وأدق وأروع ما يكون .

لقد حاولوا الانسلاخ منها وهي ملتصقة بهم التصاق جلد الإنسان
بالإنسان ، وانسلخوا منها بعد لأي وعلى خلاف الفطرة ، وعلى وضع لا يتلاءم
مع النظام الطبيعي ، وانسلخوا بذلك من محيط الآلوهية ، إنهم خرجوا عن
مرادق الآلوهية ، وخرجوا عن أن يكونوا من عباد الله ، فتيثروا بصنيعهم هذا
ليكونوا من أتباع الشيطان ، وسهل على الشيطان غزوهم ، فغزاهم بجبله ورجله
فكانوا من الغاوين ، ولو شاء الله لرفعهم بآياته ، ولكن العيب جاء منهم هم ،
إذ أدخلوا إلى الأرض :

وما من ريب في أن الإخلاق إلى الأرض في أبشع صورة هو الشيوعية .
واتبعوا أهواءهم .

وما من شك في اتباع الهوى في أسمى صورة هو الفلسفة الوجودية .
وسواء كنا بصدد الشيوعي ، أو بصدد الوجودي فثله كمثل الكلب ، إن
تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث .

ولكن لِمَ يلهث سواء أحملت عليه أم تركه ؟

إن الشيوعي ليس همه إلا المادة ، والإخلاق إلى الأرض . ومهما بسط الله له في الرزق فهو ضيق بذلك . وإذا ضيق الله عليه الرزق ، فهو ضيق بذلك أيضا ، إنه لا يطمئن إلى شيء روحى يقنعه ، والمادة - مها أوقى الإنسان منها - فإنها - مادام جسماً - لا تنهى إلى إرضائه ، وكذلك الأمر فيما يتعلق بالوجودى :

فإنه وقد آثر اتباع الهوى - وليست الوجودية إلا إثارة اتباع الهوى - فإنه لا يعتمد على هاد يطمئنه ، ولا على اطمئنان يسكنه ، وهو ضيق بالحياة ذرعاً ، سواء كان سعيداً أو شقيماً ، فثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تركه يلهث .

انتهت الحضارة إلى أمثال هذه النظم التي لا ترى إلا المادة أو لا ترى إلا البشرية الهاوية أو الغاوية ، وانتهى الأمر بالشيوعي والوجودى إلى ما كان لا مفر من أن ينتهى إليه ، وهو انفصال الشيوعي وانفصال الوجودى عن المحيط الإلهى ، عن السرادق الإلهى .

وما لا شك فيه ، أن هذه النظم التي لا تتصل بالعصمة إنما تتخبط وتكون باستمرار متأرجحة متقلبة ، ولا تستقر استقراراً نسبياً إلا بالحديد والنار ، وبالسلاح . وسفك الدماء ، وبالقتل وإن ما وراء الستار الحديدى يمكن أن يكون صورة لكل هذا الانفصال عن الألوهية ، الذى لا يستقر إلا بالحديد والنار .

تلك أسس الحضارة ومتابعها ، ومصادرهما : عقل ، ضمير : فتطور ، فانتهاه إلى أمثال هذه النظم التي خرجت بالإنسان عن الجادة .

والدين إذن لا يعارض التقدم في سبيل إسعاد البشرية . هذه قضية نحن مسلمون بها .

الإسلام :

نريد أن نتحدث عن الإسلام ، وتكفيني كلمة « الإسلام » تكفيني هذه الكلمة ، للدلالة على أن هذا الدين صحيح ، منزل من عند الله . إن معنى الإسلام : الاستسلام لله في كل مظهر من المظاهر ، وفي كل حركة من الحركات ، وفي كل أمر من الأمور ، وتصور المعنى لهذا التعبير الرائع الآية القرآنية الكريمة :

﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ .

إن هذا التصوير للإسلام في هذه الآية الكريمة رائع حقاً . استسلام لله ، أى دخول في النطاق الإلهي ، ابتعاد عن الهوى والشيطان ، إنه إسلام الوجه لله : فرق كبير بين هذا وبين الخروج عن النطاق الإلهي بالشيوعية أو بالوجودية .

وفها يتعلق بالإسلام هناك التنظيم للمعصومة . هناك الأخلاق المعصومة والتشريع المعصوم . هناك إذن المعصمة كاملة ، ولكن الاستسلام لله يقتضى شيئاً آخر هو الجهاد والكفاح المستمر من أجل الحق والخير وإعلاء كلمة الله ، فإذا لم يكن هناك جهاد من أجل الإسلام فلا إسلام . ومن لم يجاهد من أجل إسلامه فليس بمسلم . هناك إذن الجهاد ، وهناك الاتجاه إلى جعل الإنسان ربانياً أو إلهياً .

ولكن ما هي السبيل التي رجعها الإسلام ، لجعل الإنسان رباتياً ؟ ...
لقد :

١ - ضمن الله الرزق .

٢ - وحدد الآجال .

﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ . ولضعفنا وانشغالنا بالرزق
والحرص عليه أكد الله ضمانه بقوله تعالى : ﴿ فو رب السماء والأرض إنه لحق
مثل ما أنكم تنطقون ﴾ .

وحدد الآجال ، وضرب لذلك أوضح الأمثال : فلو فرضنا أن إنساناً في
برج مشيد وكتب عليه القتل ، لخرج من هذا البرج للمشيء إلى القتل : ﴿ ثم
أنزل عليكم من بعد الغم أمة ناعساً يفتشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم
أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل
إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر
شيء ما قتلنا هاهنا ، قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى
مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليححص ما في قلوبكم والله عليم بذات
الصدور ﴾ .

فإذن الآجال محددة ، والأرزاق مضمونة ، فإذا بعد ذلك إلا الاتجاه إلى
الله كلية ، وبكل ما تملك ، وبكل ما تحس ، وبكل ما تشعر .

وليس الاتجاه إلى الله كسلاً فالأعمال عبادة ما دمت متجهاً بها إلى الله :
حركاتك وسكناتك وأنفاسك ، إذا اتجهت بها إلى الله فهي عبادة . فالعامل في
معمله إذا اتجه بعمله إلى الله فهو عابد . والصانع في مصنعه عابد إذا كان متجهاً
بعمله إلى الله . ومن كانت هجرته إلى الله ورسوله بعمله ، وصناعته ، وحركاته

وسكناته ، فهجرته إلى الله ورسوله ، والله يشييه على فعله .
إذا كان الله قد ضمن الرزق ، وحدد الآجال ، فليس هناك مطلقاً عذر من
الأعداء للمسلم لأن يتخاذل ، وأن يتكاسل ، وأن يتواكل .
والصورة المثل في ذلك إنما هي صورة محمد صلوات الله وسلامه عليه في
كفاحه الذي لم يفتر ، وجهاده المستمر ، وهي صورة للمتأسين به يجب أن
يحتذى .

ولكن لم الجهاد ؟ ولم الكفاح ؟ .
هناك رسالة إسلامية ونحن مكلفون بها . ونحن لا نقول : الأزهر فحسب
هو المكلف بها ، وإنما نقول : إن كل مسلم مكلف بهذه الرسالة .
وهذه الرسالة الإسلامية تصورها الآية الكريمة : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة
للعالمين ﴾ .

والرحمة بالإنسانية ، إنما هي إخراجها عن دائرة الشيطان إلى دائرة الله
سبحانه وتعالى . إخراجها عن التناحر وعن التنازع من أجل المادة . إلى السمو في
آفاق الأخوة ، وفي آفاق الرحمة الشاملة العامة . هذه الرسالة الرحيمة الرحانية
التي حددها الإسلام بنظمه ومبادئه ، والتي كلفنا بها ، وكنا خير أمة أخرجت
للناس من أجلها ، إذا لم نقم بها في وجه الحضارة الحديثة ، لا نكون مسلمين
أوعلى الأقل لا نكون في عملنا السلي من الذين يتأسون بصاحب الرسالة
الإسلامية ، ولن يكون لنا الفخر بأننا من حملة الرسالة الرحانية ، رسالة
الرحمة المهداة .

اعتزاز المسلم بدينه :

والواقع أن المسلم يجب أن يفخر حقيقة بدينه وينظمه ويرسوله وبأتمته .
ودون أن نريد موازنة في قليل ولا كثير ، نرى مثلاً أن هذا الشيخ الوقور
سيدنا نوحاً عليه السلام الذى عاش في قومه دهرأ يدعوهم إلى الله ، انتهى به
الأمر بأن كانت كل الحصيلة مجموعة حملت في سفينة .

وإذا جئنا إلى سيدنا موسى نجد أنه حين أراد القتال ، قال له قومه :
﴿ يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا
ههنا قاعدون ﴾ .

ومن الصور القرآنية الطريفة جدا ، أن سيدنا موسى بعد أن جاهد في قومه
هذا الجهاد بالدعوة والإرشاد والنصيحة ، تركهم فترة وتقدمهم قليلاً ، فخاطبه
الله بقوله :

﴿ وما أعجلك عن قومك يا موسى . قال هم أولاء على أثرى وعجلت
إليك رب لترضى ﴾ . فذكر كلهم الله ، أن قومه هم أولاء على أثره ولكن
الشوق والحب حمله على ذلك : ﴿ وعجلت إليك رب لترضى ﴾ . وجميل
هذا لكن انظروا إلى التربية الحكيمة في الأسلوب المهذب ، هذا الأسلوب
الذى كأنه يقول : إنك لم تحكم أمر الدعوة من ورائك ، وإن إحكام أمر
الدعوة إنما هو لقاء الله : ﴿ قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم
السامرى . فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا ﴾ . .

وإذا جئنا إلى سيدنا عيسى ، فإنا نجد أن سيدنا عيسى صلوات الله عليه
وسلامه حين رفعه الله إليه ، لم يكن هناك من يقر برسائه ، إلا بضعة أفراد

يعدون على الأصابع ، أو يعدون بالعشرات وأكبر تقدير لأتباع سيدنا عيسى ، أنهم كانوا ثلاثمائة . أخذ سيدنا موسى قومه ، من مصر فأرأ بهم ولم يقاتل ولم يجاهد ، وحين أدركه فرعون لم يتوجه إلى القتال وإلى الجهاد ، وإنما توجه إلى الله ، فأمره الله بضرب البحر بعصاه ، فضرب البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، ومر موسى وقومه آمنين دون جهاد ودون كفاح .
وسيدنا عيسى لم يتوجه إلى القتال ولا الكفاح في سبيل إعلاء كلمة الله التي هي الحق والخير .

ولكن إذا جئنا إلى سيدنا محمد ﷺ : فإننا نجد مباشرة العزم المصمم والإرادة النافذة .

يجب أن يدين العالم لله وأن يسلم وجهه لله ، لتلك الرسالة الإسلامية .
ويجب أن يقف محمد صلوات الله وسلامه عليه ولو بمفرده في وجه العالم كله وفي وجه الكون بأكمله ، في وجه هذه الدنيا .

يجب أن يدين العالم ، يجب أن تدين السماء والأرض ، وأن يدين البشر بأجمعهم لرسالة السماء . ووقف سيدنا محمد يجاهد ويحالد ويكافح ويتمخطى العقبات ، ويتغلب على الصعوبات إلى أن انتهى به الأمر إلى النصر الكامل ، بالكفاح في سبيل الحق ، الكفاح إذن جزء لا يتجزأ من الرسالة الإسلامية إنه الكفاح من أجل الله ، لامن أجل مادة الشيعيين . الكفاح من أجل الله لا من أجل أهواء الوجوديين . إن الرسالة الإسلامية رسالة رحمة ورسالة كفاح من أجل الرحمة ، ورسولها خير معبر عنها بسلوكه ومواقفه ، فمن لم يتأس بالرسول ، ومن لم يكافح في سبيل الإسلام فليس له أن يفخر بأنه مسلم فضلا عن أن يزعم أنه مسلم مثالي .

تغلب محمد رسول الله ﷺ على كل عقبة وزلزل كل صعوبة ، وحطم كل صنم ، وانتهى به الأمر إلى أن شاهد ارتفاع الأذان الإسلامى فوق الكعبة وفى مكة التى كانت تأبى كل الإياء أن تدين لله ، وأن تسلم وجهها إلى الله وحده . ومهمتنا جميعاً إذن هى مهمة الرسول : تحطيم الأصنام : تحطيم صنم الشهوة والهوى المتغلغل فى النفس ، وتحطيم صنم المادة ، ونشر رسالة الحق والرحمة حتى تنتهى من كل ذلك بأن يسلم العالم وجهه إلى الله . فإذا انتهينا إلى ذلك ، أو إذا ما حققناه كنا فى رضوان الله ، وكنا من هؤلاء الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه .

وإني لأرجو فى النهاية - أن يتكاتف المخلصون فى العالم الإسلامى ويتساندوا ، ليقفوا أمام هذا الزحف المتتابع من المدينة الغربية ، التى تريد أن تطمس الإسلام فى أهدافه وفى نظمه ، وفى تعاليمه ، وفى أقدس مقبساته . إذا أمكن أن يتكاتف المخلصون فإن الأمر سينتهى بالنصر ، أما إذا لم يتكاتفوا فإن ذلك لا يعنى كل مسلم - منفرداً - من العمل الجاد فى سبيل إعلاء كلمة الله ، والعمل على سيادة المبادئ الإسلامية ، ففيها سعادة العالم إن شاء الله تعالى .

وبالله التوفيق

فهرس

الصفحات

١٢ - ٧

مقدمة

القسم الأول : في الفلسفة

٣٠ - ١٥	: القرآن ماد للعقل	الفصل الأول
٤١ - ٣١	..	: موقف المسلم من الدين (السجود)	الفصل الثاني
٥٦ - ٤٢	: الإمام الشافعي والفكر اليوناني	الفصل الثالث
٧٥ - ٥٧	: إخفاق الفلسفة	الفصل الرابع
٨٥ - ٧٦	: الإمام الغزالي والفلسفة	الفصل الخامس
١٠٤ - ٨٦	: تأملات في الإيمان والإلحاد	الفصل السادس

القسم الثاني : في علم الكلام

١١٤ - ١٠٧	: الفلسفة وعلم الكلام	الفصل الأول
١٦٠ - ١١٥	: علم الكلام الرازي	الفصل الثاني
١٧٦ - ١٦١	: الإمام الغزالي والمتكلمون	الفصل الثالث
٢٢٠ - ١٧٧	: علم الكلام فيما ينبغي أن يكون	الفصل الرابع
٢٣٨ - ٢٢١	: الإسلام والحضارة الحديثة	خاتمة

رقم الإيداع	١٩٨٥ / ٢٤٩١
الترقيم الدولي	٩٧٧-٠٢-١٢٤٧-٤ ISBN

١ / ٨٥ / ١٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذا الكتاب

حاول القدماء كما حاول المحدثون : اختراع
مقياس فيصل للترقية بين الحق والباطل . .
حاول ذلك أرسطو بمنطقه . . وفعل مثله
مفكرو الإسلام من أمثال الكندي والفارابي
وابن سينا والغزالي وابن رشد وغيرهم .
وهذا الكتاب تفصيل لرحلة العقل الإسلامي
وهو يفرق بين الحق والباطل ، في ضوء الكتاب
والسنة ، فجاء إضافة واعية شاملة في هذا المجال
الفكري .

To: www.al-mostafa.com